

إِذَا الدِّينُ عَمِيَ بِدَانِيَا

الْأَسْبَابُ الْأَحْمَرُ

تأليف
أبي عبد الله
محمد بن سريته

الطبعة الأولى

أَنزَلَ إِلَيْنَا لَقِينَا
الْأَسْمَاءَ الْاِمْرَأَتِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

إبراهيم، محمد يسري
إن الدين عند الله الإسلام
تأليف محمد يسري إبراهيم
القاهرة، دار اليسر ٢٠١٥ م.
٤٢٦ ص. ١٧ سم × ٢٤ سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٦٤٠٦٩٩٥
١- الإسلام
أ- العنوان

٢١٠

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعتبر الكتاب عن آراء مؤلفه.
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية. ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى. بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها. دون إذن خطي من الناشر.



٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن

مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية

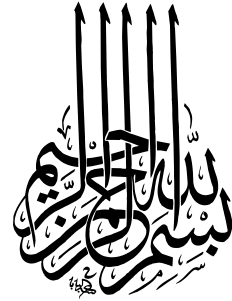
تليفون: ٠٢ ٢٤٧٠٩٢٦٩ محمول : ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨

فاكس : ٠٢ ٢٤٧١٤٨٠١ خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com

Email: alyousr@gmail.com

info@dar-alyousr.com



عضو اتحاد
الناشرين
المصريين



رقم الإيداع

٢٠١٥/١٤١٨٧

ترقيم دولي

978-977-6906-99-5



إِنَّا لَنَدِينُكَ بِإِلَهِكَ
الْأَسْمَاءِ الْأَكْبَرِ

تَأْلِيفُ
أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
مُحَمَّدٍ سُرِّي الْأَكْبَرِ





المُقْتَضَى

الحمد لله ربّ العالمين، قال في كتابه المبين: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فجعل الله الإسلام دينَ كلِّ نبيٍّ أرسله، وعقيدة كلِّ إنسانٍ أراد هدايته، لا يقبل الله دينًا غيره، ولا ينفع العبدَ في الآخرة دينٌ غيره، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولما ارتضاه للناس دينًا أكمله وتممه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمدٍ الذي قال: «ذاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا»^(١)، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً؛ أما بعد:

فإن الله تعالى كما تفضّل على جميع خلقه بنعمة الخلق والإيجاد، تفضّل عليهم بنعمة الهداية والإرشاد، ثم شرح صدر مَنْ شاء من عباده فهداه إلى دين الحق، وطريق

(١) أخرجه مسلم، (٣٤).

الصدق، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فالإسلام أعظم النعم وأجلُّها، عرفها الأنبياء فقدروها قَدَرَهَا فأوصوا بها، ودعوا الله تعالى أن يحفظها عليهم، وأن يتوفاهم عليها، قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

فالإسلام رابطة قلوب الموحدين أجمعين، وهو النسب الحقيقي بين أتباع الأنبياء الصادقين، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

• والإسلام- الذي أنزل الله تعالى على نبيِّنا الخاتم محمد ﷺ - هو خاتمة مسك الرسالات.

• ورسالة الإسلام عقيدة وشريعة، ودينٌ ودولةٌ، ومصحفٌ وسيفٌ في وسطية واعتدال.

• وخصيصة الإسلام العظمى: الربَّانية؛ فهو دين منزل من عند الله، لم تُشبهه شائبةٌ تحريفٍ أو تبديلٍ فهو بحمد الله يتفق مع الفطرة ويرعاها ولا يصادمها، ويصلح الإنسان، ويسعى لمصلحته في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فهو عالميُّ النزعة والمورد، ونبيُّه ﷺ مرسلٌ إلى الخلق كافةً، وإلى الجنِّ والإنسِ عامَّةً، وكتابه القرآن

ذكرُ للعالمين، ومحجّةٌ للسالكين.

• وأمة الإسلام خيرُ أمةٍ أُخرجت للناس، مرحومة ومنصورة، ومن الاجتماع على الضلالة معصومة، هي آخر الأمم في الدنيا، والأمة المقدّمة يوم القيامة، وما ذاك إلا لأن الله أكمل لها الدين، وأتمّ عليها النعمة بدين الهدى والرحمة، دين المثالية والواقعية والخيرية.

• وعقيدة الإسلام توحيدٌ وإيمان، تتلقّى عن أصحاب النبي العدنان، فهي أثرية ثابتة لا يعترّيها تغيير ولا تبديل، تحترم العقول وتقوم على المنقول، سهلة لا تعقيد فيها ولا عسر، واضحة لا غموض فيها ولا تكلف! تشمل الدنيا والآخرة، وتُبنى على الإيجابية والتضحية.

• وشرعة الإسلام خاتمة ومهيمنة، صالحة ومصلحة، تحرّر البشر وترعى حقوقهم، وتصون دماءهم وأموالهم، وتُحقّق العدالة فيما بينهم، تعتني بالأخلاق وتحتُّ على مكارمها، وتفتح باب السعة وتملك أسباب المرونة في أحكامها.

• وعبادة الإسلام يتسع مفهومها؛ ليشمل عمارة الدنيا بأسرها، وتحتوي على كلّ عملٍ صالح ورد الشرع بالتعبّد به، لا رهبانية فيها ولا غلوّ، ولا تفريط فيها ولا تقصير، فهي الوسط المحمود بين طرفين مذمومين، والتوازن المنشود بين الاجتهاد في شعائر التعبد، وعمارة الكون والحياة، وروحها التيسير ورفع الحرج.

• ودعوة الإسلام هي دعوةٌ إلى الحقّ وإلى دين الحق، دعوة ربّانية المصدر والغاية، منضبطة المقصد والوسيلة، تقتفي أثر الأنبياء ﷺ، وتهتدي بهداهم، تقوم على العلم، وتستضيء بنور الوحي، فهي دعوة على بصيرة.

• وقد رعى الإسلام القيم الإنسانية، فزادها جمالاً وكمالاً، فالعلم قيمة مع العدل، والحرية قيمة مع الانضباط، والعمل قيمة مع الإلتقان.

• وشريعة الإسلام أعظم الشرائع رعايةً لحقوق الإنسان، وموازنةً بين الحقوق والواجبات، في تكاملٍ وشمول، فيرعى للأطفال حقوقهم ويؤكدها، ويأمر الأبناء برعاية حقوق الوالدين ويعظمها، ويُنصف المرأة ما لم ينصفها دينٌ آخر، ويعتني بما لغير المسلمين من حقوق، ويحافظ عليها، ويُنبه إلى أن ضياع حقوق الإنسان إنما هو بسبب تغييب الحكم بشريعة الإسلام! وليس هذا من دعوى المسلمين؛ وإنما هو بشهادة الجمع الغفير من المنصفين من غير المسلمين!

• وبالجملة؛ فإن للإسلام مقاصدَ عظيمةً، ومبادئَ قويمَةً، ترعى الدين وتحفظه، وتوجبُ تعلّمه والعمل به والدعوة إليه، وتأمر بالتحاكم إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وتشرع كلّ سبب للدفاع عن الدين وحمايته.

• ويقصدُ الإسلام إلى تكريم النفس الإنسانية، وحفظ أسباب بقائها والإحسان إليها، ويمنع كلّ صورِ العدوانِ على نفسِ الإنسان من نفسه أو من غيره، ويأمر بحفظ النسل، ويُرغّب في النكاح، وينهى عن السفاح، ويحفظ الأنساب ويصونها.

• ويكرّم الإسلام العقلَ ويحميه، ويحرّره من معوقاته، ويوظّفه في مجالاته، بما يحقق للإنسان مصالحه ومنافعه.

• ويحفظ الإسلام المال وينميه لأهله، ويأمر باكتسابه من حِلِّه، وينهى عن إنفاقه في غير وجهه، ويوجب في المال حقوقاً لعباد الله، ولا يمنع الإنسان من

الاستمتاع بما أحله الله.

• ويأمر الإسلام بالأخلاق الفاضلة، والآداب الكاملة في كل شأنٍ من شئون الإنسان، فإذا بالحياة تزدهر، والخير في ربوع الدنيا ينتشر، فيبلغ الإسلام بأهله أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة.

• فليت من يكره الإسلام عن غير علمٍ أن يتعرّف على مبادئه، وأن ينظر إلى محاسنه، وأن يقارن بعلم وعدل بينه وبين غيره من الأديان! ويطلع على طرفٍ مما قاله المنصفون - من غير المسلمين - عن شريعته وأحكامه، أو عن عقيدته وأخلاقه؛ ليقف على الكمال مجردًا وعلى المثال متفردًا!

• وما أجدر أهل الإسلام أن ينصروه بأنفسهم ونفيسهم! فيتعلموا علومه ويتمسكوا بثوابته، ويسعوا بأمر الإسلام بين الناس دعوة وهدايةً، ويتملّكوا أسباب القوة الإيمانية قبل المادية، ويُشيعوا - فيما بينهم - روح الأخوة الإسلامية؛ فهذا من أعظم ما يحتاجه الإسلام لنصرة قضاياه في المشارق والمغارب.

• وهذا الكتاب كلماتٌ متتابعات في بيانٍ شافٍ وافٍ عن الإسلام من مختلف جوانبه، لا إملال فيها ولا إثقال، تهدفُ إلى تعريف يميّط اللثام عن محاسن الإسلام، ويرشد إلى جوانب من هدايته، وينير الطريق لمن سأل عن شريعته وحقيقته، ونسأل الله تعالى أن يفتح للإسلام مغاليق القلوب، وأن يشرح الله بأنواره ما ضاق من الصدور!

وقد جاء هذا الكتاب بعد المقدمة في عشرين فصلًا، بيانها كالتالي:

- الفصل الأول: حقيقة الإسلام.
- الفصل الثاني: أركان الإسلام والإيمان والإحسان.
- الفصل الثالث: كتاب الإسلام.
- الفصل الرابع: نبي الإسلام ﷺ.
- الفصل الخامس: خصائص الإسلام.
- الفصل السادس: خصائص الأمة الإسلامية.
- الفصل السابع: محاسن الإسلام.
- الفصل الثامن: قيم وحقوق رعاها الإسلام.
- الفصل التاسع: مقاصد شريعة الإسلام.
- الفصل العاشر: أخلاق الإسلام وآدابه.
- الفصل الحادي عشر: المقدسات الإسلامية.
- الفصل الثاني عشر: دولة الإسلام.
- الفصل الثالث عشر: حضارة الإسلام.
- الفصل الرابع عشر: عطاء الإسلام للبشرية المعذبة.
- الفصل الخامس عشر: لماذا الحرب على الإسلام؟!
- الفصل السادس عشر: الإسلام في عيون المنصفين.
- الفصل السابع عشر: شبهات حول الإسلام.
- الفصل الثامن عشر: الأقليات الإسلامية.
- الفصل التاسع عشر: انتصار الإسلام.
- الفصل العشرون: مواقع وقنوات ومراكز إسلامية.

الإسلام | ١١

فيا من كنتَ عن الإسلام معرِضًا وعن بيناته مُدِيرًا أَقْبِلْ بوجهه باسم طليق،
وبصدر رحب منشرح؛ لتنعم بسرَّ السعادة التي حُرِّمَهَا الكثيرون، ولتظفر بالأمن
والأمان النفسي الذي يفتقده المعذبون.

إنَّ واحة الإسلام تملأ القلب رضا عن الله تعالى في شرعه الحكيم، وقدره
الرحيم، وخلقِهِ العظيم!

وإلى الباحثين عن الحق في مشارق الأرض ومغاربها هلمَّ إلى الدين الحق!
فاللَّهُمَّ اهدنا للإسلام، وارزقنا التمسُّكَ بالإسلام، وأُحِينَا بالإسلام، وأَمِتْنَا
على الإسلام، وأَدْخِلْنَا الجنةَ بالإسلام، واجعلنا مِن أهل دار السلام، برحمتك
يا أرحم الراحمين.

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربَّ العالمين.

كتبه
أبي عبد الله
مُحَمَّدُ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ

الدوحة ليلة الجمعة
١٤٣٦/٤/٩ هـ - ٢٠١٥/١/٣٠ م



الفصل الأول ..

حقيقة الإسلام



حقيقة الإسلام

التدين بالدين الحق فطرة بشرية، وخلقة سوية، خلق الله عليها البشرية، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

والفطرة من أعظم البواعث على التدين بدين الحق، وهو الإسلام، وفي الحديث القدسي: «وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم»^(١).

«وكون الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه، أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية، وهذا ما أفاده قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾»^(٢).

فكلُّ إنسانٍ متدين بفطرته وبأصل خلقته، فإن بقيت فطرته سليمة من المؤثرات الباطلة اهتدى إلى الدين الحق، وإن انتكست فطرته تهوّد أو تنصّر أو تمجّس، أو عبد مع الله غيره! أو جحد حقّ ربه، وألحد في وجوده!

(١) أخرجه مسلم، (٢٨٦٥).

(٢) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، (٩/٢١).

والفطرة إن انحرف صاحبها عن الصراط المستقيم تردّه إلى الجادة ولو بعد حين، ويتأكد هذا في زمن شدة ومحنة قاهرة، أو ضرورة ملجئة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وعليه؛ فإن الإنسان في كل زمان ومكان لا بدّ له من دين يتدين به، ومعبود وخالق يذلّ ويخضع لسلطانه، ويتوجّه إليه راغباً في نواله وثوابه، وراهباً من سخطه وعقابه.

والدين الذي يتدين به الإنسان إما أن يكون دين الحق، أو دين الباطل، وكل ما عدا دين الحق فهو دين الباطل، وكل ما عدا دين الحق فهو زاهق وزائل.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد جاءكم محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، والبيان الشافي من الله ﷻ فآمنوا بما جاءكم به، واتبعوه يكن خيراً لكم»^(١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾» [النساء: ١٧٠] بالإسلام الذي

(١) تفسير ابن كثير، (١/ ٧٢٧).

ارتضاه الله لعباده ديناً»^(١).

فما هو الإسلام الذي ارتضاه الله للأوليين والآخرين ديناً؟ وما هو الإسلام الذي أنزله الله على خير الأنام ﷺ؟ هذا ما نتعرض له باختصار وإيجاز.

تعريف الإسلام:

الإسلام- في اللغة- له عدة معانٍ تدور حول السلم، والسلام، والاستسلام، والانقياد التام، والطاعة والقبول، والخضوع، والإذعان والإخلاص^(٢).

وأما معنى الإسلام- في خطاب القرآن وسنة النبي العدنان ﷺ -: فيوافق معاني اللغة كافة، ويزيد عليها بمعنيين اثنين، هما:

الأول: دين الأنبياء صلى الله عليهم وسلم جميعاً، وهو الإسلام العام.

الثاني: دين نبينا محمد ﷺ خاصةً، وهو الدين الخاتم.

الإسلام العام:

هو التبعّد لله تعالى بما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه صلى الله عليهم وسلم، من لدن آدم ﷺ وإلى قيام الساعة، وهذا الإسلام العام هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

قال قتادة رحمه الله: «الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودلّ عليه أوليائه، لا يقبل غيره، ولا يجزي إلا به»^(٣).

(١) تفسير الطبري، (٩/ ٤١٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٤٣٧)، لسان العرب، لابن منظور، (١٢/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٣) تفسير الطبري، (٣/ ٢١٢).

وقد قال الله تعالى على لسان نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال - عن إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال أيضًا على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال أيضًا على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامِنًا بِاللَّهِ وَشَهِدَ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

والإسلام العام هو توحيد الله بالعبادة لا شريك له، وعبادته بشريعة نبي ذلك الزمان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفي الحديث: «الأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»^(١). فالإسلام العام دينُ أنبياءِ الله - جميعًا - وإن اختلفت شرائعهم العملية من نبيٍّ إلى نبيٍّ، ومن زمانٍ إلى زمان.

(١) أخرجه البخاري، (٣٤٤٣)، ومسلم، (٢٣٦٥).

الإسلام الخاص:

ومعناه: «الاستسلام بالتوحيد الخالص لله تعالى والاتباع الكامل لرسوله ﷺ، والبراءة من الشرك وأهله»^(١).

والإسلام- بالمعنى الخاص- هو: خصوص ما أنزل على نبينا ﷺ من الدين، ومن بعد بعثته ﷺ لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].
وفي الحديث قال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»^(٢).

الاستسلام لله:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فمن حيث بُعث محمد ﷺ لم يكن الإسلام إلا ما أمر به؛ لأن الإسلام أن يستسلم العبد لله رب العالمين، لا لغيره، فمن استسلم له ولغيره فجعل له ندًا فهو مشرك»^(٣).
فلا يثبت إسلامٌ بغير استسلام وتسليم! قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، قال أهل التفسير: «أسلموا له: استسلموا له، واخضعوا له بالطاعة والإقرار بالدين الحنيف، وأخلصوا له التوحيد»^(٤).

(١) درة البيان، لمحمد يسري، (ص ٦).

(٢) أخرجه مسلم، (١٥٣).

(٣) الصفدية، لابن تيمية، (٢/ ٣١٤-٣١٥).

(٤) تفسير الطبري، (١١/ ١٧)، تفسير ابن كثير، (٤/ ٦٠).

الاتباع الكامل لرسول الله ﷺ:

حقيقة اتباع النبي ﷺ - بعد الشهادة له بالرسالة - تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبدَ الله إلا بما شرع، وألا يُعارضَ أمره ونهيه بترخص جافٍ ولا بتشدّدٍ غالٍ، ولا بحمله على علةٍ تُوهن الانقياد.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أهل الحق والسنة لا يكون متبعوهم إلا رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليس هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كلُّ أحد من الناس يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ»^(١).

وفي الحديث: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى! قيل: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(٢).

قال ابن الوزير اليماني رَحِمَهُ اللَّهُ: «نجاة أهل الإسلام في اتباع الرسول، ولزوم ما جاء به من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ»^(٣).

والاتباع للكتاب وللأصحاب لا ينافيانِ الاتباعَ للرسول ﷺ بل يوافقانه، وقد قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥] وقال تعالى:

(١) مجموع الفتاوي، لابن تيمية، (٣/ ٣٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، (٧٢٨٠).

(٣) إشار الحق على الخلق، لابن الوزير اليماني، (١/ ١٠٢).

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُحَجِّينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

البراءة من الشرك وأهله:

البراءة: قطع الموالاة، وارتفاع العصمة، وزوال الأمان^(١).
وقد يقال: هي التجافي مع البغض والعداوة لكل ما يُعبد من دون الله ومن عابديه.

وهي براءة من العمل: وهو الشرك، وكل معصية وذنب، وبراءة من العامل: وهو كل كافر ومشرِك بالله، ومثله المنافق والزنديق.

وقد جمع القرآن البراءة من كلا النوعين في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد يقع التبرِّي من العبادة الباطلة والمعبودات الباطلة والعباد المبطلين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا الْكَافِرُونَ ۖ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۚ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون].

«عبادة المشرك كلها باطلة، لا يقال: نصيبُ الله منها حقٌّ، والباقي باطلٌ، بخلاف معبودهم؛ فإن الله إلهٌ حقٌّ، وما سواه آلهةٌ باطلةٌ؛ فلما تبرَّأ الخليلُ من المعبودين احتاج استثناء ربِّ العالمين، ولما كان في هذه تبرُّؤه من أن يعبد ما يعبدون،

(١) زاد المسير، لابن الجوزي، (٣/ ٣٩٢).

فكان المنفي هو العبادة، تبرأ من عبادة المجموع الذين يعبدهم الكافرون^(١).
والبغض والبراءة من الكفر والشرك لا تقدحان في سماحة الإسلام؛ لأن
الإحسان والعدل والبرَّ حقُّ لكل من لم يُقاتِلْ أهلَ الإسلام أو يُظَاهِرْ عليهم من
أهل الكتاب، ولأن الإسلام يحفظ لأهل الذمَّة حقوقاً كثيرة، ويوصي بهم وصيةً
خاصةً في أعراضهم وأموالهم ودمائهم، واختلاف الدين لا يلغي حقوق
الوالدين وذوي القربى، كما لا يلغي الموائيق والعهود المبرمة مع غير المسلمين.
وكما وجبت البراءة من أهل الشرك والكفران وجبت الولاية لأهل
الإسلام والإيمان.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال
تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فالمسلم عالمي بعقيدته ورسالته ليس له حدودٌ يُسميها وطنه! ولا قومٌ يعتز
بانتهاه إليهم إذا أشركوا بالله، بل نسبُ الإسلام وإليه ينتمي! قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَىكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ

وكل أرضٍ دخلها الإسلامُ فهي أرضُ المسلمين:

الصِّينُ لَنَا وَالْعُرْبُ لَنَا وَالْهِنْدُ لَنَا وَالْكُلُّ لَنَا

(١) مجموع الفتاوي، لابن تيمية، (١٦/٥٩٩).

الإسلام | ٢٣

أضحى الإسلام لنا دينًا وجميع الكون لنا وطنًا
توحيد الله لنا نورًا أعددنا الروح له سكنًا

من أجل ذلك كله كانت الأمة المسلمة أمةً واحدةً وموحدةً عبر ثلاثة عشر قرنًا من الزمان.

قال تعالى: ﴿وَلِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]،
وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وهذه الأمة الواحدة هي مَنْ حَقَّقَتِ الإسلامَ بمعنييه: العام، والخاص،
فأَمَنْتُ بجميع النبيين، وآمَنْتُ بنبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ.
ومع أن جميع رسل الله أمروا أتباعهم بالإسلام العام إلا أنهم أمروهم أيضًا
بالإسلام الخاص إن بُعث فيهم نبينا ﷺ.
وذلك ثابت بما أخذ الله من الميثاق على الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَ اتَّيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ
ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

فالحمد لله على ما شَرَّفَ به أمةَ النبي ﷺ من اختيارٍ خيرٍ دينٍ لخيرِ نبيٍّ،
وخيرِ كتابٍ لخيرِ أمةٍ.

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فيا أيها المسلم: الإسلامُ خير لك من الدنيا وما فيها وأمثالها وأضعافها.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾
[يونس: ٥٨]. قال قتادة **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «أما فضله: فالإسلام، وأما رحمته: فالقرآن»^(١).

وَبَنَيْنَا الْعِزَّ لِدَوْلَتِنَا	فِي ظِلِّ الدِّينِ تَرَبَّيْنَا
مِ شِعَارِ الْمَجْدِ لِمَلَّتِنَا	عَلِمُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَيَا
فِي الْغَرْبِ صَدَى مِنْ هَمَّتِنَا	وَأَذَانُ الْمُسْلِمِ كَانَ لَهُ
أَنْسَيْتِ مَغَانِي عِشْرَتِنَا	يَا ظِلَّ حَدَائِقِ أَنْدَلُسِ
شَطِئِكَ مَأْثَرِ عِزَّتِنَا	يَا دِجْلَةَ هَلْ سَجَلَتْ عَلَى

وفيما يأتي من فصول الكتاب المتتابعة فإن الحديث سيكون عن الإسلام
الذي أنزل على خير الأنام محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.



(١) تفسير الطبري، (١٢/١٩٦).



الفصل الثاني ..

أركان الإسلام والإيمان والإحسان



أركان الإسلام والإيمان والإحسان

دين الإسلام الذي أنزله الله على خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام له مراتب ثلاث، ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، ونصَّ عليها النبيُّ العدنان صلى الله عليه وسلم في حوار تعليمي بينه وبين جبريل عليه السلام، حيث جاء فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن مراتب الدين الثلاث بحضرة الصحابة رضي الله عنهم؛ ليفهموا دينهم، ويتفقهوا في مراتبه ودرجاته.

ومراتب الدين الثلاث هي:

الإسلام: وهو أول المراتب.

الإيمان: وهو أوسط المراتب.

الإحسان: وهو أعلى المراتب.

وقد يُعبَّر عن الدين كلاً بمرتبة منه، فيعبَّر عنه بالإسلام أو بالإيمان أو بالإحسان،

وهذا كثيراً ما يقع في كلام الله تعالى وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم.

فمن كلام الله تعالى الدالُّ على اجتماع واتفاق معنى الإسلام والإيمان عند

انفراد أحدهما عن الآخر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥].

ومن كلامه ﷺ لوفد بني عبد القيس عندما سألوه عن أمور الدين، فقالوا: «... فَمُرْنَا بِأَمْرِ فَصْلٍ، نخبر به مَنْ وراءنا، ندخل به الجنة، فأمرهم النبي ﷺ بالإيمان بالله وحده، فقال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأنَّ تُعْطُوا من المِغْنَمِ الْخُمْسَ»^(١).

فعرَّفَ الإيمان ببعض شرائع الإسلام وأركانه، وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: «الصلاة والزكاة من الإيمان»^(٢).

وعليه؛ فلا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، ولا يخلو كلُّ مسلمٍ من إيمان يصح به إسلامه، ولا يخلو كلُّ مؤمنٍ من إسلام يحقق به إيمانه^(٣). ومن الأدلة على انفراد معنى الإيمان عن الإسلام عند اجتماعهما في سياق واحد متصل: قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

وقوله ﷺ - وقد سأله رجل يا رسول الله! ما الإسلام؟ قال: «أنَّ تُسَلِّمَ قَلْبُكَ لله ﷻ، وأنَّ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ، قال: فأَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قال: الإيمان، قال: وما الإيمان؟ قال: تَوْمَنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ. قال فأَيُّ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ؟ قال: الهجرة، قال: فما الهجرة؟ قال: تهجرُ السَّوْءَ، قال: فأَيُّ

(١) أخرجه البخاري، (٥٣)، ومسلم، (١٧).

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم، (٣٣ / ٧).

(٣) الإيمان، لعبد الله بن عبد الحميد الأثري، (ص ٢١٤).

الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد، قال: وما الجهاد؟ قال: أن تُقاتِلَ الكفارَ إذا لقيتهم، قال: فأَيُّ الجهاد أفضل؟ قال: مَنْ عقر جواده وأهريق دمه، قال ﷺ: ثم عملانِ هما أفضلُ الأعمالِ، إلّا مَنْ عمل بمثلها: حجة مبرورة، أو عمرة^(١).

وقال ﷺ: «أسلمَ الناسُ، وآمنَ عمرو بنُ العاصِ»^(٢).

قال الزهري رَحِمَهُ اللهُ: «نرى أن الإسلامَ الكلمةُ، والإيمانَ العملُ»^(٣).

وبناءً عليه؛ فإن الإيمانَ رتبة أعلى من الإسلام، فقد يترقى المسلم إلى الإيمان، فإذا عصى نزل إلى رتبة الإسلام.

يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «الإيمان مقصورٌ في الإسلام، فإذا زنى خرج من الإيمان إلى الإسلام»^(٤).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - عند القول بأن الإيمانَ أفضلُ وأكملُ من الإسلام - : «وهذا الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة في غير موضع، وهو المأثور عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان»^(٥).

وستتناول - بشيءٍ من البيان - أركانَ الإسلام والإيمان والإحسان من خلال حديث جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) أخرجه أحمد، (١٧٠٢٧)، وعبد الرزاق في المصنف، (٢٠١٠٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٥٥١).

(٢) أخرجه أحمد، (١٧٤١٣)، والترمذي، (٣٨٤٤)، وقال: حديث غريب. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٥٥-١٥٦).

(٣) أخرجه أبو داود، (٤٦٨٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، (٤٦٨٤).

(٤) السنة، للخلال، (١٠٨٠).

(٥) مجموع الفتاوي، لابن تيمية، (٧/ ٤١٤).

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتُصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

أولاً: أركان الإسلام:

مرتبة الإسلام هي المرتبة الأولى من دين نبينا ﷺ، والإسلام أولى المراتب وأهمها؛ لأن من لم يكن مسلماً فلن يكون مؤمناً ولا محسناً؛ فالإسلام الدرجة الأولى التي تتبّعها درجات، والمنزلة الأولى التي تتبعها منازل.

(١) أخرجه مسلم، (٨).

والإسلام اعتقاد وعمل، الاعتقاد تمثله الشهادتان، والأعمال تمثلها الصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم تأتي بعد بقية الواجبات العملية فلا يتحقق الإسلام إلا بالشهادتين، ومن بعدها تأتي أعمال الجوارح الكبرى المذكورة في الحديث، ثم تأتي سائر التكليفات الشرعية والواجبات الإسلامية ليكتمل بناء الإسلام.

قال نبينا **عليه الصلاة والسلام**: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة؛ وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»^(١).

الركن الأول: الشهادتان:

الشهادتان: أول الأركان ومفتاح الدخول في الإسلام، وهما إقرار الله تعالى بالإلهية والعبودية، ولنبيه **ﷺ** بالرسالة والاتباع.

الإسلام استسلام لله بالشهادة له بالوحدانية لا شريك له، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وفي الحديث: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢).

وكل مسلم مأمور أن يقول: لا إله إلا الله؛ لأنها شهادة الحق للإله الحق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤] وقال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

(١) أخرجه البخاري، (٨)، ومسلم، (١٦).

(٢) أخرجه البخاري، (٢٥)، ومسلم، (٢٢).

[الحشر: ٢٢] وفي الحديث: «يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»^(١).

وكما أن الشهادة استسلام لله تعالى بالتوحيد من غير شريك فهي استسلام للنبي ﷺ بالاتباع من غير ترددٍ ولا تأخيرٍ.

فبوابة الإسلام الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، وللنبي ﷺ بالاتباع، بعد الإقرار له بالرسالة، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وعن هذه الشهادة تجب طاعته ﷺ فيها أمر، وتصديقه فيها أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يُعبدَ الله إلا بما شرع؛ فمن اعتقدَ الشهادتين، ونطق بهما - عالمًا بمعناها ملتزمًا بالعمل بمقتضاهما - فهو المسلم حقًا وصدقًا.

ومن نطق بهما - مكذبًا لهما - فهو المنافق - عيادًا بالله - والشهادتان تعنيان إفراد العبد ربّه باعتقاداتٍ في قلبه، ونطقه بأقوال تجري على لسانه، والتزامه بأفعال تحصل بجوارحه.

لذا لا يخلو الإسلام من اعتقاد القلب، كما لا يخلو الإيمان من أعمال الجوارح. ولا يغني شطر الشهادة الأول عن الشطر الثاني؛ فمن أقرَّ الله بالوحدانية، ولم يقرَّ لنبيٍّ بالرسالة لم يكن مسلمًا.

والشهادتان تُنشئُ محبةَ الله ورسوله ﷺ في القلب مع اعتقاد الصدق، والقبول والإذعان والرضا بما أمرت به ودلّت عليه، والإخلاص في الأعمال والأقوال كلها.

الركن الثاني: الصلاة:

الصلاة ثاني الأركان، وأعظم العبادات، وأفضل الموضوعات، وعمود

(١) أخرجه أحمد، (١٦٦٠٣)، وقال الهيثمي في المجمع، (٦ / ٢١-٢٢)، رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

الدين وركنه الركين، شَرَّفَهَا اللهُ فرفع مقام فرضها الى السموات العلى، وخَفَّفَهَا على العباد فضلاً منه وتكْرُماً، وأمر بإقامتها والعناية بفرضها ونفلها، وقرنها بالتوحيد في القرآن وسنة النبي العدنان.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وفي الحديث: «بُني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، وإقام الصلاة...»^(١).

ووصى بها الأنبياء أنفسهم، وأبناءهم، وأقوامهم، قال تعالى على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].
وكان آخر كلامه ووصاياه ﷺ: «الصلاة الصلاة...»^(٢).

وهي الفريضة الواجبة على كل مسلم ومسلمة خمس مرات في اليوم واللييلة، لا تسقط بحال من الأحوال، ما دام الإنسان مكلفاً، إلا على حائضٍ أو نُفَسَاءٍ، ولها أركان وواجبات وشروط وآداب وأحكام معروفة في كتب الفقه والأحكام، أثنى الله على أهلها وعوَّضهم الجنة جزاء المحافظة عليها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩-١١].

(١) أخرجه البخاري، (٨)، ومسلم، (١٦).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٦٤٨٣)، والنسائي في الكبرى، (٧٠٩٧-٧٠٩٨).

والصلاة قرة عين نبينا ﷺ، ومنتهى فرح المؤمنين في هذه الحياة، قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، ولأنها منتهى الرغبة والفرح قال ﷺ: «يا بلال! أرحنا بالصلاة»^(٢)، وكان ﷺ إذا حزبه أمرٌ أو أفزعه أو نزلت بالمسلمين نازلة صلى^(٣). وكما أن الصلاة عبادة الأنبياء، ومنتهى فرح الأولياء، فهي عبادة تُهذِّبُ الروحَ وتُذَلِّلُ الأبدان، وتنتهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهي عبادة تُنيرُ القلبَ وتُرضي الرَّبَّ وتقضي حوائج العبد، وهي شعار المؤمنين، والفرقان بين المسلمين والكافرين، وهي آخرُ ما يُفقدُ من الدين، وفي الحديث: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاةُ فمن تركها فقد كفر»^(٤).

الركن الثالث: الزكاة:

الزكاة وإيتاؤها ثالث الأركان بالإجماع، وهي أخت الصلاة في الأمر والاقتران في أي القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وهذا في أكثر من ثمانية مواضع، وهي حق معلوم يُعطى لأصناف معلومة من أموال معلومة، وبشروط معلومة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

وهي طُهْرَةٌ للنفوس من الشحِّ، وللأموال من أسباب ذهاب البركة، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وفي الحديث:

(١) أخرجه أحمد، (١٤٠٣٧)، والنسائي، (٣٩٣٩).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٣٠٨٨)، وأبو داود، (٤٩٨٥).

(٣) أخرجه أحمد، (٢٣٢٩٩)، وأبو داود، (١٣١٩).

(٤) أخرجه أحمد، (٢٢٩٣٧)، والترمذي، (٢٦٢١)، والنسائي، (٤٦٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

«حَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَدَاوُوا وَمرَضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ»^(١).

مَنْ جَحَدَ وَجُوبَهَا وَفَرَضِيَّتَهَا كَفَرَ، وَمَنْ مَنَعَهَا بَخْلًا بِهَا فَسَقَ، وَأَخَذَتْ مِنْهُ عَنُوءٌ، وَعُزْرٌ، وَعُوقِبَ بِأَخْذِ شَطْرِ مَالِهِ^(٢).

وهي من أعظم محاسن الإسلام، وهو يقيم التكافل والتراحم بين أبنائه، ويُفشي التعاون والتناصر في مجتمعه بين الأغنياء والفقراء، وبين المكتفين والمحتاجين، وهي تُدفع للاستثمار، وتُمنع من الكنز والادّخار، وتُحقق الأمن والسلم، وتُحسن من أوضاع الفقراء والمساكين، وتعين الدولة على تحقيق قدر الكفاية والكفاف لأهل الإسلام.

وأداؤها أمانةٌ كُلُّ غَنِيٍّ، والامتناع عنها خيانةٌ لحق الله تعالى ولحق الفقراء وأصحاب مصارف الزكاة، والوعيد الشديد يلحق كُلَّ مَنْ بَخَلَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وفي الحديث: «مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إِلَّا أُحْمِيَ عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَجْعَلُ صَفَائِحَ فَيَكُوى بِهَا جَنْبَاهُ وَجَبِينُهُ، حَتَّى يَحْكَمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يُرَى سَبِيلُهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»^(٣).

والزكاة تجب في أربعة أصنافٍ ماليةٍ، وتُصرف لشأنية مصارفٍ شرعيةٍ.

فأما الأموال الزكوية فهي:

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، (١٠١٩٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء، (١٠٤/٢).

(٢) انظر: المجموع، للنووي، (٣٣١/٥).

(٣) أخرجه مسلم، (٩٨٧).

- ١- الأثمان، وتشمل الذهب والفضة، والعملات النقدية، والأوراق المالية.
- ٢- السائمة من بهيمة الأنعام من البقر والإبل والغنم التي ترعى في البرية معظم السنة.
- ٣- الخارج من الأرض من الحبوب: كالقمح والشعير، والثمار: كالتمر، والمعادن: كالحديد والنحاس.

٤- عروض التجارة: وتشمل كل ما أُعدَّ للبيع والشراء بهدف الربح^(١).

وأما الأصناف الثمانية، فهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

الركن الرابع: الصيام:

الصيام ركن الإسلام الرابع بالإجماع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وهو الإمساك عن المفطرات من طلوع فجر أول يوم من رمضان إلى غروب الشمس من كل يوم فيه بنية التعبد لله، وقد فرضه الله على المسلمين في شعبان من السنة الثانية من الهجرة، وصام النبي ﷺ مع أمته تسعَ رمضانات.

وغاية الصيام تحصيلُ التقوى بفعلِ المأمورات واجتنابِ المنهيات وتحرير الإنسانِ من أسرِ الشهواتِ والعبودية للملذات، وفي الحديث «الصومُ جُنَّةٌ»^(٢)، أي: يقي الإنسانَ من أعدائه، والصيامُ يُضيقُ على الإنسانِ حظَّ الشيطانِ من أقواله وأفعاله ويُربِّي فيه خُلُقَ المجاهدة والمصابرة على طاعة ربه، بترك مألوفاته

(١) انظر: المجموع، للنووي، (٥/ ٣١٠-٥٢٩)، (٦/ ٣-٦٠)، والمغني، لابن قدامة، (٤/ ٥-٢٦٢).

(٢) أخرجه البخاري، (٥٩٢٧)، ومسلم، (١١٥١).

وعاداته، ويثبته الله تعالى به ما لا خطر بباله، وفي الحديث قال ﷺ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ - الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ - إِلَّا الصَّوْمَ فَهُوَ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَتْرَكُ الطَّعَامَ وَالشَّهْوَةَ، وَيَتْرَكُ الشَّرَابَ لَشَهْوَتِهِ؛ مِنْ أَجْلِي، هُوَ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»^(١).

فهو سرٌّ مكنون بين العبد وربِّه، وجزاؤه - على وجه الدقة - غيرُ معلومٍ لعظمته وكثرته؛ ولهذا جاء في الحديث: «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ»^(٢).

والله تعالى يَهَبُ الصَّائِمَ هَيَّاتٍ جَلِيلَةً فِي يَوْمِ صِيَامِهِ فَيُعَجِّلُ اسْتِجَابَةَ دَعْوَتِهِ، وَيَعْتَقُ بِالصِّيَامِ رَقَبَتَهُ، وَيَجْعَلُ الصِّيَامَ لَهُ شَافِعًا فِي قِيَامَتِهِ، وَمُؤَنِّسًا لَهُ فِي وَحْدَتِهِ، وَحَافِظًا لَهُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُ فِي الْقِيَامَةِ رَيَّانًا؛ إِذِ النَّاسُ ظَامِئُونَ، آمَنَّا إِذِ النَّاسُ فَزَعُونَ، فَإِذَا فَتَحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، اخْتَصَّ الصَّائِمُونَ بَبَابِ الرِّيَّانِ، وَفِيهِ قَالَ ﷺ: «إِنْ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرِّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»^(٣).

ومن رحمة الإسلام بأهله: أن شرع لهم الفطرَ في السفرِ الشاقِّ والمرضى، وحال الكِبَرِ، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وكما شرع للمسلمين الصيام في رمضان فرضاً فقد استحبَّ لهم الاستكثار من الصيام نفلاً، وحذَّرَ النبي ﷺ المسلمَ من صيامٍ يَحْرِقُهُ بِقَوْلِ الزُّورِ وفعلِ الزُّورِ، وفي

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده، (٥٩٤٧)، وأصله في الصحيحين: أخرجه البخاري، (٥٩٢٧)، ومسلم، (١١٥١).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٢١٥٠)، والنسائي، (٢٢٢١)، والحاكم، (٥٨٢/١)، وصححه.

(٣) أخرجه البخاري، (١٧٦٣)، ومسلم، (١٩٤٧).

الحديث: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(١)، وفي الحديث الآخر: «رَبِّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرَبِّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ»^(٢).

الركن الخامس: الحج:

الحج خامس الأركان بالإجماع، وهو قصد البيت الحرام بمكة لأعمال مخصوصة في زمن مخصوص^(٣).

وهو واجب في العمر مرة، لمن استطاع إليه سبيلاً، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال ﷺ: «الحجُّ مرة، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ»^(٤).

والحج عبادة قديمة، أمر الله تعالى بها أبا الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وفي الحديث: «كونوا على مشاعرِكم هذه؛ فَإِنَّكُمْ الْيَوْمَ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ»^(٥).

وفي الحج حِكَمٌ عالية، ومنافعٌ غالية، قال - سبحانه -: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ

(١) أخرجه البخاري، (١٩٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٨٥٦)، والنسائي في الكبرى (٣٢٢٦)، وابن ماجه (١٦٩٠).

(٣) حاشية ابن عابدين، (٤٥٤ / ٢).

(٤) أخرجه أحمد، (٢٣٠٤)، وأبو داود، (١٧٢١).

(٥) أخرجه أحمد، (١٧٢٣٣)، وأبو داود، (١٩١٩)، والترمذي، (٨٨٣)، وابن ماجه، (٣٠١١)، والحاكم،

(١ / ٦٣٣)، وقال الترمذي: حديث حسن. وصححه الحاكم.

لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ
 الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ [الحج: ٢٨].

والحج دورة تدريبية للمسلم على ممارسة السلام، فمناسكه تؤدَّى في البلد
 الحرام الذي يأمن فيه الإنسان والطير والشجر، قال ﷺ: «إن هذا البلد حرَّمهُ
 الله، لا يُعْصَدُ شوكُهُ، ولا يُنْقَرُ صيدهُ، ولا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا»^(١).

والحج من مظاهر المساواة والوحدة بين المسلمين، حيث يجتمعون من كل
 حذب وصوب في لباس واحد، على صعيد واحد، سواسيةً كأَسنان المشط لا
 تفاضل بينهم إلا بتقوى الله تعالى، وفي هذا المشهد خطب رسول الله ﷺ، فقال في
 حجة الوداع: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ
 لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرٍ عَلَىٰ أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَىٰ
 أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ»^(٢).

والحج عبادة بدنية مالية تربوية، تُهذِّب السلوك وتُرقي المشاعر وتُعَلِّمُ
 التقوى، قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا
 فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ
 خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]

ولذا مَنْ وُفِّقَ للحجِّ المبرورِ غُفِرَ ذَنْبُهُ، وَقُبِلَتْ تَوْبَتُهُ وَرَجَعَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمِ

(١) أخرجه البخاري، (١٥٨٧)، ومسلم، (١٣٥٣).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٣٤٨٩).

ولدت أمه، ففي الحديث قال ﷺ: «والحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنة»^(١).
وفي الحديث - أيضًا - قال ﷺ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ
وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(٢).

وهكذا يظهر أن الإسلامَ توحيدٌ وعبادةٌ، فالتوحيد والإيمان تُعبرُ عنهما
الشهادتان، والعبادة تُعبرُ عنها سائرُ الأركان، ولمَّا كان الغالب على أركان
الإسلام أنها عبادات عملية عرّف بعضهم الإسلامَ بأنه: أعمال الجوارح من
العبادات المفروضة الظاهرة، وأن الإيمان هو الاعتقادات القلبية الباطنة، فإلى
أركان الإيمان وأصوله الستة، كما جاءت في حديث جبريل عليه السلام.

ثانيًا: أركان الإيمان:

كما أن للإسلام أركانًا وواجباتٍ ومستحباتٍ فإن للإيمان أيضًا أركانًا
وواجباتٍ ومستحباتٍ.

وقد عدَّ النبي ﷺ أركانَ الإيمان الستة في حديث جبريل عليه السلام، وذكر في
حديثٍ غيره أن له شُعبًا كثيرةً، فهو كما جاء في الحديث: «الإيمانُ بضْعٌ وسبعون -
أو بضْعٌ وستون شعبةً - فأفضلُها: قولُ لا إلهَ إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن
الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»^(٣).

والإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي والسيئات،

(١) أخرجه مسلم، (١٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري، (١٥٢١)، ومسلم، (١٣٥٠).

(٣) أخرجه البخاري، (٩)، ومسلم، (٣٥).

وأصحابه متفاضلون فهم رُتَّبٌ ودرجات.

والإيمان منه باطن ومنه ظاهر؛ فالباطن: ما استقرَّ في القلب وهو أصل الإيمان، والظاهر: ما بدا على اللسان وجوارح الإنسان.

والإيمان الباطن على ضربين: قول وعمل.

والإيمان الظاهر على قسمين: قول وعمل:

فالأول: قول اللسان: وهو الإقرارُ بِشهادة: أن لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وما يُؤدِّي مؤدَّاها.

ومعناها: التزامُ العبوديةِ لله دونِ سواه، والتزامُ الطاعةِ لرسولِ الله، واتباع هداه، تصديقًا لخبره، وانقيادًا لشرعه.

فَمَنْ أَقَرَّ بِلِسَانِهِ وَكَذَّبَ بِجَنَانِهِ كَانَ مُسْلِمًا فِي الظَّاهِرِ مُنَافِقًا فِي الْبَاطِنِ. وَمِنْ قَوْلِ اللِّسَانِ: الدُّعَاءُ وَالذِّكْرُ، وَالْحَمْدُ وَالشُّكْرُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، وَتَدْرِيسُ الْعِلْمِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

والثاني: عَمَلُ الْجَوَارِحِ: بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ، وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالِدَعْوَةِ، وَالتَّحَاكُمِ وَالْقَضَاءِ وَالْحُسْبَةِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ^(١).

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى:

يتضمن: الإيمانَ بوجوده تعالى ووحدانيته وبربوبيته، وبأسماؤه الحسنَى وصفاته العلا، وبألوهيته - جَلَّ وعلا.

(١) درة البيان، لمحمد يسري، (ص ١٩-٢١).

ووجوده تعالى مركز في فطرة كل إنسان فهو أمر بدهي، ومسلّمة راسخة، كما قالت الرسل جميعاً ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وفي الحديث: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم»^(١).

كما أن بدهية العقول تقضي باستحالة أن يوجد الشيء نفسه، وأن يوجد بلا موجد! وتقر بأن عدم لا يخلق شيئاً!

فلكل مخلوق خالق، ولكل صنعة صانع، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

والنظر في الكون المشاهد بآياته الظاهرة وبراهينه الساطعة دال على وجود خالق للكون أوجده وأحكم صنعته، قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣].

فهذه آيات مبثوثة في الآفاق والأنفس لا يستطيع أحد لها رداً، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

والأهم من مبدأها إلى متنهاها مجمعة على التسليم بوجود خالق حكيم إلا من لا يؤبه له من الملاحدة المكذبين الجاحدين! وإن كانوا في حقيقة أمرهم مستيقنين معاندين.

قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

[الأنعام: ٣٣].

وأما الإيمان بربوبيته تعالى فيعني اعتقاد أنه الرب الذي ربي عباده بالنعمة

(١) أخرجه مسلم، رقم، (٢٨٦٥).

ودفع عنهم النقم، فهو المحمود على تدبيره لخلقه وتربيته لعباده، قال تعالى:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وكل مخلوق مربوب لله تعالى ومحتاج إليه ومفتقر إلى غناه ومضطر إلى رحمته،
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].
والخالق المالك المدبر هو السيد الحاكم الأمر الناهي، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولقد عبدت البشرية غير الله فانحرفت، وتوجهت لغير ربها ومعبودها فانتكست،
وخرجت عن مقتضى فطرتها فإلى أسفل سافلين تردت!

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ٥
﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤-٦].

لقد خلق الله الخلق ليعبدوه، وبالإلهية وحده يفردوه، فهو وحده المستحق للعبادة
بغير شريك، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
وفي الحديث قال ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا
يشركوا به شيئاً»^(١).

وهذا هو الإيمان بالوهمية الله وتوحيده بالعبادة، والعبادة الشرعية اسم جامع
لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ثم العبادة اسم جامع لكل ما يرضى إليه السامع^(٢)

(١) أخرجه البخاري، (٢٨٥٦)، مسلم، (٣٠).

(٢) معارج القبول، لحافظ حكيم، (١/٣٩٧).

وصرف بعضها لغير الله شرك وذاك أقبح المناهي^(١)

ومن أعظم العبادة وأنفع التوحيد: الإيمان بأسماء الله تعالى، وصفاته، على ما يليق بجلاله وكماله.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
ودعاء الله تعالى بها من أنفع الدعاء قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وكلما كان العبد بأسماء الله وصفاته أعلم كان له أعبد وأطوع! فعلم العبد بجلال الله وعظمته سبحانه وأسماء جبروته وقوته يثمر عبودية الخضوع والإنابة، والخشوع والاستقامة!

وعلم العبد بإحاطة علمه وسمعه وبصره تعالى وأسماء رقابته وشهوده وخبرته سبحانه يثمر عبودية حفظ اللسان والجوارح وخطرات القلب مع الحياء من الرب.

وعلم العبد بصفات إلهية الرب وأمره ونهيه، وأسماء حكمه وقضائه وكماله وجماله سبحانه يثمر عبودية المحبة الخالصة، والشوق إلى لقائه، والأنس به، والتودد إلى مرضاته بطاعته، واللهج بذكره، والفرار إليه، والتحاكم إلى شرعه.
والإيمان بألوهيته تعالى متضمن للإيمان بالربوبية وبالأسماء والصفات العلية، كما أن الإيمان بالربوبية والأسماء والصفات مقتضى للإيمان بألوهيته تعالى.

(١) معارج القبول، (١/٤٠٣).

والركن الثاني: الإيمان بالملائكة:

الملائكة عباد الله تعالى من النور خُلِقُوا، قال ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ»^(١).
وهم عالمٌ غيبيٌّ لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتناسلون، على
الطاعة مفطورون، وعن العبادة لا يفترون^(٢).

ويتضمن الإيمان بالملائكة ما يلي:

أولاً: الإيمان بوجودهم وبكثرة عددهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

ثانياً: الإيمان بمن ذكر اسمه في الكتاب أو السنة تفصيلاً؛ كجبريل، وإسرافيل،
وميكائيل، ومالك، وملوك الموت.

ثالثاً: الإيمان بما ذكره الله تعالى في كتابه أو سنة نبيه ﷺ من صفاتهم
الخلقية، وقدراتهم العظيمة، وأعمالهم الجليلة، كتبليغ الوحي، والتمثيل بصورة
صالحة للأنبياء - كما في حديث جبريل الذي فيه ذُكر أركان الإيمان - والتوكل
بشأن القطر، أو بحفظ الجنة أو البشر، ونحو ذلك.

رابعاً: الإيمان بأنهم مفطورون على العبادة، وأنهم عن المعصية معصومون.
قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى:
﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

والإيمان بهم ركن الإيمان، قال تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ

(١) أخرجه مسلم، (٢٩٩٦).

(٢) درة البيان، لمحمد يسري، (ص ٤٥).

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وللملائكة مع الخلق شئون كثيرة، وأعمال جليلة، ولهم بالمؤمنين خاصة عناية، فهم أولياء المؤمنين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [فصلت: ٣١]، فهم بالخير يأمرونهم، وعن الشر يحذرونهم، وهم للمؤمنين يستغفرون، وعليهم يُصلُّون، وعلى دعائهم يؤمنون، وبالجنة يبشرون.

فإذا دخل المؤمنون الجنة دخلت الملائكة عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٢٣) سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

والإيمان بالملائكة يورث علماً بعظمة الله تعالى وقدرته، ويوجب شكراً على عظيم رحمته بالخلق وعنايته، ويقتضي محبة الملائكة والحياء منهم، والكف عن أذاهم^(١).

الركن الثالث: الإيمان بالكتب:

الإيمان بالكتب الإلهية المنزلة على رسل رب البرية ثالث أركان الإيمان بالإجماع، قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فيجب على كل مسلم ومؤمن أن يؤمن بما أنزل الله على أنبيائه مكتوباً في الألواح، أو مسموعاً من ملك، أو من وراء حُجُبٍ، سواء جمعه اسم الصحيفة، أو الكتاب، وكل كلام الله بلا ارتياب.

(١) رسائل في العقيدة، لابن عثيمين، (ص ٢٠)، عالم الملائكة الأبرار، لعمر الأشقر، (ص ٦٨).

ولا يكمل إيمان مؤمنٍ حتى يؤمنَ بالقرآن، وما ذكر الله تعالى فيه من كتب سابقة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فالكفر بأحد كتب الله المذكورة في القرآن، أو السنة الصحيحة هو كفرٌ بها جميعاً، وجحدٌ واحدٍ منها كجحدِها جميعاً. والمسلم هو الإنسان الوحيد الذي يؤمن إجمالاً بكلِّ الكتب السابقة علاوةً على القرآن العظيم.

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]

وأول كتب الله ذكراً في كتاب الله: صحف إبراهيم عليه السلام، ثم التوراة، وهي صحف موسى عليه السلام، وآتى الله داود عليه السلام زبوراً، ثم أنزل الله الإنجيل على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، وآخر كتب الله نزولاً القرآن؛ ليكون هدايةً للعالمين ونوراً للخلق أجمعين.

والمؤمن يعتقد أن كتب الله السابقة إما مفقودة غير موجودة، كصحف إبراهيم وزبور داود عليه السلام، وإما محرقة غير محفوظة؛ كالتوراة والإنجيل، فقد زيد فيها ونقص منها، وحُرِّفَتْ وأُخْفِيتْ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ

هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَتْنِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤].

فلم يبقَ محفوظًا من الزيادة والنقصان إلا القرآن! قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولأجل هذا كان القرآن الحاكم المهيمن على ما سبق من الكتب الإلهية: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

فما آمن بالقرآن من كذب شيئًا من أخباره أو استحل شيئًا من محرماته، أو اعتقد تحريفه أو نقصانه^(١)!

والإيمان بالكتب السابقة يُثمر في قلب العبد إيمانًا وعلماً بعناية الله؛ حيث أنزل لكل قوم كتابًا، وأرسل لهم رسولًا، وهو يُثمر إيمانًا بحكمه الله حيث شرع لكل قوم شريعة تُناسبُ زمانهم ومكانهم: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وهذا الإيمان يَسْكُبُ في القلب يقينًا وهدايةً موصولةً بخالق الأكوان تعالى ويملاً

(١) درة البيان، لمحمد يسري، (ص ٤٧-٤٨).

القلب رضا وفرحاً بنعمة الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

الركن الرابع: الإيمان بالرسول:

رابع أركان الإيمان بالإجماع الإيمان بصفوة الخلق، ورسول الحق، الذين على أساس التصديق بنبوتهم ورسالتهم تأسس كل دين إلهي مُنَزَّل. فيجب الإيمان بالنبين والمرسلين إجمالاً، وبمن ورد ذكرهم في القرآن تفصيلاً، وإنما كان إرسال الرسل، وإنزال الكتب لقطع المعذرة، وإقامة الحجة وبيان المحجة. قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي الحديث: «وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ»^(١).

وقال تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالكفر بواحد منهم كفرٌ بالجميع.

والنبوة أعمُّ من الرسالة فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، والنبى من بُعث مجدداً للتوحيد وشعائره على رسالة مَنْ سبقه من المرسلين، والرسول من بُعث مجدداً للتوحيد وشعائره على شرع جديد أَمَرَهُ اللهُ بِإِبْلَاغِهِ لِمَنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ^(٢).

(١) أخرجه مسلم، (٢٧٦٠).

(٢) النبوات، لابن تيمية، (ص ٢٢٥-٢٢٧)، الرسل والرسالات، لعمر الأشقر، (١٤ / ١٥).

والأنبياء والرسل بشرٌ يجوز في حقهم الحياة والموت، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والأكل والشرب، والجماع والنوم، وإنجاب الذرية، وسائر الأقدار الكونية.

لكنهم أعلمُ الخلق وأعدلُهم طريقةً، وأكملُهم خلقاً وأصدقُهم لهجةً، حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم، ومن الكبائر والدنايا عصمهم، يستحيل عليهم الكذب والخيانة، والسهو والنسيان في أمر البلاغ والرسالة، قال تعالى: ﴿سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦) **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴿[الأعلى: ٦-٧].

والصغائر إن وقعت منهم فهي مغفورة، وهي - على ندرتها - في بحر فضائلهم مغمورة.

وأول الأنبياء نبوة آدم **عَلَيْهِ السَّلَام**، ونوح أول المرسلين، ومحمد خاتمُهم عليهم الصلاة والسلام أجمعين، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن المرسلين طائفة مخصصة، وبالعزم موصوفة، أسماؤهم خمسة ومذكورة في سورتي الأحزاب والشورى، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ وَنُوحًا وَرَبُّوهُمْ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

ومن رحمة الله بعباده أن أرسل الى كل أمة نذيراً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا

الرسالة | ٥١

خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾** [الإسراء: ١٥].

وأنبياء الله لا يُحصيهم عدًّا إلا الله، كما قال تعالى: **﴿وَرَسُولًا قَدْ قَضَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾** [النساء: ١٦٤]، وقد آيَّد الله كلَّ نبيٍّ بآيةٍ تخبر عن صدقه في دعوى النبوة أو الرسالة، وقد قال ﷺ: «ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يومَ القيامةِ»^(١).
وأفضلُ الرسل على الإطلاق: ختامُ الرسلِ باتفاق، وقد قال ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ»^(٢).

وما من نبيٍّ إلا بَشَّرَ بنيِّنا ﷺ وأخذ الله عليه الميثاقَ لِيُؤْمِنَنَّ به.
قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** [آل عمران: ٨١].

وإذا كان الله قد بعث كلَّ نبيٍّ إلى قومه فقد بعث نبينا إلى الخلق كافَّةً، وإلى الناس عامَّةً، قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾** [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٧]، وكما أن دلائل نبوتِهِ

(١) أخرجه البخاري، (٤٩٨١)، ومسلم، (١٥٢).

(٢) أخرجه مسلم، (٢٢٧٨).

وآيات رسالته زادت على الحدِّ، فإن فضائله وشمائله لا يأتي عليها العدُّ^(١).

وكما بعث ﷺ إلى الإنس فقد بعث إلى الجن أيضاً، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

فكل من أدرك زمانه ﷺ، وعلم بشرعته ورسالته فقد وجب عليه الإيمان، قال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به إلَّا كان من أصحاب النار»^(٢).

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر:

من أركان الإيمان: الإيمانُ بيوم القيامة ومقدماته وأشراطه، وما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذابه ونعيمه، وبالنفخ في الصور، وخروج الخلائق من القبور، وبالجزاء والحساب وما في موقف القيامة من الأهوال والأفراح، وتفاصيل المحشر، ونشر الصحف، ووضع الموازين، والصراط، والقنطرة والحوض والشفاعة وغيرها، وبالجنة ونعيمها، والذي أعلاه: النظرُ إلى وجهِ الله ﷻ، وبالنار وعذابها، والذي أشدُّه حجبُ أهلها عن ربِّهم ﷻ^(٣).

والبعثُ والنشورُ حقٌّ بالشرع والعقل وإجماع المسلمين، والإيمانُ باليوم الآخر مشتركٌ بين رسالات الرسل جميعاً، وهو ما اقتضته حكمته تعالى وعدله، وإلَّا لاستوى الطائعُ والعاصي، والمؤمنُ والكافرُ، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

(١) درة البيان، (ص ٥٤).

(٢) أخرجه مسلم، (١٥٣).

(٣) أعلام السنة المنشورة، لحافظ حكيم، (ص ٦٥).

خَلَقْنَكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والإيمانُ باليومِ الآخرِ يبعثُ على الطاعةِ حرصًا وصبرًا، ومن المعصية خوفًا وهرَبًا، ويدعو القلبَ إلى الاستقامة دومًا، وفي متاع الدنيا وزهرتها الفانية زهدًا، ولأَجْرِ الآخرة طلبًا، وبالإيمان بالآخرة تسليّة لكل مؤمنٍ عما فاتته من حظوظ الدنيا، وتعويضٌ له بما وجد في الآخرة^(١).

وقد تولّى القرآنُ إثباتَ معقوليّةِ البعث والنشور، وردّ على المكذّبين المعاندين في شأن البعث، المستبغِدين أن يقوم الناسُ لرَبِّ العالمين.

فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١].

وضرب الله لهؤلاء المنكرين الأمثال العقلية التي تُقَرِّبُ فكرةَ البعث إلى أذهانهم، فقال - جَلَّ ذِكْرُهُ -: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٨-٨٣]^(٢).

وقد أثنى الله على المؤمنين باليوم الآخر كثيرًا، فقال تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

(١) الإيمان باليوم الآخر، لمحمد الحمد، (ص ٩-١١).

(٢) تعرف على الإسلام، لمنقذ السقار، (ص ٦٤).

[النمل: ٣]، وذمَّ الكافرين به فقال تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفِرُونَ﴾ [فصلت: ٧].

وقد دلَّ القرآنُ على فرضية الإيمان باليوم الآخر وركنيَّته، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَاتِيكَةِ وَالْكَذِبِ وَالْتِيَعْنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والقيامة تشمل جميع البشر، قال تعالى: ﴿وَحْشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، والقيامة لا يعلم زمنها إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وفي الحديث قال ﷺ - وقد سُئل عنها -: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»^(١).

والقيامة الصغرى موتُ كلِّ إنسان عاش على ظهر هذه الحياة. والقبر أول منازل الآخرة، وأحاديثُ عذابه ونعيم متواترة، وبين يدي الساعة أشراط وعلامات، منها: ما قد وقع؛ كبعثته ﷺ، ووفاته، وانشقاق القمر حال حياته، قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، ومنها: ما لا يزال يتكرر وقوعه؛ كخروج الدجالين، وحصول الخسف والزلازل والبراكين، وتداعي الأمم على المسلمين.

وفي الحديث: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»^(٢)، ومنها: ما لم يقع، ويُتَظَرُّ؛ كانهيار الفرات عن جبل من ذهب، وعودة جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا، وفتح رومية، وكل تلك العلامات من علاماتها الصغرى.

(١) أخرجه البخاري، (٥٠)، ومسلم، (٨).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٣٣٩٧)، وأبو داود، (٤٢٩٧).

وأما الكبرى: فظهور الدجال، ثم نزول عيسى عليه السلام ثم خروج يأجوج ومأجوج، والدخان، ثم تخرج الشمس من مغربها، وعندها لا تقبل توبة، وتخرج الدابة، ثم النار التي تحشر الناس وهي آخر الأشرار الكبرى^(١).

ثم تقوم القيامة في أهوال عظيمة، فتدك الأرض دكاً وتزلزل زلزلاً عظيماً، وتنفطر السماء وتطوى طياً، وتفجر الأنهار والبحار، وتكور الشمس، ويحسف القمر، ثم ينفخ في الصور نخفتان أو ثلاث، فإذا الخلق قيام ينظرون، كما بدأهم الخالق يعودون. وبعد البعث والنشور يجمع الله الخلق ليوم الجمع العظيم، ثم يحيى ربنا والمملك صفاً صفاً، ثم يكون عرض العباد على الله تعالى لا تحفى منهم خافية، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ نَعْرِضُكَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

ولخصوص المؤمنين عرض لمعاصيهم لتقريرهم بها وسترها عليهم، وهو الحساب اليسير، وأما الحساب العسير فالمناقشة، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها - مرفوعاً -: «مَنْ نُوقِشَ الْحَسَابَ عُذِّبَ»^(٢)، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢].

ويؤتى يوم القيامة بكتاب الأعمال وفيه الحقيِر والجليل من الأقوال والأعمال، ويؤتى بالشهداء من الملائكة الحفظة والكرام الكتبة، والأسماع والأبصار، وسائر الجوارح والأبشار، وعندها يُقْتَصُّ للمظلوم من الظالم.

ومن ثم تَطَايُرُ الصحفُ، وتُنشَرُ الكتبُ؛ فَمِنْ آخِذٍ بِالْيَمِينِ - نَسَأَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ - وَمِنْ آخِذٍ بِالشَّمالِ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ - عَامِلُنَا اللهُ بِعَفْوِهِ - ثُمَّ تُنصَبُ الموازين ليوم القيامة،

(١) درة البيان، (ص ٥٦).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٥٣٦)، ومسلم، (٨٠).

وَيَنْصَرِفُ النَّاسُ إِلَى ظُلْمَةٍ دُونَ الصِّرَاطِ، وَهُوَ مُضْرُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، يَرُدُّهُ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوشٌ فِي جَهَنَّمَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَائِمٌ عَلَيْهِ يَقُولُ: «رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ»^(١)، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُ الْاِقْتِصَاصُ فِيمَا بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْمَظَالِمِ^(٢).

وَفِي الْقِيَامَةِ شَفَاعَةُ نَبِيِّنا ﷺ وَشَفَاعَةُ سَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَأَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»^(٣).

وَفِي الْيَوْمِ الْآخِرِ يَرَى الْمُؤْمِنُونَ رَبَّهُمْ بِأَبْصَارِهِمْ، وَيُحْجَبُ الْكَافِرُونَ: قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ أَعْدَائِهِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وَالْجَنَّةُ مُسْتَقَرُّ الْأَبْرَارِ، وَالنَّارُ مَأْوَى الْفَجَّارِ، وَلِكُلِّ أَبْوَابٍ وَخَزَنَةٍ، وَأُمْتَنَا نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ يَزِيدُونَ، وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ مِنْ غَيْرِ أُمْتَنَا يَدْخُلُونَ النَّارَ، وَأَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، مَنْ دَخَلَهَا مِنْ عَصَاةِ الْمُوَحِّدِينَ لَمْ يَخْلَدْ فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ وَالنِّفَاقِ فَفِي النَّارِ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

الركن السادس: الإيمان بالقضاء والقدر:

الرَّكْنُ الْآخِرُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ: الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ، حُلُوهُ وَمُرُّهُ، وَأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، (٨٠٦)، وَمُسْلِمٌ، (١٩٥).

(٢) دَرَةُ الْبَيَانِ، (ص ٥٨).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، (٩٩).

اللَّهُ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿[الأحزاب: ٣٨]، والإيمانُ بالقدرِ يتضمَّنُ أربعَ مراتبَ:
أولُّها: الإيمانُ بعلمِ الله المحيطِ بما كان وما يكون ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

ثانيها: الإيمانُ بأن الله كتب مقاديرَ الخلائقِ وفقًا للعلمِ السابقِ.
قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي
كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠]. وفي الحديث: «كتب الله مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يخلقَ
السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، قال: وعرشُهُ على الماءِ»^(١).

الثالثة: الإيمانُ بمشيئةِ الله النافذة؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، يهدي من
يشاء فضلًا، ويضِلُّ من يشاء عدلًا، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

الرابعة: الإيمانُ بأن الله تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وهو خالقُ أفعالِ العبادِ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وما صدر عن الإنسان من أعمال أو أقوال هو فيها مختار ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ
وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ومن اهتدى زاده الله هُدى، قال سبحانه:
﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

ومن ضلَّ - لمرض قلبه - زاده الله مَرَضًا قال سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، وما أصاب

(١) أخرجه مسلم، (٢٦٥٣).

العبد لم يكن ليخطئهُ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه رُفعتِ الأُفلاُمُ وجَفَّتِ الصحفُ.
«وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله
وما شاء فعَل، فإن لو تفتَحَ عملَ الشيطانِ»^(١).

مَنْ آمَنَ بقضاءِ الله وقَدَرِهِ توَكَّلَ على رَبِّهِ، وأَحْسَنَ الظَّنَّ بالله، ورجا فَضْلَ
الله، وعَمِلَ يطلبُ موعودَ الله، وكان على البلاءِ صبورًا، لا يعرف اليأسُ أو
القنوطُ إلى قلبه سبيلًا، وكان شجاعًا مقدامًا؛ لأنه يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن
ليخطئهُ، وأنَّ أَمَرَ الله تعالى كان قدرًا مقدورًا^(٢).

فيتعاطى الأسبابَ ولا يتوَكَّلُ عليها ولا يتركُها ولا يُهدِّرها^(٣).
والشَّرُّ لا يُنسَبُ إلى الله بحالٍ؛ لتمامِ رحمتهِ وحكمتهِ؛ فإنَّ نُسَبَ إلى بعضِ
مقضيَّاته ومقدَّراتِهِ من وجه فهو منه عدلٌ وخيرٌ.
قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]^(٤).

وبهذا يكملُ الحديثُ عن أركانِ الإيمانِ بعد أركانِ الإسلامِ، وهي أركانُ تملأُ
القلبَ بالأمنِ والأمانِ بعد الإيمانِ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وهي أركانٌ تدعو لبذلِ الخيرِ واعتقادهِ
وتسعى لإشاعتهِ في الناسِ، لخيرِ الناسِ، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾
[آل عمران: ١١٠]، وهي أركانٌ تُسعدُ الإنسانَ في دنياه وأخراه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ

(١) أخرجه مسلم، (٢٦٦٤).

(٢) شفاء العليل، لابن القيم، (٥٠/٥٢)، الإيمان بالقضاء والقدر، لعمر الأشقر، (ص ٨٣-٨٤).

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم، (٢/١٦٦-١٩٩).

(٤) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، (٣/٦٥-٧٨)، الإيمان بالقضاء والقدر، (ص ١٣٠-١٣٢).

ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

ثالثاً: ركن الإحسان:

الإحسان ثالث مراتب الدين وأعلىها، فهو إحسان الإسلام والإيمان معاً، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنٰى﴾ [يونس: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

والإحسان بمثابة المكمل للإسلام والإيمان، فإذا عدم الإحسان في الأعمال الظاهرة تطرق إليها الرياء، وإذا عدم في الأعمال الباطنة تطرق إليها النفاق! ولهذا اقترن بالإسلام تارة وبالإيمان أخرى، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا﴾ [المائدة: ٩٣].

وحقيقة الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١)، وفيه رتبتان عليتان:

الأولى: رتبة المشاهدة، وهي أن يغلب على القلب تعظيم الرب كأنه يشاهده بعيني رأسه في كل أحواله!

الثانية: رتبة المراقبة، وهي أن يغلب على القلب استحضار رقابة الرب ونظره إلى عبده في كل أحواله!

وقد قيل في جمع الرتبتين: «من عمل لله على المشاهدة فهو عارف، ومن عمل

(١) أخرجه مسلم، (٨).

على مشاهدة الله إياه فهو مخلص! (١).

واستحضار قرب الرب بعلمه وإجابته لدعاء عبده عقيدة كل مؤمن، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

قال ابن القيم: وقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلوب وفروعها كلها في كلمة، وهو قوله: «الإحسان، أن تعبد الله» فتأمل كل مقام من مقامات الدين وكل عمل من أعمال القلوب تجد هذا أصله ومنبعه (٢).

قال أحد المحسنين: ما يجد المطيعون لله لذة في الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة سيدهم، ولا أحسب لهم في الآخرة من عظيم الثواب أكبر وألذ في قلوبهم من النظر إليه (٣). وهذه رتبة عظيمة لا يبلغها إلا من أقبل على الله بكلّيته، فلم يرج إلا ربه، ولم يخف إلا ذنبه، أطاع الله يطلب رضاه، واعتمد بقلبه على ربه ومولاه!

(١) صفة الصفوة، لابن الجوزي، (٤/١٢٤).

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم، (٤/٢٠٣).

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (١/١٣٣).



الفصل الثالث ..

كتاب الإسلام



كتاب الإسلام

للإسلام كتابٌ منزل من رب الأرباب **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، أنزله الله موعظةً للخلق، وهدايةً إلى طريق الحق، قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ومن شأنه أن يبصّر من عماية، ويهدي من غواية، قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ومن أعظم شئون هذا الكتاب أنه منزلٌ للحكم بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وأحكامه مفصلة لتحقيق بها الهداية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

ولأجل ما تقدّم فقد أوجب الله الإيمان بكتابه العظيم وقرآنه الكريم، كما أمر بالإيمان بكل كتاب أنزله على كل نبي أرسله، قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ

الله من كتب ﴿[الشورى: ١٥].

وقال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن رَّبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فإن لم يؤمن المسلم بنبوة وكتب أنبياء الله السابقين فليس بمسلم!

ويجب على المسلم الاعتقاد بأن هذه الكتب يصدق بعضها بعضاً، وأن القرآن يهيم عليها جميعاً، قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فمن أراد الهدى والنور فعليه بالإيمان بهذا الكتاب، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وحقيقة القرآن الكريم أنه: كلام الله المعجز، المنزل على نبينا محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته^(١).

فليس للرسول من القرآن إلا البلاغ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

(١) الإتيان، للسيوطي، (١/١٦٨).

أولاً: أسماء كتاب الإسلام وأوصافه:

للقرآن الكريم نحو من خمسين اسماً؛ تشریفاً لقدره، وبياناً لفضله، فهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧]، وهو الوحي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وهو الفرقان الذي أنزله الله على نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وهو الكتاب المبين، قال تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١ وَأَلَكِتَابٍ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١-٢].

وصفه الله تعالى بأنه كلامه، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وسماه قولاً فصلاً، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤]، وهو النبأ العظيم، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢]، وهو الموعظة والشفاء، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

والقرآن الكريم معجزة النبي الخالدة الثابتة على مر الزمان لا يعتريه نسخ، ولا تناله يد تحريف أو تبديل، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

عدد سوره مائة وأربع عشرة سورة بالإجماع، وما نزل منه قبل هجرة النبي ﷺ فهو مكّي، وما نزل بعدها فهو مدني، وقد ضمنه الله تعالى تبياناً ما يحتاج إليه البشر في معاشهم ومعادهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، أي: تبياناً لأصول الدين وفروعه، وأحكام الدارين، وكل ما

يحتاج إليه العباد فهو مُبَيَّنٌ فيه أتمّ تبيين، بألفاظ واضحة ومعانٍ جليّة^(١).
 أنزله الله بألفاظ عربية مصداق قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
 لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].
 وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾
 [إبراهيم: ٤].

وقد قيَّضَ الله لهذا الكتاب أمةً حافظة متقنة، «فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب
 الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم، بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظاً
 في قلوب الأمة!»^(٢)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾
 [القمر: ١٧]، ومع هذا فقد جمع الله لكتاب الإسلام حفظ الصدور مع حفظ السطور
 بحمد الله تعالى.

ثانياً: وجوه إعجاز كتاب الإسلام:

لقد تحدث النبي ﷺ عن كتابه، فقال: «ما من الأنبياء نبيٍّ إلا أُعطي ما مثله
 آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون
 أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(٣).

فهو أصدقُ آيات الرسل برهاناً وأعلاها سلطاناً، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾
 أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً

(١) تفسير السعدي، (١/٤٤٦).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١٧/٤٣٦).

(٣) أخرجه البخاري، (٤٩٨١)، ومسلم، (٧٢٧٤).

وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]

قال الزركشي **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «فأخبر سبحانه: أن الكتاب آية من آيات الله، وأنه كافٍ في الدلالة، قائم مقام معجزات غيره وآياتٍ سواه من الأنبياء»^(١). فكان القرآن آيةً معجزة خارقة للعادة في تأثيرها وسلطانها، سالمة عن معارضة، أو مشابهة! قال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الاسراء: ٨٨] وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فليأتوا بِمِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

ومع بلوغ العرب الغاية في الفصاحة فقد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم العربي في لفظه المعجز في نظمه من يوم نزل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد حارب القرآن عقائد المشركين كافةً، وهذا يمثل تحديًا كبيرًا لهم، ومع هذا لم يأتوا بمثل أصغر سورة من سوره! وتحداهم أن يأتوا بخللٍ في تركيبه أو في ألفاظه! قال ابن عطية: «وكتاب الله لو نزعَتْ منه لفظةٌ، ثم أُديرَ لسانُ العرب على لفظةٍ أحسنَ منها لم يوجد»^(٢).

فقد بلغ الإعجاز في خصائصه وبلاغته وأسلوبه ونظمه وتأليفه، وتناسق سوره وآياته مع موضوعاته وأغراضه، حتى شهد بذلك أعداء القرآن، وتكفي هنا شهادة الوليد بن المغيرة الذي مات على عداوته للإسلام، حيث قال: «والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدقٌ أسفله، وإنه

(١) البرهان، (٢/ ٩١).

(٢) مقدمة المحرر الوجيز، لابن عطية، (ص ٢٧٨).

ليعلموا ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته»^(١).

ويقول الأمريكي فيليب حتي: «إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يُقلد، وهذا في أساسه هو إعجاز القرآن، فمن بين جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى»^(٢)، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

ويمتدُّ إعجاز القرآن إلى تشريعاته وأحكامه: «فما اشتمل عليه القرآن من أحكام؛ سواء ما كان منها يتعلق بالأسرة، أو ما يتعلق بالمجتمع، وما يتعلق بالعلاقة الدولية فريد في بابه، لم يسبقه شرع سابق، ولم يلحق بما وصل إليه شرع لاحق، وإذا ما كان ذلك كله قد جاء على لسان أميٍّ لا يقرأ ولا يكتب، لم يتعلم قط لا بالقلم والقرطاس، ولا بالتلقين والتوقيف، ولا بالتجربة والأسفار، إن ذلك هو الإعجاز الذي تتيه العقول في تعرُّف سببه، إلا أن يكون ذلك من عند الله العليِّ الحكيم»^(٣).

وأما الإعجاز العلميُّ في القرآن فأمرٌ شهد به علماء الغرب ومفكروه، فهذا موريس بوكاي الفرنسي يقول: «لقد قمتُ أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر سبق، وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنتُ أعرف - قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات - أن

(١) أخرجه الحاكم، (٣٨٧٢) وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان، (١٣٣).

(٢) الإسلام منهج حياة، فيليب حتي، (ص ٥٤)، نشر دار العلم للملايين.

(٣) شريعة القرآن من دلائل إعجازه، محمد أبو زهرة، (ص ١٠).

القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة! وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعتُ أن أحقق قائمة أدركتُ بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، وبنفس الموضوعية قمتُ بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول- أي: سفر التكوين- فقد وجدتُ مقولاتٍ لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا»^(١).

ولقد تحدّث القرآن عن الغيب الذي مضى خبره، فكان حديثُهُ حديثَ الصدق، وبيانهُ بيانَ الحقِّ، فهو يُفردُ مريمَ البتولَ **عَلَيْهَا السَّلَامُ** بقصة تأخذ سورة في كتاب الله، تحدّث فيها عن أم مريم، ومريم، وابنها عيسى **عَلَيْهِمَا السَّلَامُ**، وذكر تفاصيل دقيقة لحياتهم جميعًا، بما يتضمن تصحيح ما وقع فيه النصارى من انحرافات عقدية، وأخطاء بشرية! ثم قال تعالى بعد إيراد تلك القصة ذاتِ العبرِ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقصَّ الله خبرَ الأنبياءِ السابقين في سورة باسم نبي الله (هود) **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقَبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ [هود: ٤٩].

كما أخبر القرآن بالغيب الحاضر في عهد النبي **ﷺ**، فهو يفضح أقوال المنافقين، ويذكر ما يدور بينهم بمنأى عن النبي **ﷺ** والصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، كما في

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم، (ص ١٣).

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

وقد أخبر القرآن بأمور الغيب في المستقبل فكانت كما أخبر! حيث جاء انتصار الروم على الفرس في مدة لا تتجاوز التسع سنين، وفي ذلك بشارة للمسلمين، قال تعالى: ﴿الْم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۝٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٥ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥].

فهُزِمَ الْفَرُّسُ أَمَامَ الرُّومِ في عدة حروب، كانت بين عامي: (٦٢٣-٦٢٧م)، ومن الغيب المستقبلي - كذلك -: الإخبار بحفظ القرآن على مر الزمان، وقد كان كما جاء في خبر القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وها نحن في القرن الخامس عشر الهجري نقرأ القرآن غصًا طريًا كما أنزل، من غير زيادة، ولا نقصان، مع حفظ قراءاته المتواترة بحفظ ربنا الرحمن.

ثالثًا: تأثير كتاب الإسلام على سامعيه:

أما تأثير القرآن وسلطانه على النفس فأمره مشهود، قال فيه الرَّبُّ الذي تكلم به: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

مرّ نصراني بقارئ فوقف يسمع ويكي، فقيل له: ممّ بكيت، فقال: للشجا والنظم^(١).
فهذا أثرٌ وتأثيرٌ تَقْصُرُ عباراتُ البشر عن وصفه، وتنعقد الألسنة عن بيان
أثره، إنه كلام الربّ الجليل في صفاته، العظيم في آياته، لأجله تنساب دموع
الخشية، وتسري قشعريرة الرهبة، ولا يملك أحد لهذا تفسيرًا إلا أن يقال: تلك
سطوة القرآن وسلطانه وإعجازه التأثيري المعجز!

«فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص
له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص
منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت
مرتاعة قد علاها الوجل والقلق، وتغشاها من الخوف والفرق، ما تقشعر منه الجلود،
وتزعج له القلوب!

يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة؛ فكم من عدو للرسول
ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات القرآن،
فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم، وأن يركنوا إلى
مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالة، وكفرهم إيمانًا^(٢).

لقد سمعت الجنُّ القرآن، فقالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١] وسمعه
جبير بن مطعم - وكان يومها مشركًا - فقال: «فكأنما صُدِعَ قلبي»^(٣)، وسمعه
عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «فوقع الإسلام في قلبي»^(٤)، وقرأه الألماني غوته، فقال: «كلّما

(١) الشفاء، للقاضي عياض، (ص ٢٧٥).

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للزرقاني، والخطابي، والجرجاني، والقول للخطابي، (ص ٧١).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، (١١٦/٢)، وأصله في البخاري، (٤٨٥٤).

(٤) أخرجه أحمد، (١٠٧).

قرأت القرآن شعرتُ أن روحي تهتزُّ داخلَ جسمي».

وقرأ (هيرالال) ابن الزعيم الهندي غاندي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فأسلم وتسمّى بعبد الله غاندي^(١)، وسمع القسّ الأثيوبي (ملقاه) صوتاً في منامه يقرأ سورة الإخلاص ويهتف بالشهادتين ثلاث ليالٍ، فأسلم وتسمّى محمد سعيد^(٢).

ولما قرأ د. (أرتور بيلاستوس) - وكان المسئول الأول عن نشاطات التنصير في آسيا - قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، أسلم وغير اسمه إلى خالد بيلاستوس.

ولا تفسير لما سبق إلا أن يقال: إنه كتاب الله تعالى بأسراره التي تخاطب القلوب، ومفاتيحه التي تشرح الصدور، وأنواره التي تضيء النفوس، وسلطانه الذي لا يُقاوم؛ يملك أقطار القلوب، ويقبضها من الخشية والوجل، ويبسطها باللين والأمل، ويزكيها بالإخبات والإشفاق، ويطمئنئها بالحبِّ والرَّجاء والاشتياق!



(١) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبد الصمد، (١/ ٧٢٥).

(٢) مجلة الفيصل، عدد إبريل، (١٩٩٢).



الفصل الرابع ..

نبي الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



نبي الإسلام ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إن نبي الإسلام هو خاتم النبيين، والمرسل إلى الثقلين الإنس والجن أجمعين، فهو الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير، وكل نبي بشر قومه بنينا محمد ﷺ، وهذه نماذج مختارة من دلائل نبوته على ألسنة إخوته من النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، مصداق قول الحق تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، أي: في كتبهم.

أولاً: نبي الإسلام محمد ﷺ هو بشاره موسى عليه السلام:

نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام هو بشاره موسى عليه السلام الذي بشر به في التوراة، حين قال الله لموسى عليه السلام: «أَقِمْ لَهُمْ - أي: لبني إسرائيل - نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به»^(١). ولما طلب إبراهيم عليه السلام من ربه ذريةً أمةً مسلمة جاء في التوراة: «وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً جداً»^(٢). استدلَّ صاحب كتاب الإفحام - وكان يهودياً فأسلم - على ورود البشارة

(١) سفر التثنية، الإصحاح ١٨، فقرة، (١٨-١٩).

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ١٧، فقرة، (١٨).

بمحمد ﷺ في التوراة تعليقاً على النص السابق بقوله: «فإن لفظة جدًّا جدًّا في لغة تنزيل التوراة هي حروف (محمد) وهي اثنان وتسعون، وفي بعض نسخ التوراة المكتوبة بالعربية كتب الكاهن السامري (أي: محمد ٩٢)، ثم ذيلها بعبارة قال فيها: انظر كيف أن في كل كلمة من كلامه تعالى أسراراً مدموجة وآيات عظيمة»^(١).

وأخيراً؛ فقد جاء في التوراة: «جاء الربُّ من سيناء، وأشرق لهم من سعين وتلاً من جبل فاران»^(٢).

فمجيئه من سيناء: إعطاؤه التوراة لموسى ﷺ، وإشراقه من سعين: إعطاؤه الإنجيل للمسيح ﷺ، وتلاؤه من جبل فاران: إعطاؤه القرآن لمحمد ﷺ.

وقد ورد في التوراة: أن إسماعيل سكن في بركة فاران، ومحمد ﷺ من نسل إسماعيل، وولد في بركة فاران، وهي مكة المكرمة.

وهي إشارات ثلاث لمهد النبوات والرسالات الثلاث، وإليها أشار القرآن بقوله: ﴿وَالزَّيْتُونِ وَالْزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، فالتين والزيتون منبتهما الأرض المقدسة مكان نزول الإنجيل، وطور سينين: الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَام، وناداه من شاطئ الوادي الأيمن، وهو مكان نزول التوراة، والبلد الأمين: مكة المكرمة، موضع تنزل القرآن العظيم.

(١) ذكر أحمد زكي باشا - في جريدة البلاغ القاهرية، أغسطس - ١٩٣٣ م، أنه اطلع على هذه النسخة من التوراة، والتي نسخت من أقدم نسخة من التوراة عند طائفة اليهود السامريين، وهذه العبارة مكتوبة في آخر الباب السابع عشر، (ص ٣٩) من الكتاب، انظر مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، عدد (٢٥٦) لسنة (١٤٠٦ هـ).

(٢) سفر التكوين الإصحاح، (٢).

ثانيًا: نبي الإسلام محمد ﷺ هو ترنيمه داود عَلَيْهِ السَّلَام:

وجاء في المزامير: «الحجر الذي رفضه - وفي بعض الترجمات - أخره البناءون قد صار رأسَ الزاوية، من قِبَلِ الرَّبِّ كان هذا، وهو عجيب في أعيننا»^(١).
وسبب العجب احتقار اليهود للعرب أولاد إسماعيل، فإذا كان أحدهم هو رأس الزاوية فقد صار أمرًا عجبًا!!

وهذا المعنى في حديث النبي ﷺ حين قال: «إِنْ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُيْنَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟! فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(٢).

وفي سفر حقوق الفقرة الثالثة: «الله جاء من تيمان، والقُدوس من جبال فاران...»
وقد نقل ابن تيمية وابن القيم النصَّ عن بعض ترجمات أهل زمانها كما يلي: «جاء الله من التَّيْمَن، وظهر القُدوس على جبل فاران، وامتَلأتِ الأرض من تحميد أحمد»^(٣).

وقال ابن تيمية: «وقد رأيتُ من نسخ الزبور ما فيه تصريحُ بنبوة محمد ﷺ باسمه، ورأيتُ نسخةً أخرى، فلم أرَ ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكونَ في بعضِ النسخِ من صفاتِ النبي ﷺ ما ليس في أخرى»^(٤).

(١) المزامير، زمور، (١١٨)، فقرة، (٢٢-٢٣).

(٢) أخرجه البخاري، (٣٤٥٩)، مسلم، (٥٩١٣).

(٣) الجواب الصحيح، لابن تيمية، (٣/٣١٣)، هداية الحيارى، لابن القيم، (ص ٥٤٤).

(٤) الجواب الصحيح، (٢/٢٧).

ثالثاً: نبي الإسلام محمد ﷺ هو بشارة عيسى عليه السلام:

جاء في إنجيل يوحنا عن عيسى عليه السلام أنه قال: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكُم فارقليط آخر؛ ليثبت معكم إلى الأبد»^(١).
والفارقليط مترجمة من اليونانية، واليونانية مترجمة من الآرامية وهي عبرية،
والفارقليط باليونانية هي (بيركليتوس) أو (باراكلي طوس) ومعناها الحرفي:
(أحمد) وهو من أسماء النبي ﷺ، وقد سأل الأستاذ عبد الوهاب النجار المستشرق
الإيطالي (كارلونيون) عن هذه اللفظة في اليونانية، فقال: (إن معناها: الذي له الحمد
الكثير)، فقال: هل يوافق أفعل التفضيل: (أحمد)، فقال: نعم، وهذا مصداق قوله
تعالى على لسان عيسى عليه السلام^(٢): ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ
أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وجاء في إنجيل متى: «وإن أردتم أن تقبلوا، فهذا هو إيليا المزمع أن
يأتي؛ من له أذانان للسمع فليسمع»^(٣).

وقد أخبرنا النبي ﷺ أنه ليس بينه وبين عيسى عليه السلام نبي فيكون إيليا
الذي بشر به عيسى عليه السلام هو محمد ﷺ، وإيليا بحساب الجُمَّل - الذي أُغرمت
به اليهود - يساوي محمداً!

وفي إصحاح يوحنا: «ومتى جاء المعزي الذي أرسله أنا إليكم من الأب
روح الحق، الذي من عند الأب ينبثق، فهو يشهد لي» وقد سقطت جملة من هذا
الإصحاح قبل الجملة السابقة، وقد وردت صراحةً في الطبقات القديمة للإنجيل

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح، (١٤).

(٢) قصص الأنبياء، لعبد الوهاب النجار، (ص ١٩٧).

(٣) إنجيل متى، الإصحاح، (١١)، عدد، (١٤).

ونصّها: «فلو قد جاء المنحمن الذي يرسله الله إليكم».

ومعنى (المنحمن) الحرفي باللغة السريانية: (محمد).^(١)

رابعاً: نبي الإسلام محمد ﷺ في كتب أخرى:

والبشارة بنينا ﷺ تعدّت الكتب المتفق على نزول أصلها من عند الله تعالى

إلى ما اختلف في ثبوته من كتب!

ففي كتب البراهمة الساملفيدا: «إن أحمد تلقى الشريعة من ربه، وهي

مملوءة بالحكمة»^(٢)

وفي كتب الزرادشتية وردت نبوءة عن نبي يكون رحمة للعالمين، ويدعو إلى إله

واحد، لم يكن له كفواً أحد، وليس له أوّل ولا آخر، ويتصدى له عدو اسمه: أبو لهب.

وفي نص آخر: «إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون، ينهض

رجل في برد العرب، يهزم أتباعه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة

النار في هياكلهم، يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهّرت من الأصنام،

ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ -

وهي الأماكن المقدسة للزرادشتين ومن جاورهم - وإن نبيهم ليكون فصيحاً يتحدث

بالمعجزات»^(٣).

وقد أورد مولانا عبد الحق مزيارتي نصوصاً كثيرةً بخمس لغات هي:

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح، (١٥) عدد، (٢٦)، والرسل والرسالات، لعمر الأشقر، (ص ١٦٥-١٦٦).

(٢) الجزء الثاني فقرة، (٦، ٨) نقلاً عن: الإسلام، لسعيد حوى، (٢/ ٢٣٠).

(٣) نقلاً عن الإسلام، لسعيد حوى، (٢/ ٢٣٠).

الفارسية والهندية والعبرية والعربية، وبعض اللغات الأوروبية في كتاب: «محمد في الأسفار الدينية العالمية».

وكل ذلك قد جاء خبره في الوحي الصادق بياناً لصفته في التوراة والإنجيل، وإظهاراً لفضله في وضع الآصار والأغلال عن بني إسرائيل! قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَاَلَّذِينَ أَمَّنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولعظيم موقع تلك البشارات الصادقة في الكتب السابقة، وقوة دلالتها على صدق رسالته ﷺ ذكرها القرآن الكريم في دلائل النبوة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَكَلِّمَهُمُ الْمَلَائِكَةُ رُسُلًا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا هَادِينَ ۖ فَلَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمُ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ لَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْغَافِلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

إن الجميع يعلم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي العربي هو نبي آخر الزمان، بدلالة القرآن الناطق بالغيب السابق واللاحق، وبدلالة ما أجرى الله تعالى على يديه ﷺ من المعجزات الحسية؛ كانشقاق القمر، والإسراء إلى بيت المقدس، والمعراج إلى السماء السابعة، وتكثير الطعام ببركته، وإجابة دعائه، وتسليم الشجر والحجر عليه، وصحة ما أثبتته العلم الحديث من نبوءاته،

واستقامة حياته قبل بعثته وبعدها، ورقي تعامله مع أعدائه، وعفوه عنهم بعد تمكنه منهم، وكمال أخلاقه مع أصحابه وأهله وخدمه، بما يؤكد للعالم بأسرها أن محمداً ﷺ حق، وأن رسالته صدق!

وكل ما تقدّم من بشاراتٍ ودلائلٍ نيراتٍ تشهد بقدر ذي القدر العلي، محمد النبي صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه، وسلّم تسليماً كثيراً!

خامساً: شهادات منصفة:

وبعد أن شهدت شواهدُ عدلٍ من كتب المتقدمين فهذه طائفة من كلمات المنصفين من الغربيين الدارسين لشخصيته:

فهذا (توماس كارليل) يقول: «فلسنا نعدُّ محمداً هذا قطُّ رجلاً كاذباً متصنعاً، يتذرّع بالحيل والوسائل إلى بغيته، ويطمح إلى درجة ملك أو سلطان، أو إلى غير ذلك من الحقائق!

وما الرسالة التي أداها إلا حقٌّ صراحٌ، وما كلمته إلا قولٌ صادقٌ! كلا ما محمد بالكاذب، ولا الملفق، وهذه حقيقة تدفع كل باطلٍ، وتدحض حجة القوم الكافرين، ولم يقتبس محمد من نور أيِّ إنسانٍ آخر، ولم يغترف من مناهل غيره، ولم يكن إلا كجميع أشباهه من الأنبياء والعظماء، أولئك الذين أشبههم بالمصاييح الهادية في ظلمات الدُّهور...»^(١).

كانت تلك شهادة المفكر الحاصل على جائزة نوبل للسلام، وهذه شهادة أخرى تتبعها لأحد كبار السياسيين، وهو: (الكونت هنري دي كاسترو)، وهو

(١) الإسلام في نظر أعلام الغرب، للأستاذ حسين عبد الله باسلامة، (ص ٨٩-٩١).

أحد وزراء فرنسا الذي يقول: «ولكن الأمر الذي تهم معرفته هو أن القرآن آخِرُ كتابٍ سماويٍّ ينزل للناس، وصاحبه خاتم الرسل، فلا كتابَ بعدَ القرآن، ولا نبيَّ بعد محمدٍ ﷺ، ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً».

ثم صرَّح بحقيقة تاريخية واقعية: «إن ديانة القرآن تمكَّنت من قلوب جميع الأمم: اليهودية، والمسيحية، والوثنية في أفريقيا الشمالية، وفي قسم عظيم من آسيا، حتى إنه وجد في بلاد الأندلس من المسيحيين المتنورين مَنْ تركوا دينهم حبًّا في الإسلام، كلُّ هذا بغير إكراه»^(١).

وللأدباء والشعراء المنصفين نقيبٌ يمثلهم، وهو: (لا مارتين) الذي قال: «فمن يجرؤ أن يشبه بمحمدٍ رجلاً عظيماً قاد جيوشاً، ووضع شرائع، وأسس ممالك، وألَّفَ بين ثلثِ العالم المعمور، وزاد على ذلك أن بدَّلَ أفكاراً، ومعتقداتٍ وأرواحاً، وأتى بكتاب أصبح كلُّ حرف من حروفه شريعة قومية روحية سرَّتْ إلى شعوب من جميع اللغات والعناصر، وطبع هذه الجنسية الإسلامية بطابع ثابت، وقصَّى على الأرباب المصنوعة، ودعا إلى الاعتقاد بالله الواحد الأحد، ومن يكون أكثر عظمة إذا قيسَت العظمةُ البشريةُ بكلِّ مظاهرها بعظمة محمدٍ الحكيم الخطيب الداعية المشرِّع المحارب المبدع في أفكاره، ومؤسسِ التعاليم القائمة على العقل، وعلى عبادةٍ لا صورةَ فيها، ومنشئِ عشرين مملكة أرضية، ومملكة روحية واحدة»^(٢).

وبسبب من شهود تلك الحقائق الناطقة دخل عدد من هؤلاء العظماء في دين الله، وآمنوا برسول الله ﷺ، وذلك عطاء يتجدد وحجة تتردد عبر الزمان والمكان!

(١) الإسلام في نظر أعلام الغرب، (ص ٢٥-٢٧).

(٢) نقلاً عن المذكرات، لمحمد كرد علي، (٤/ ١٣١٥-١٣١٦).

سادساً: عطاء أسلموا:

لقد سبقت شهادات منصفين أعطوا الإسلام حقه من التقدير والاعتبار، فمنهم: مَنْ بقي على دينه، ومنهم: مَنْ هدى الله، ولقد تعددت قصص هؤلاء الذين أسلموا، وتنوعوا من تخصصات شتى، وجمعتهم هداية الله على تفرُّق أقطارهم وتغاير ألسنتهم وألوانهم، مصداق قول الحق تعالى: ﴿سَرِيهِمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وفيما يلي عدُّ لنماذج متنوعة من تخصصات علمية وعملية، تشهد للدين الحق بانسراح الصدور لهدايته، وانفساح القلوب لأنواره، تارةً تأسرهم آيات القرآن، وأخرى تُبهرهم حقائق الإيَّان، وثالثة تأخذ بألبابهم حضارة وتاريخ أهل الإسلام. فيلِّي تلك النماذج الوضيئة والصور المشرقة:

فمن الرهبان والقسس والحاخامات:

- ١- عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حبر اليهود الأعظم زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولإسلامه قصة مشهورة.
- ٢- يوسف إسلام: كان يهودياً متعصباً، وعضواً بحركة شاس المتعصبة، فأسلم وأسلمت أسرته جميعاً، وتحول إلى الدعوة إلى الإسلام، وأسلم على يديه عشرات اليهود حول العالم، ولا يزال يمارس الدعوة.
- ٣- مارتن جون موايويو: رئيس أساقفة تنزانيا، درس النصرانية في أمريكا، قرأ تفسير القرآن فأسلم عام ١٩٨٦م، وتحول إلى داعية إسلامي، وتسمَّى

بأبي بكر، تعرّض لأكثر من ثلاث محاولات للاغتيال، وما زال يمضي في طريق دعوته.

٤- جوزيف إستس: قس أمريكي، أسلم عام ١٩٩١ م، وتسمّى يوسف إستس، وأسلمت زوجته، ووالده ووالدته، وتحوّل إلى داعية، أسلم على يديه الآلاف، وما يزال عطاؤه للإسلام متدفّقاً.

ومن الأدباء والشعراء:

١- الكسندر رسل: أديب وفيلسوف أمريكي أسلم عام ١٨٨٨ م، وتسمّى باسم محمد، وهو أول من نشر الإسلام في أمريكا، بعد أن كان من وُعاظ الأرثوذكسية، وألّف عدّة كتب في الإسلام والدعوة.

٢- خالد شلدريك: أديب عالمي، وعالم أديان إنجليزي، أسلم عام ١٩٠٣ م، بعد دراسات مطوّلة، ترجم القرآن الكريم.

٣- مرمادوك بكشوك: أديب إنجليزي درس اللغات الأجنبية، ومنها: العربية، نزل بلاد العرب وأقام فيها وألّف عنها، وكتب روايات مستوحاة من تلك الديار، أسلم وتسمّى نفسه محمد مرمادوك.

٤- دانيال مور: شاعر أمريكي أسلم عام ١٩٧٠ م، وتسمّى بعبد الحيّ، له قصائد رمضانة أصدرها في كتاب، وما يزال يقدّم عبر جمعيات أدبية أدباً إسلامياً.

ومن العلماء والمفكرين:

١- دوجلاس آرشر: جامايكي بروتستانتي، كان يعمل مديراً للمعهد التربويّ بجامايكا، تسمّى بعبد الله، أسلم في أثناء إعداد أطروحته للدكتوراه في التربية، وله جهود كبيرة في الدعوة.

- ٢- كريستوفر شامونت: من أكبر رجال الاقتصاد العالميين، تسمّى بأحمد، رأى الإسلام يخاطب عقل الإنسان، ويأخذ بيده نحو السعادة الدنيوية والأخروية.
- ٣- إنجريد ماتسون: أستاذة الأديان بكلية هارت فورد الأمريكية بكونيكت، أسلمت في آخر سنة من دراستها الجامعية، ولها برامج دينية إسلامية، رئيسة الجمعية الإسلامية بأمريكا الشمالية، وما يزال لها نشاطٌ إعلاميٌّ.
- ٤- عبد الكريم جرمانوس: مستشرق مجري، عمل أستاذًا جامعيًّا، وتخصّص في التاريخ العربي والإسلامي، طاف بلاد العالم الإسلامي، وتكلّم عددًا من اللغات، وترك كتبًا كثيرة عن الإسلام وثقافته، توفي عام ١٩٧٩م عن ستة وتسعين عامًا.

- ٥- روزالين روشبروك: إنجليزية، درست اللاهوت، أسلمت وتسمّت رقية، كتبت أربعين كتابًا عن الإسلام حصلت على عدة جوائز في الفكر الإسلامي والأدب.

فنانون ورياضيون:

- ١- فيدور إيتان: فنزويلي، عمل بالإننتاج السينمائي كان كاثوليكيًّا فأسلم بعد طول بحثٍ وتفتيشٍ، وأسلمت والدته على يديه.
- ٢- إيتان رينيه: رسامٌ ومفكّرٌ فرنسيٌّ عالميٌّ، ألف كتبًا مهمّة، مثل: «أشعة خاصة بنور الإسلام» و «الحج إلى بيت الله الحرام»، وأحدثت كتبه دويًّا في دوائر المستشرقين، تُوفي عام ١٩٢٩م.
- ٣- يوسف إسلام: واسمه قبل الإسلام كات ستيفنز، مغني بريطاني، كانت له شهرة واسعة، خاض تجربة طويلة للهداية، أسلم عام ١٩٧٧م، وله عدد من الأناشيد الإسلامية، وافتتح شركة للتسجيلات الإسلامية.

- ٤- محمد علي كِلاي: كاسيوس مارسيلوس كِلاي، أمريكي احترَف الملاكمة، أسلم عام ١٩٧٥م بعد أن تربَّع على عرش العالمية، ساهم في العمل الخيري عالميًا.
- ٥- بلال ريبيري: ولد عام ١٩٨٣م، وكان اسمه فرانك ريبيري، لاعب كرة القدم الفرنسي، أسلم عام ٢٠٠٦م، ويعتبر موهبة في عالم كرة القدم، حصل على جائزة أحسن لاعب في فرنسا عام ٢٠٠٧م، وفي ألمانيا عام ٢٠٠٨م.
- ٦- محمد يوسف: باكستاني كان اسمه يوسف يوحنا، ولد عام ١٩٧٤م، عضو فريق الكريكت القومي الباكستاني، أسلم عام ٢٠٠٥م، وكان نصرانيًا، وأسلمت معه زوجته وأولاده.
- وهكذا تتعدَّد النماذج وتتنوَّع، ولا يزال عطاء الإسلام ممتدًّا في كلِّ زمان، متجددًا بهداية، ومستمرًّا بعطاء مبارك^(١).



(١) قصص إسلام هؤلاء مبثوثة في عدة مؤلفات منها: عظماء أسلموا، لراغب السرجاني، الإسلام يصطفي من الغرب العظماء، لمفيد الغندور، الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، لمحمد عبد الصمد، سِرُّ إسلام رُوَّاد الفكر الحرِّ في أوروبا وعلماء الدين المسيحي الأجلاء، لمحمد عبد العظيم.



الفصل الخامس..

خصائص الإسلام



خصائص الإسلام

للإسلام خصائص تميزه عن كل ما سواه، وفضائل لم تجتمع لرسالة قبله، فقد خصه الله بما لم يشاركه فيه دين آخر، ولا تحقق لأمة ما تحقق للأمة الإسلامية من أسباب الخيرية، وفيما يأتي ذكر لأهم خمس خصائص لدين الإسلام.

أولاً: الرّبانيّة:

الرّبانيّة هي خصيصة الإسلام الكبرى، وقاعدته العظمى، وروحه السارية في مصادره، وعينه الجارية في كل عقائده وتشريعاته وتوجيهاته؛ لأن دين الإسلام دين الحق الذي أنزله الحق بعلمه، والذي لا يأتيه باطل، ولا يتسرب إليه من بين يديه، أو من خلفه؛ فكتابه موصوف بقوله تعالى: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا﴾ [الإسراء: ١٠٥] ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ليس لهذا الدين من مصدر أو منشئ دون الله تعالى وما على رسول الله ﷺ في هذا الدين سوى البلاغ فحسب!

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاه الله إليَّ»^(١).

ولأنه دينُ رَبَّانِيٍّ المضمون؛ فقد تربّع على عرش الكمال، وجمع معاني التمام، كما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهذه الرَّبَّانِيَّةُ كما كانت في المصادر والأصول الأولى فهي تحفظها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فالدين الحق هو الدين والمذهب الوحيد في العالم بأسره الذي حُفِظَتْ مصادره فلم يعترها تحريف، ولم تمتد إليها يدُ تبديلٍ، ولم يختلط بدينٍ آخر، ولم تدخله أوهام البشر، أو تتلاعب به أهواؤهم!

ولأنه رَبَّانِيٌّ المصدر فإنه يربط الإنسان في كل زمان ومكان، وفي كل عمل أو سعي برب الإنسان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١١٣] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]،

فكما هو دينُ رَبَّانِيٍّ المصدر فهو رَبَّانِيٌّ الغاية والوجهة.

وهو رَبَّانِيٌّ الدعوة والقدوة والبذل، قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

(١) أخرجه البخاري، (٤٩٨١)، ومسلم، (١٥٢).

وعن هذه الربانيّة تفرعت فروعٌ، وأثمرت ثمارٌ زاكيةٌ، وتحققت مصالحٌ عاليةٌ، فالدين الرباني محفوظ من التناقض، ومعصوم من الميل لطائفة من بني الإنسان، ومبرراً من الظلم، وينحاز إلى الإنسان فيحرّره من أسر كلّ عبودية، ويحميه من كل نزوة أو شهوة، ويُسعد في الدنيا والآخرة بإخراجه من الظلمات إلى النور، ويصبغه بصبغة الربانيّة في أقواله، وأعماله، وأخلاقه^(١).

ثانياً: الفطرية:

لقد خلق الله الخلق على هيئة سوية، تقبل الإسلام وتقرّ بالوحدانية، وتميل إلى الحقّ، وتنأى عن الباطل، وتحب الصدق والعدل، وتكره الكذب والظلم والبغي، تتجنح نحو السهولة والبساطة، وترك التكلّف والتعقيد.

فهذه خلقه الله للبشرية جمعاء، ودين الإسلام أمر الله للبشرية جمعاء، ولا تعارض أو تناقض بين خلقه وأمره - جل في علاه.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فوصف الإسلام بأنه دين الفطرة، وأنه دين فطريّ، ومعنى هذا: «أن أصل الاعتقاد فيه جارٍ على مقتضى الفطرة العقلية. وأما تشريعاته وتفريعاته؛ فهي: إما أمور فطرية أيضاً أي: جارية على وفق ما يدركه العقل، ويشهد به، وإما أن تكون لصلاحه مما لا ينافي فطرته.

وقوانين المعاملات فيه هي راجعة إلى ما تشهد به الفطرة؛ لأن طلب المصالح من الفطرة»^(٢).

(١) معالم في أصول الدعوة، لمحمد يسري، (ص ١٧-١٩).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، (٩/ ٢١).

فدين الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه وآدابه أقرب ما يكون للخلقة والجلبة التي خلق الله الناس عليها، وذلك يتضح من خصائص عقيدته وشريعته، ومنهاج عبادته، وطريقة تركيته للنفوس، وإقامة الحجج والبراهين على المخالفين والمعاندين، وعموم دعوته للبشر أجمعين، وقرب تشريعاته من التطبيق والتنفيذ، ورأفة تعاليمه بالخلق، ورعايتها لمصالحهم، وتيسيرها عليهم، وتسويتها في التكاليف بينهم، ورعايتها لخصوصيات المرأة، وتقديرها لأصحاب الحاجات، وحسمها لأسباب الانحراف والفساد، وكل ذلك إنما شرعه وأنزله العليم الخبير بفطرة الإنسان قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ^(١).

ثالثاً: العالمية:

عالمية الإسلام من أظهر خصائصه؛ فهو ليس دين طائفة دون أخرى، ولا أنزل لعصر دون عصر، ولا يختص بمكان دون مكان! تؤكد تعاليم هذا الدين عالمية الإسلام، فهي إنسانية عالمية، تلبي حاجة كل المجتمعات على اختلاف الأزمان والبلدان. فنطاقه المكاني الدنيا بأسرها، ونطاقه الإنساني الناس جميعاً! فَنَبِيُّهُ ﷺ عالمي الرسالة!

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال - عن نفسه ﷺ -: «... وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً...» ^(٢).

(١) طريق الهداية، لمحمد يسري، (ص ٢٥٠).

(٢) أخرجه مسلم، (٥٢٣).

وكتابه القرآن الكريم عالمي الهداية والذكر.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الَّذِي ذَكَرُكَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧].

ومن عالمية هذا الدين: أنه يقيم الأواصر الاجتماعية على أساس من التوحيد والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهم إخوة، وإن تعددت أعرافهم، وتباينت لغاتهم، ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهو يحمل عالمية الدعوة منذ فجره، ولحظات انطلاقته على يد أصحاب نبيّه ﷺ، وفي هذا يقوم خطيبهم ربعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلاً: «ابتعثنا الله لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمَنْ ضَيَّقَ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَمَنْ جَوَرَ الْأَدْيَانَ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ»^(١).

ومن عالمية تشريعاته: رعايتها الثوابت والمحكمات في كل ميدان، وتعاملها مع قضايا ومسائل الاجتهاد بحسب معطياتها ومقدماتها، فلا تقف على رأي لا يتغير في هذا الباب أو ذاك، ولا تجمد على أسلوب أو وسيلة لا ترى سواها، كما لا تتبنى مذهباً فقهيّاً، ثم تُنزله منزلة المحكمات والقطعيّات في كلّ فروعه ومسائله^(٢).

رابعاً: الشُّمُولِيَّةُ:

إن دين الإسلام أعمُّ وأشملُّ من أن يهتمّ بالآخرة، ويهمّل الدنيا، أو يشرع

(١) تاريخ الطبري، (٢/ ٤٠١).

(٢) معالم في أصول الدعوة، (ص ١٨٦-١٨٨)، الإسلام، لمحمد إبراهيم الحمد، (ص ٣٧٦)، عطاء الإسلام الحضاري، لأنور الجندي، (ص ٣٣).

في جانب العقيدة والعبادة، ويهمل جانب المعاملات أو العقوبات، أو يعتني ببناء الروح، ويهمل جانب الجسد، وقد قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، إن الإسلام تشريعات وتوجيهات وتوصيات؛ تشمل الدنيا والآخرة، وله في كل باب من أبواب الحياة أوامر ونواهٍ، يُطلب من كل مسلم أن يمثّلها كافّةً، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

فالإسلام «دين شامل، يشتمل على مصالح العباد في المعاش والمعاد، ويشمل كل ما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم؛ فهو عبادة وقيادة! يكون عابداً، ويكون قائداً للجيش. عبادة وحكم: يكون مصلياً صائماً، ويكون حاكماً بشرع الله منفذاً لأحكامه. عبادة وجهاد: يدعو إلى الله، ويجاهد في سبيل الله من خرج عن دين الله. مصحف وسيف: يتأمل القرآن ويتدبره، وينفذ أحكامه بالقوة، ولو بالسيف إذا دعت الحاجة.

سياسة واجتماع: فهو يدعو إلى الأخلاق الفاضلة، والأخوة الإيمانية، والجمع بين المسلمين والتأليف بينهم»^(١).

وكما أن الإسلام شامل متكامل يمثل منهج الحياة الأمثل، فكذا الدعوة إليه وبلاغة لأهله والعمل به، يجب أن يكون شاملاً لشرائعه وعقيدته، وأحكامه، وتنظيماته، مقيماً للدين والدولة معاً.

خامساً: الوسطية:

وسطية الإسلام تنطلق من وسطية عقيدته وشريعته، وأنظمته ورؤيته

(١) مجموع فتاوي ابن باز، (١/١٤٧).

للإنسان والحياة والكون، ولأجل تلك الوسطية في مبادئه كانت الأمة الإسلامية هي الأمة الوسط.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فالوسطية هي الخيرية والعدالة إذا اجتمعا، وقد قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهي خيرية عقيدة، وشرعية، وعلم، وعمل، وخلق.

فعقيدة المسلمين وسط بين عقائد أصحاب الأديان المحرفة والديانات الوضعية، فهي وسط بين باطل الملاحدة وباطل الوثنيين المشركين، وهي وسط بين من عبد الأنبياء وقَدَّسَهُم وبين من أهانواهم وقتلواهم! وعبادة المسلمين وسط بين من غلا في العبادة وترهبين وانقطع عن الحياة، وبين من جفا عنها وألغى الربَّانِيَّةَ، وترك التَّأْلَةَ والتَّنُسُّكَ.

وشرعية المسلمين وسط بين من أباح المحرمات واستباح المنكرات، وبين من حرَّم الحلال الطيب بزعم التقرب إلى الله! فهي وسط بين غلوِّ مُفْرِطٍ وتفريطٍ متهاونٍ. وأنظمة المسلمين وسط بين من يُنَحِّي عنها الدين جملةً، ولا يُقيم لها من الدين أحكاماً، وبين من يدَّعي حكماً وتحكماً بحق إلهي، أو بفكرة دينية مخترعة، فأنظمة الإسلام تراعي الثابت والمتغير معاً.

وهكذا فإن الإسلام وأهله وسط بين الأديان جميعاً، وبين الفرق والطوائف كافةً.



الفصل السادس ..

خصائص الأمة الإسلامية



خصائص الأمة الإسلامية

للأمة الإسلامية خصائص جليلة وسمات راقية تستمدُّها من انتسابها لدينها العظيم الإسلام، ومن أهم تلك الخصائص ما يلي:

أولاً: الأمة الإسلامية خيرُ أمة أُخرجت للناس:

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وجاء في خبر أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] - قال: «خيرُ الناسِ للناسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا الْإِسْلَامَ»^(١).

وفي الحديث الآخر: «إِنَّكُمْ تُتَمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»^(٢).

وهذه الخيرية ثابتة للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولمن بعدهم من قرون هذه الأمة

الخيرة، وإنْ نَقَصَ الْخَيْرُ فِيمَنْ بَعْدَهُمْ.

وفي الحديث: «خيرُ الناسِ قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»^(٣).

قال ابن كثير: «والصحيح أن هذه الآية عامَّةٌ في جميع الأمة، كل قرن بحسبه،

(١) أخرجه البخاري، (٤٥٥٧).

(٢) أخرجه أحمد، (١١٥٨٧).

(٣) أخرجه البخاري، (٣٦٥١)، ومسلم، (٢٥٣٣).

وخير قرونها الذين بُعث فيهم رسولُ الله ﷺ ثم الذين يلونهم...»^(١).
ومن وجوه خيرية هذه الأمة مايلي:

١ - إيمانها بكتب الله المنزلة وبرسله كافة:

وهذا لم يحصل لأمة سواها فهي آخر الأمم، وهي أسبق الأمم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

٢ - أنها خيرُ الأمم كتاباً:

فكتابها مهيمِن على كل كتاب قبله، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن كثير: «وإنما فازوا بهذا بركة الكتاب العظيم القرآن، الذي شَرَّفَهُ اللهُ على كلِّ كتابٍ أنزله وجعله مهيمناً عليه وناسخاً له وخاتماً له»^(٢).

وهو الكتاب المعجز المتحدّى به، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]

وهو أحسن الكتب المنزلة ولا بدّ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ٧٧).

(٢) فضائل القرآن، لابن كثير، (ص ٦١).

﴿ كِتَابًا ﴾ [الزمر: ٢٣].

٣- أنها خيرُ الأممِ نبيًّا ورسولًا:

ولقد فضَّلَ الله نبيَّها تفضيلاً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وفي الحديث: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخر»^(١).
وقال: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامة»^(٢).

أفضلُ الخلقِ على الإطلاقِ نبينا فمِلْ عَنِ الشَّقَاقِ

وفي الحديث: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شهرٍ، وجُعِلَتْ لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا؛ فأيُّمًا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فليصِلْ، وأَحِلَّتْ لي الغنائمُ، ولم تحِلْ لأحدٍ قبلي، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً»^(٣).
وفي الحديث: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(٤).

ثانيًا: أمةٌ لا تجتمعُ على ضلالةٍ:

فهي أمةٌ معصومةٌ بمجموعها من الضلالاتِ في كلِّ بابٍ مطلقًا، فلا تجتمعُ على ضلالةٍ عقدية، أو فقهية، أو مسلكية، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ - عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيُدُّ اللَّهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ»^(٥)، فإجماعها معصومٌ من الخطأ والغلط.

(١) أخرجه الحاكم، (٦٦٠ / ٢)، وقال: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه مسلم، (٢٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاري، (٣٣٥)، ومسلم، (٥٢١).

(٤) أخرجه مسلم، (٢٢٨٦).

(٥) أخرجه الترمذي، (٢١٦٧)، والحاكم، (٢٠١ / ١)، وقال الترمذي: حديث غريب.

وفي الحديث - أيضًا - : «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَجَارَ أُمَّتِي أَنْ تَجْتَمَعَ عَلَى ضَلَالَةٍ»^(١).

ثالثًا: أمة منصورة مرحومة:

سياحتها الجهاد، وفي الحديث: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

وفي الحديث: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»^(٣).

وفي الحديث الآخر: «لَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٤).

فهي منصوره بالسيف والسنان في زمان دون زمان، وهي منصوره بالحجة والبيان في كل زمان: «لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِالْحُجَّةِ»^(٥)، وهي أمة مرحومة، مرحومة، وفي الحديث: «أُمَّتِي هَذِهِ مَرْحُومَةٌ، لَا عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الزَّلَازِلُ، وَالْقَتْلُ، وَالْبَلَاءُ»^(٦).

رابعًا: أمة العفو والسعة:

لقد عفا الله تعالى عن هذه الأمة المرحومة فلم يؤاخذها بخطئها ونسيانها وعفا عنها عفواً شاملاً، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، (٨٣).

(٢) أخرجه أبو داود، (٢٤٨٦)، والحاكم، (٨٣/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٣٩٢٢)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري، (٧٣١١)، ومسلم، (١٩٢١).

(٤) أخرجه أحمد، (١٥٥٩٧).

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، (٧٩/١).

(٦) أخرجه أحمد، (١٩٦٧٨)، والبيهقي في الآداب، (٧٢٤)، والحاكم، (٢٨٣/٤)، وصححه.

السلامة | ١٠٣

عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ
وَاَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

[البقرة: ٢٨٦]، وفي الحديث: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم»^(١).

وفي الحديث الآخر: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٢).

وهذه أدلة ظاهرة على السعة التي وهبها الله للأمة دون ما عداها من الأمم.

خامسًا: أمة الشهادَةِ على الخلق يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، وفي الحديث: «أنتم شهداء الله في الأرض»^(٣).

سادسًا: أول الأمم جوازًا على الصراط ودخولًا الجنة، وهي أكثر أهل الجنة:

في الحديث: «... وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمْتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ»^(٤).

وفي الحديث - أيضًا -: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»^(٥).

وفي الحديث - أيضًا -: «... وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ

(١) أخرجه البخاري، (٢٣٩١).

(٢) أخرجه ابن ماجه، (٢٠٤٣)، والحاكم، (١٩٨/٢)، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري، (١٣٦٧)، ومسلم، (٩٤٩).

(٤) أخرجه البخاري، (٧٤٣٧)، ومسلم، (١٨٢).

(٥) أخرجه البخاري، (٧٤٩٥)، ومسلم، (٨٥٥).

أهل الجنة، فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا»^(١).

خصائص أهل السنة والجماعة:

أهل الإسلام الخالص عن كل شوب هم أهل الكتاب والسنة، وهم أهل السنة والجماعة، وهم الصحابة وأتباعهم إلى يوم القيامة، فكل من كان متبعاً لسلف الأمة الصالحين من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان في كل زمان ومكان - فهو من أهل الإسلام المحض، وهذا يشمل كل من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، ملتزماً بالإسلام جملةً، محكماً شريعته استسلاماً وانقياداً، مع براءته من كل مذهب بدعي، وأهل السنة هم جمهور الأمة الذين لم يتسموا باسم غير الإسلام والسنة.

قال بعض السلف: «إذا تسمى الرجل بغير الإسلام والسنة فألحقه بأي دين شئت»^(٢).

وأهل السنة هم الفرقة الناجية، وهم الطائفة المنصورة التي وردت في أحاديثه ﷺ؛ حيث قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا

(١) أخرجه البخاري، (٣٣٤٨).

(٢) الشرح والإبانة، لابن بطة، (ص ١٣٧).

عليه اليوم وأصحابي^(١) - وفي رواية قال: الجماعة^(٢) - وفي رواية أخرى قال: السَّوَادُ الْأَعْظَمُ^(٣).

ولأهل الإسلام والسنة مواصفات وخصائص بها يوصفون، نُجملها فيما يلي:

أولاً: أهل العقيدة الصحيحة:

أهل السنة والجماعة على قول واحد في أصول العقيدة وكتليتها، لم ينقل عنهم اختلاف في مهمات مسائل العقيدة، بل المحفوظ عنهم اتفاقهم، وعدم اختلافهم^(٤). قال ابن كثير **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه»^(٥).

فإن وقع خلافٌ عَقْدِيٌّ بين أهل السنة فهو خلاف في فروع مسائلها لا غير، وهو خلاف لا يُدْعَى القائلُ به ولا بدَّ، وكل عقيدة لم تثبت في الكتاب أو السنة الصحيحة، ولم تُنقل عن السلف فليست من عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي إلى البدعة أقرب.

ثانياً: هم أهل العناية بالقرآن والرعاية لسنة النبيّ العدنان:

أعظم الناس اشتغالاً بالقرآن وهدايتَه وبالسنة وآدابها هم أهل القرآن والسنة، الذين يعظمون القرآن فيجعلونه إمام الاستدلال عندهم، ويعظمون

(١) أخرجه الترمذي، (٣٨٣٢).

(٢) أخرجه أحمد، (١٢٢٠٨)، وابن ماجه، (٣٩٣٣، ٣٩٩٢).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، (٦٩)، والبيهقي في السنن الكبرى، (٨/١٨٨)، والطبراني في الكبير، (٨٠٥٤).

(٤) طريق الهداية، د. محمد يسري، (ص ٧٤).

(٥) تفسير ابن كثير، (٣/٤٣٤).

السنة ونصوصها لتكون شارحة القرآن، ومفصلة ما أجمل فيه، ومقيدة ما أُطلق فيه؛ فأهل السنة أهل العلم بالقرآن وسنة النبي العدنان، وأهل الاتباع لهما: «إنَّ أحقَّ الناس بأن تكون الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل معرفة بمعانيها، وأتباع لها، تصديقاً وعملاً وحباً، وموالاةً لمن والاه، ومعاداةً لمن عاداه»^(١).

ثالثاً: أهل الوسطية بين المختلفين من أهل الإسلام:

بافتراق الأمة كما أخبر نبينا ﷺ صار الوسطُ المرضيُّ بين طرفين مذمومين هم أهل السنة والجماعة، فهم دائماً وأبداً الوسطُ بين المختلفين من فرق الأمة، كما أمة الإسلام هي الوسط بين الأمم التي سبقت، وهي وسطية محكومة باتباع الكتاب والسنة، فمذهبهم هو الهدى بين ضلالتين، فهي وسطيةٌ عقيدة لا غلو فيها، ووسطيةٌ عبادة لا رهبانية فيها، ووسطيةٌ شريعة لا حرج فيها^(٢).

رابعاً: أهل الاجتماع على الاتباع ونبيذ الفرقة والابتداع:

من أعظم خصائصهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أنهم يعتنون بالاجتماع، ولا يفرطون في الاتباع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الطريقة الوسطى التي هي دين الإسلام المحض... وهي طريقة خيار هذه الأمة - قديماً وحديثاً - وهي واجبة على كل مكلف، وهي متوسطة بين طريقة الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقاً، وإن لم يكونوا أبراراً»^(٣).

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية، (٣/٣٤٧).

(٢) الإحكام في قواعد الحكم على الأنام، لمحمد يسري، (ص ٦).

(٣) مجموع الفتاوي، (٢٨/٥٠٨).

خامسًا: أهل الأخلاق الإيمانية والتربية الربّانية:

أهل السنة والجماعة هم حملة ميراث النبوة في جانيه: العلمي والعملي، فهم أصحاب الأخلاق النبوية، والآداب المصطفوية، يُعرفون بمحبة الناس، ومحبة الخير لهم، واجتناب أذاهم، والصبر على دعوتهم، قال عنهم ابن سيرين: «كانوا يتعلمون الهدى، كما يتعلمون العلم»^(١).

وقال عنهم الحسن البصري: «إن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنة والستين»^(٢).

وقال عنهم شيخ الإسلام: «يأمرّون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمرّ القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^{(٣)(٤)}.

وذكر الذهبي أنه كان يحضر مجلس الإمام أحمد خمسة آلاف، خمسمائة يكتبون، والباقون يستمدون من سمته، وخُلُقِه، وآدابه^(٥).

سادسًا: أهل الدعوة والبلاغ، والأمر والنهي:

لقد حملوا مشعل هداية الخلق إلى دين الحق، والأمر بالمعروف وبذل الخير، والنهي عن المنكر ومدافعة الشرّ، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادى، (١/ ٧٩).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، (ص ٢).

(٣) أخرجه أحمد (٧٤٠٢) والترمذي، (١١٦٢) وقال: حسن صحيح.

(٤) مجموع الفتاوى، (٣/ ١٥٨).

(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي، (١١/ ٣١٦).

«فیدعون مَنْ ضلَّ إلى الهدى، ویصبرون منهم على الأذى»^(١)، یسعون بالدعوة إلى إفادة الدین، واستبانة سبیل المجرمین، ویسعون بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنکر إلى التمییز بین الجاهلیة والمعانیدن وإقامة قانون موالاة المؤمنین، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]

سابعًا: أهل الجهاد بالحجة والبيان، والسيف والسنان:

وأهل السنة والجماعة یعتقدون الجهاد في سبیل الله ذروة سنام الإسلام، وهدفه هداية الخلق إلى دین الحق، وتعبید بني الإنسان للواحد الدیان، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وإخلاء العالم من الفساد، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والجهاد عندهم ماضٍ إلى قیام الساعة بالنفس والمال ویشمل - بمعناه الأعم -: بذل الجهد في نصره الدین، بالسیف والسنان، وبالحجة والدعوة والبيان، «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٢).

وإنكار وجوب الجهاد إنكارٌ لمعلوم من الدین بالضرورة. وترك الجهاد طریق الهلكة والخسران، وسبب الذل والهوان، ومدعاة الداء والبلاء، وبحمد الله لا تسقط في الأمة راياته، ولا تنكس عند أهل السنة والجماعة ألویتة.

(١) الرد على الجهمية، للإمام أحمد، (ص ٥٥).

(٢) أخرجه أحمد، (١١١٤٣)، وأبو داود، (٤٣٤٤)، والترمذي، (٢١٧٤)، وابن ماجه، (٤٠١١).



الفصل السابع ..

محاسن الإسلام



محاسن الإسلام

حين يجري الحديث عن الإسلام فإنما يجري حول وحيٍّ معصومٍ، ودينٍ مطهَّرٍ، يحمل بين جنبتيه حقًّا لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، آياته البينات وأحاديثه الصحاح المباركات محفوظة بحفظ ربِّ البريات.

فالإسلام هداية الله من كل غواية، وهو النجاة في الدنيا والآخرة من كل مخافة، فَصَّلَ الله أحكامَهُ وأوضح برهانهُ، وجعل شريعته وافيةً بالصالح في العاجل والآجل؛ فلا غرورَ أن كان الإسلام هويةً كلِّ مسلم، وجنسية كلِّ مؤمن، في مشارق الأرض ومغاربها، مجمع رابطة الإسلام بين كل المسلمين، ومؤلف أخوة الإيمان بين كل المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

إذا اشتكى مسلمٌ في الهندِ أَرَقَنِي،	وإن بكى مسلمٌ في الصينِ أبكاني
ومِصْرُ رِيحَانَتِي، والشامُ نَرْجِسَتِي،	وفي الجزيرةِ تاريخي وعُنْوَاني
أرى بُخَارَى بلادي - وهي نائِيَةٌ -	وأستريحُ إلى ذكرى خُرَاسانِ
شريعةُ الله لَمَّتْ شَمْلَنَا، وَبَنَتْ	لنا مَعَالِمَ إِحْسَانٍ وَإِيمَانِ

والحديث عن محاسن الإسلام في كل ميدان، هو حديث عن معدن الحسن وأصله، ومنبته وأسه، محاسنه ذاتيه تُشعُّ جمالاً وبهاءً، وتظهر في عقيدته سمته وعنواناً، وتتبدى من شريعته نوراً وبرهاناً وتترآى من عبادته جلالاً وكمالاً، وتسطع من أخلاقه وآدابه إحساناً وعرفاناً، وتلوح من دعوته هدايةً وإشعاعاً، وتُطلُّ من أنظمتها تسديداً وإحكاماً، فإلى محاسن الإسلام الدينية الذاتية، ومحاسن عقيدته، وشريعته، وعبادته، ودعوته، إلى ما يتبدى من مظاهر اكتماله وحُسنه بالمقارنة بواقع غيره من الأديان والمذاهب والملل، وفيما يأتي حديث وافٍ عن محاسن الإسلام الذاتية وفي كل مجال من مهمات الدين.

أولاً: محاسن الإسلام الدينية الذاتية:

١ - الإسلام هو الدين الحق المطلق المعصوم في أصله:

لا يخرج الإسلام أن يكون وحياً من القرآن أو السنة، وقد قال الله - عنه - : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. وقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وما دام الإسلام وحياً؛ فهو حق معصوم: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

فهذا الدين الحق: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

ولقد قرَّرَ النبي ﷺ هذا المعنى، فقال: «وإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحياً أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري، (٤٩٨١)، ومسلم، (١٥٢).

وقال - أيضًا -: «اكتب؛ فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق»^(١).

وأشار بيده إلى فمه الشريف ﷺ.

٢ - الإسلام دين الهدى والرحمة:

فالهدى والرحمة شعاره وعنوانه، قال الله - عن كتاب الإسلام -: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].
وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال الله عن نبي الإسلام ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال عن نفسه ﷺ: «إني لم أبعث لعائنًا، وإنما بعثت رحمة»^(٢).

ودعوة الإسلام هي دعوة الهداية، وفي الحديث قال ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مِّن تَبِعِهِ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»^(٣).

٣ - الإسلام دينٌ وهويَّةٌ، وجنسيةٌ عالميةٌ:

فليس عند المسلمين إلا جنسية الإسلام، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) أخرجه أحمد، (٦٨٠٢)، وأبو داود، (٣٦٤٦)، والحاكم، (١٠٤ / ١ - ١٠٥)، وصححه.

(٢) أخرجه مسلم، (٢٥٩٩).

(٣) أخرجه مسلم، (٢٦٧٤).

وقال ﷺ: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمَر على أسود...»^(١).

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

فليس للمسلم أرض يُسميها بلاده، ولا حدود تقيد ولاءه.

ولست أبغي سوى الإسلام لي وطناً الشام فيه ووادي النيل سيان

وحيثما ذكر اسم الله في بلد عدت ذاك الحمى من لبّ أوطاني

قال الشاعر :

أضحى الإسلام لنا ديناً وجميع الكون لنا وطناً

ورسول الإسلام وكتاب الإسلام للناس كافة: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال - عن نفسه ﷺ -: «وأرسلتُ إلى الخلق كافة»^(٢).

وقال - أيضاً -: «كان النبي يُبعثُ إلى قومه خاصّةً وبعثُ إلى الناسِ عامّةً»^(٣).

٤ - الإسلام دين شامل ومفصل :

فهو دين يمتدُّ طويلاً حتى يشمل الزمن كله وإلى قيام الساعة، ويمتدُّ عرضاً

ليستوعب الخلق في بقاع الأرض كافة، ويمتدُّ عمقاً حتى يشمل الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه أحمد، (٢٣٤٨٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء، (٣/ ١٠٠).

(٢) أخرجه مسلم، (٥٢٣).

(٣) أخرجه البخاري، (٣٣٥).

وهو دين يتناول في كتابه وسنة نبيه ﷺ كل شأن تفصيلاً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وفي الحديث قال ﷺ: «أيُّها الناس، إنه ليس من شيء يُقَرَّبُكم من الجنة، ويُبْعَدُكم من النار إلا قد أَمَرْتُكم به، وليس شيء يُقَرَّبُكم من النار، ويُبْعَدُكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه»^(١).

وفي الحديث قال ﷺ: «الحلال بينٌ والحرام بينٌ»^(٢).

٥ - الإسلام دين السباحة واليسر:

فما عرفت البشرية ديناً أسمح ولا أيسر من الإسلام الذي أنزل على خير الأنام ﷺ. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

وقد قال ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَةِ السَّمْحَةِ»^(٣).

وعن سماحته ويسره ﷺ قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما خَيْرُ رَسُولٍ اللَّهُ ﷺ بين أمرين - أحدهما أيسر من الآخر - إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً»^(٤). وقال ﷺ لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «فَإِنَّمَا بُعِثْتُ ميسرين، ولم تُبْعَثُوا مُعَسِّرينَ»^(٥).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، (٣٥٤٧٣)، والحاكم، (٥/٢).

(٢) أخرجه البخاري، (٥٢)، ومسلم، (١٥٩٩).

(٣) أخرجه أحمد، (٢٢٢٩١).

(٤) أخرجه البخاري، (٦٧٨٦)، ومسلم، (٢٣٢٧).

(٥) أخرجه البخاري، (٦١٢٨، ٢٢٠).

٦ - الإسلام دين السَّعةِ والمرونة:

أ- فهو يُبيحُ المحرمات عند الاضطرار:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لَعَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].
وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ب- والأعمال الشرعية فيه مقيّدةٌ بالاستطاعة:

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].
وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].
وقال ﷺ: «صَلِّ قَاتِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(١).
وقال - أيضًا -: «ما نهيتكم عنه، فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم»^(٢).

ج- ويشرعُ الرُّخَصَ عند المشقَّات:

فشرعَ القصرَ في السفر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١].

ويُبيحُ الفطرَ في السفرِ وعند المرضِ، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ويخفف من صفة صلاة الخوف، ويضع الرواتب عن الإنسان في السفر.

(١) أخرجه البخاري، (١١١٧).

(٢) أخرجه البخاري، (٧٢٨٨)، ومسلم، (١٣٣٧).

د- لا يؤاخذ الإنسان عند عذر قاهر:

وهذا مما اختص الله به أمة الإسلام وشريعته، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَاقَةِ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(١).
وفي الحديث - أيضاً -: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسَّوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلِّمْ»^(٢).

٧- الإسلام دين المثالية والواقعية:

فالإسلام يتعامل مع الضعف البشري، ويُقر بتفاوت الخلق في الاستقامة على طريق الحق.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ۖ﴾ [فاطر: ٣٢].

وفي التشريعات تفريق بين الفرائض الواجبة، والنوافل المستحبة، وفي الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»^(٣).

(١) أخرجه ابن ماجه، (٢٠٤٥)، والطبراني في الأوسط، (٨٢٧٣)، والدارقطني، (٤٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري، (٢٥٢٨)، ومسلم، (١٢٧).

(٣) أخرجه البخاري، (٦٥٠٢).

والإسلام تستجيب شريعته للحاجات الغريزية، وتضبطها، وتحتُّ على القيم العليا، وتدعو إلى الأكمل دومًا:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

شهادات غربية على محاسن الإسلام الذاتية:

وبهذه الحقائق الظاهرة وتلك المحاسن شهد المنصفون من الغربيين من علماء ومفكرين، يقول مونجمري وات: «لقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقل عن الدينين الأقدمين (اليهودية والمسيحية) ونقول عن حق: إنه بالفعل كان يفوقهما، أو أنه فعلاً كان متفوقاً عليهما أو أرقى منهما»^(١).

ويقول تولستوي: «ستعم الشريعة الإسلامية كل البسيطة لاثلافها مع العقل، وامتزاجها بالحكمة والعدل»^(٢).

ويقول توماس كارليل: «لقد ظلت الرسالة التي دعا إليها هذا النبي سراجاً منيراً منذ اثني عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس، وهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين، وماتت عليها، أكذوبة كاذبٍ أو خديعة مخادع؟!»^(٣).

(١) الإسلام والمسيحية، لمونجمري وات، (ص ٣٣، ١٩١).

(٢) حكم النبي محمد، لتولستوي، (ص ٤٢).

(٣) نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي، د. عز الدين فراج، (ص ٣٠).

ثانيا: محاسن العقيدة الإسلامية:

للإسلام مقومات متعددة؛ على رأسها: العقيدة الإسلامية، وهي عقيدة متحدة مع عقيدة كل نبيٍّ ورسولٍ؛ لأنها تقوم على دعائم واحدة ثابتة في أصولها وقواعدها، ولها خصائص تميزها عن غيرها من عقائد منحرفة أو باطلة.

دعائم العقيدة الإسلامية:

١ - توحيد الله تعالى:

فالتوحيد أول واجب وأعظمه، وأهم تكليف وآكده، وبه أرسل الله كل رسول، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فهو القاسم المشترك بين كل دين مُنزَّل، وهو أول ما يخاطب به المخالفون من أهل الكتاب وغيرهم عند الدعوة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد قال ﷺ لصاحبه معاذ حين أرسله إلى اليمن: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم...» الحديث^(١).

(١) أخرجه البخاري، (١٤٥٨)، ومسلم، (١٩).

والتوحيد هو سبب النجاة في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والتوحيد إفراده تعالى بالألوهية والربوبية، وبما له تعالى من الأسماء والصفات الفعلية:

فكما هو اعتقاد الوجدانية: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فهو تنزيه لله عن التثليث، وعن الصاحبة والولد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص].

فهو أيضاً إفراد لله تعالى بالعبادة من غير شريك، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

وقال تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وهو أيضاً أفراد الله تعالى بكلماته وأسمائه وصفاته العلا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وكل ما نقل عن الله تعالى على لسان أهل الشرك والأوثان، أو من قول من نسب إليه صاحبة، أو ولداً، أو جعل الإله الواحد آلهة؛ فكل ذلك عقيدة الإسلام منه براء.

٢ - اعتقاد أركان الإيمان:

وقد مرت أصول الإيمان الخمسة بعد الإيمان بالله تعالى؛ فهي بمثابة أركان وأصول عقيدة أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وهذه الأركان تتضمن الإيمان بالملائكة، والكتب المنزلة، والرسول، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

وما يرتبط بذلك من تفصيلات وأحكام عقدية.

ثالثاً: خصائص العقيدة الإسلامية:

وللعقيدة الإسلامية خصائص تُميّزها، وتُعَلِّي من شأنها، وتحفظ عليها ربانيتها، ومن أهم تلك الخصائص والمميزات ما يلي:

١ - أثرية العقيدة:

فهي عقيدة تقوم على المأثور من كتاب ربنا، وصحيح سنة نبينا ﷺ، وهي عقيدة تؤثر أصحاب رسول الله، وعنهم تُؤخذ، ومنهم تُنقل.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر»^(١).

ولذا فهي العقيدة الحق؛ لاستمدادها من كلام الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس للبشر أن يخترعوها بأقوال، أو نظريات، أو فلسفات.

وهي عقيدة ثابتة لا يعترها تغيّر ولا تبدل، ولا زيادة ولا نقصان، ولا تحريف أو تبديل، وكل إحداث فيها على صاحبه مردود، وقد قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول السنة، (١/ ٩٦).

أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردُّ»^(١).

وهي عقيدة كاملة؛ لكمال هذا الدين وتمامه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وإذا كان القول على الله بغير علم من الكبائر؛ فإن القول عليه في ذاته، أو أسماؤه، أو صفاته بغير علم هو من أشدَّ الكبائر إثماً، قال تعالى: ﴿لَا تَعْلَوْا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وهي عقيدة تُبنى على التسليم لله تعالى ولرسوله ﷺ من غير تعرُّضٍ لنصوص الوحيين بتحريف، أو تعطيل، أو إقامة التعارض بين صحيح النقل، وصريح العقل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].

وقد قال بعض السلف: «قَدِّمُ الْإِسْلَامَ لَا تَثْبُتْ إِلَّا عَلَى قَنْطَرَةِ التَّسْلِيمِ»^(٢).
فالخاص أن العقيدة مأثورة عن الصحابة الذين قال الله - لهم ولمن بعدهم - : ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧].

٢ - شمولية العقيدة:

إن العقيدة الإسلامية لا تقتصر على جانب دون جانب، ولا تطرق باباً دون باب، فهي عقيدة تُعنى بتحقيق العبودية لله تعالى في أكمل صورها، وأجل معانيها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

(١) أخرجه البخاري، (٢٦٩٧)، ومسلم، (١٧١٨).

(٢) العين والأثر في عقائد أهل الأثر، لعبد الباقي الحنبلي، (ص ٦٢).

فكما تُعْنَى بذكر توحيد الله في ألوهيته وعبادته تُعْنَى - كذلك - بذكر توحيده في ربوبيته، وكما تُخَلِّصُ العقل والفكر من الشبهات والأهواء في باب أسماء الله وصفاته؛ فهي تُخَلِّصُ الأخلاق والسلوك من الآفات التي تنشأها الغفلة عن مدلولات الأسماء والصفات.

وَتُعْنَى بالجانب العمليّ التعبديّ منها، كما عُنيَتْ بالجانب العلميّ النظريّ. وكما تأمر أتباعها بالارتباط بعقيدة الولاء والمحبة والنصرة بين المؤمنين تنهى عن اعتقاد التقديس أو العصمة في حق أحد من المؤمنين.

وكما تأمر بالبراء من كل من خالف صحيح الاعتقاد ممن كان على غير الملة، أو كان على غير السنة؛ فإنها تنهى عن الجور أو الظلم، وتأمر - على كلّ حال - بالإقسط والعدل. وكما تأمر برعاية الآخرة؛ فإنها لا تنسى عمارة الدنيا، وحيث نهت عن منكرات وبدع في باب؛ فإنها لا تهمل بقية الأبواب، قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٣ - عقلانية العقيدة وغيبيتها:

إن عقيدة المسلمين لا تُناقِضُ العقلَ ولا تُعاندُه ولا تُكابرُه، بل هي تُوافقه وتهديه، وتأخذ به إلى مرشد الأمر وتسدده؛ فهي عقيدة برهانية تقوم على أساسٍ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

فلا مجال فيها للشطح، أو الإيمان بالخزعبلات، أو الأساطير، ولا مجال فيها للتقليد الذي يبعد عن الحق، ويُغلق باب الفهم.

وهي عقيدة تحترم العقل الصريح فلا تصادمه أبدًا؛ لأن مصدرها النقل

الصحيح، وكلاهما من الله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فليس فيها ما يحكم العقل باستحالته أو امتناعه، وإن كان فيها ما قد يحار فيه العقل مع التسليم به وله.

وهي عقيدة تحترم العقل ولا تقدسه؛ فهي وسط بين عقيدة المهملين للعقل الذي ضلُّوا باعتقاد الواحدِ ثلاثة، وبين المقدِّسين للعقل الذين عبدوه على نقصه من دون الله!

ولأجل هذا فهي عقيدة غيبية، تسلم بوجود ما غاب عن الحواس، وتعتقد وجوده، فالله غيب، والملائكة غيب، والجن غيب، والجنة والنار غيب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

وقال أنس رضي الله عنه: «الذين يؤمنون بالغيب: آمنوا بالله، وملائكته ورسله، واليوم الآخر، وجنته وناره، وآمنوا بالحياة بعد الموت؛ فهذا كله غيب»^(١).

قال ابن مسعود: «إنَّ أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره، ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب»^(٢).

وذلك أن الإيمان بالغيب حاجة فطرية، كما أن طلب البرهان حاجة فطرية.

ولهذا آمن المسلمون بعذاب القبر ونعيمه، وبالبعث والجزاء، وبرؤية الله تعالى يوم القيامة، وبالجنة والنار.

(١) تفسير الطبري، (١/ ١٠١).

(٢) أخرجه الحاكم، (٢/ ٢٨٦)، وصححه.

٤ - فطرية العقيدة ووضوحها:

عقيدة الإسلام هي الفطرة ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» ^(١).

فدلَّ هذا على أن الإسلام هو الفطرة، فلا يحتاج إلى تلقين الأبوين، أما الأديان الأخرى، فهي من تلقين الآباء والأمهات، وفي الحديث الآخر: «وإني خلقتُ عبادي حنفاءً كلَّهم» ^(٢).

ومن فطرية العقيدة: سهولتها ووضوحها، فلا عسر ولا تعقيد، ولا غموض فيها، بعيدة عن التكلف والتشدد.

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقد ترجم البخاري باب: الدين يسر، وقول النبي ﷺ: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْخَنِيفَةُ السَّمْحَةُ» ^(٣).

وقال أيضًا ﷺ: «إِنْ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ» ^(٤).

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينهى عن التكلف ^(٥).

(١) أخرجه البخاري، (١٣٨٥)، ومسلم، (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم، (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه البخاري، (١٦/١).

(٤) أخرجه أحمد، (١٨٩٧٦، ١٥٩٣٦).

(٥) أخرجه البخاري، (٧٢٩٣).

٥ - الوسطية:

عقيدة الإسلام هي الوسطية؛ لأن أمة الإسلام هي الأمة الوسط، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: خيارًا عدولًا، فهم الحق بين باطلين، وهم العدل بين جورين.

قال شيخ الإسلام: «إن الإسلام وسط في الملل بين الأطراف المتجاذبة... فالمسلمون في صفات الله تعالى وسط بين اليهود الذين شبَّهوا الخالق بال مخلوق، فوصفوا الخالق بالصفات التي تختصُّ بالمخلوق وهي صفات النقص فقالوا: إن الله فقير، وإن الله بخيل، وإن الله تعب لَمَّا خلق العالم فاستراح، وبين النصارى الذين شبَّهوا المخلوق بالخالق، فوصفوه بالصفات المختصة بالخالق فقالوا: هو الله، والمسلمون وصفوا الخالق بصفات الكمال ونزَّهوه عن صفات النقص، ونزَّهوه أن يكون شيء كفواً له في شيء من صفات الكمال، فهو منزَّه عن صفات النقص مطلقاً، ومنزَّه في صفات الكمال أن يماثله فيها شيء من المخلوقات.

وكذلك هم في الأنبياء وسط؛ فإن اليهود، كما قال تعالى فيهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وكذلك كانوا يقتلون الأنبياء، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، والنصارى غلَّوا فأشركوا بهم من هو دونهم، قال الله فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، والمسلمون آمنوا بهم كلهم، ولم يفرقوا بين أحد منهم؛ فإن الإيمان بجميع

النبين فرض واجب، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم، ومن سب نبياً من الأنبياء فهو كافر يجب قتله باتفاق العلماء، وفي استتابته نزاع، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِ بِرٍّ مِّنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وكذلك في الشرائع كالحلال والحرام؛ فإن اليهود حرّمت عليهم طيبات أحلّت لهم عقوبة لهم، وعليهم تشديد في النجاسات يجتنبون أشياء كثيرة طاهرة مع اجتناب النجاسة، والنصارى لا يحرّمون ما حرّمه الله ورسوله؛ بل يستحلون الخبائث، ويباشرون النجاسات، وكلّما كان الراهب أكثر ملابسة للنجاسات والخبائث كان أفضل عندهم، والمسلمون أباح الله لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث، وهم وسط في سائر الأمور^(١).

٦ - الإيجابية والعملية:

إن العقيدة الإسلامية ليست فقط تبني معاني أو تصورات نظرية، بل هي عقيدة إيجابية عملية متحركة، ودافعة للبذل والتضحية، فلا يقف أثرها عند مجرد التصديق النظري، بل يتعدّى ذلك ليشيئ واقعاً عملياً، فهي تربط صاحبها بعبادة مستقيمة، وبأخلاق عالية، وبسلوكيات راقية، وتوجهه الله تعالى في كل أمر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]،

(١) الرسالة الصفدية، لابن تيمية، (٢/ ٣١٠ - ٣١٣).

ويتضح أثرها في دعوة الداعية إليها، والمجاهد في سبيل تحقيقها ونصرتها، كما يظهر أثرها في انتقاد جذوة التضحية في سبيلها، قال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فهي تُنشئ في قلب معتقدها معاني عملية عظيمة الأثر والنفع.

رابعاً: محاسن الشريعة الإسلامية وخصائصها:

الشريعة التي جاء بها الدين الخاتم - لتبقى بين الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - هي شريعة تجمع بين دفتيها كل معاني الخلود والبقاء والعظمة، والإيمان والقدرة على امتداد العطاء وإصلاح الحياة والأحياء. وللشريعة خصائص تتفق وتتحد مع خصائص الإسلام ذاته؛ ذلك أن الشريعة هي الإسلام وهي الدين الذي ارتضاه الله لعباده.

إن الإسلام هو الدين، والدين هو الشريعة، فالإسلام إذن هو الشريعة. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالدين هو الإسلام.

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الحاثية: ١٨].

فالدين هو الشريعة، والشريعة هي الإسلام، وكل من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً فقد رضي بالشريعة دستوراً وآمن بها منهجاً للحياة. قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ

رسولاً»^(١).

وسوف نشير إلى طَرَفٍ من محاسنها- مما لم يذكر في خصائص الإسلام ومحاسنه السابقة- بعد التأكيد على أن خصائصها كثيرة عظيمة، تتفق وخصائص الدين الإسلامي جملة، ومن هذه المحاسن التي تختصُّ بها الشريعة الإسلامية:

١ - الصلاحية والإصلاحية:

هذه أهم خصيصة؛ لأن ما بعدها فرع عنها، وتفصيل لبعض مظاهرها. إن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، وهي مصلحة للإنسان على مرَّ الزمان وتنوع المكان، وهذا يؤكد إنسانيتها وعالميتها وشمولها وخلودها، وهي حق ووحى، ومحكمة محفوظة، وواضحة ونظرية، واتباعها فريضة والاحتكام إليها عقيدة، وردُّها رِدَّةٌ ونفاقٌ.

والأدلة على صلاحها وإصلاحها وصلاحيتها أكثر من أن تُحصَر، وأظهر من أن تُذكر، وتكفي شهادة الله تعالى وملائكته لها، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وقد قال ﷺ في حقِّها: «لقد تركتكم على مثلِ البضاءِ، ليلها كنهارها، لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ»^(٢).

وليس أدلَّ على صلاحيتها من أنها حكمت كلَّ البيئات والمجتمعات والحضارات - على تنوع الثقافات - أكثر من اثني عشرَ قرنًا من الزمان، فواجهت تنوعًا

(١) أخرجه مسلم، (٣٤).

(٢) أخرجه أحمد، (١٧١٤٢)، وابن ماجه، (٤٣)، والحاكم، (١٧٥/١).

وتفاوتًا في مجتمعات كثيرة، وتعاملت مع أنظمة متعارضة ومتباعدة، ماليًا وإداريًا وسياسيًا ومنهجيًا، وواجهت مشكلاتٍ وتحدياتٍ معقدةً، فلم يَصُقْ لها أفق، ولم تعجز عن إيجاد حلٍّ، ولم تتعثَّر في ظلِّ أحكامها الحياة، بل سعدت ونعمت، وبهذا الحق فإن الأعداء قد شهدت، والحق ما شهدت به الأعداء!

فهي حضارة إنشاء الإنسان الصالح المصلح.

قال ول ديورانت - وهو يؤرخ للحضارة وما قدَّمه المسلمون -: «قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإسلامية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله...»^(١).

وقال جورج سيل: «لقد صادفت شريعة مُحَمَّدٍ ترحيبًا لا مثيل له في العالم... وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحدِّ السيف إنما ينخدعون انخداعًا عظيمًا»^(٢).

وقال ر.ف بودلي: «لقد كان مُحَمَّدٌ على نقیض من سبق من الأنبياء؛ فإنه لم يكتفِ بالمسائل الإلهية، بل تكشَّفت له الدنيا ومشاكلها فلم يُغفل الناحية العملية الدنيوية في دينه، فَوَفَّقَ بين دُنيا الناس ودينهم، وبذلك تَفَادَى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاصَ الناس عن طريق غير عملي»^(٣).

لهذا كلُّه يتأتى القول هنا - بشهادة الواقع والتاريخ -: أنها شريعة الصلاح والإصلاح، وأنها حرب على الفساد والإفساد.

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، (٤/ ١٥٠).

(٢) الفاتيكان والإسلام، د. محمد عمارة، (ص ٦٩)، الإسلام في عيون غربية، د. محمد عمارة، (ص ٨١).

(٣) نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي، د. عز الدين فراج، (ص ٦٦).

قال تعالى على لسان بعض أنبيائه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

ولهذا أتت الشريعة بتحصيل المصالح، ودفع المفساد، وبُنيت على هذا المعنى في نصوصها وقواعدها ومقاصدها.

قال جوستاف لوبون: «فرسولٌ كهذا جدير باتِّباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته؛ إذ إنها دعوة شريفة، قوامها معرفة الخالق، والحُصُّ على الخير، والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى»^(١).

٢ - التحرُّر والحرية:

الشريعة الإسلامية وحدها هي محرِّرة العباد من ظلم وطغيان كلِّ مادية استعبدت البشرية، وهي محرِّرة العباد من أسر كلِّ شهوة مادية مالية أو سلطوية، وهي الضمان الأوحد والكفالة الحقيقية لحرّيات بني الإنسان في ممارسة حقوقهم

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، (ص ٦٧).

الشرعية، والاستمتاع بالحياة الإنسانية، والانتفاع بما وهب الله لهم مما يحقق مصلحة الأفراد، ورُقي المجتمعات، وانتظام الدول في وقت واحد^(١).

لقد سطر القرآن الكريم من مهام الرسول العظيم ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

مع تكريمه لربي آدم كلهم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].
وتحرير الإنسان من الخضوع لغيره من بني الإنسان في معصية ربه الرحمن، قال فيه النبي ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(٢)، وهذا ما ترجمه ربعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطابه لرستم حين قال: «إِنَّ اللَّهَ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمَنْ ضَيَّقَ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمَنْ جَوَّرَ الْأَدْيَانَ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ»^(٣).

والشريعة كفلت حريات غير المسلمين في ممارسة عباداتهم وشرائعهم، فلقد كتب النبي ﷺ لنصارى نجران كتاباً فيه: «... وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جَوَارُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَأَرْضِيهِمْ، وَمِلَّتِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، وَحَاشِيَتِهِمْ، وَعِبَادَتِهِمْ، وَعَائِيهِمْ وَشَاهِدِهِمْ، وَأَسَاقِفَتِهِمْ وَرُهْبَانِهِمْ وَبَيْعِهِمْ، وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ...»^(٤).

وفي عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل إيلياء: «هذا ما أعطى عبدُ الله عمرُ أميرُ المؤمنين أهلَ إيلياءَ من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم

(١) حضارة العرب، (ص ٦٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (٣٨١).

(٣) تاريخ الطبري، (٣/٥١٨).

(٤) أخرجه ابن زنجويه في الأموال، (٧٣٢).

وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها - لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتَقَص منها، ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم...»^(١).

كما عصمت الشريعة دماءهم وأموالهم، وقد قال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(٢).

وفي وصية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لخليفته من بعده، قال: «وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله ﷺ أن يُوفِّي لهم بعهدهم، وأن يقاتِل من ورائهم، وأن لا يُكَلَّفُوا فوق طاقتهم»^(٣).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا بَذَلُوا الْجَزِيَّةَ لَتَكُونَ دِمَاؤُهُمْ كَدِمَائِنَا، وَأَمْوَالُهُمْ كَأَمْوَالِنَا»^(٤).

وقال جوتييه - في كتابه (أخلاق المسلمين وعاداتهم) -: «ولقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية في فضيلة المساحة التي لم تكن تُتَوَقَّع من أناس يحملون دينًا جديدًا، وما فكَّر العربيُّ قط في أشدَّ أطوار تحمسه لدينه الجديد أن يُطفئ بالدماء دينًا منافسًا لدينه»^(٥).

ويقول توماس أرنولد: «إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية

(١) تاريخ الطبري، (٣ / ٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاري، (٣١٦٦، ٦٩١٤).

(٣) أخرجه البخاري، (١٣٩٢).

(٤) المغني، لابن قدامة، (٩ / ٢٢٣).

(٥) بينات الحل الإسلامي، للقرضاوي، (ص ٢٣٢).

الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى»^(١).

وهي شريعة ترفع الظلم عنهم بكل حال، وقد قال ﷺ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

ومن العجب أنه ولشدة عناية المسلمين بالتسامح دخل عليهم الظلم من تلك الطوائف!!

وقال دوجو فارا- صاحب كتاب (مائة مشروع لتقسيم تركيا) فيما نقله عنه الأمير شكيب أرسلان-: «إن الدولة المسيحية ظلت مدة ستة قرون (٦٩٩- ١٢٩٩هـ) تهاجم الدولة العثمانية الإسلامية رغم تسامح المسلمين، وحسن معاملتهم لرعاياها من المسيحيين، إنَّ من أعظم أسباب انحلال هذه الدولة الإسلامية هو مشربها من إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها؛ لأن هذه الأمم- بواسطة هاتين الحريتين المذهبية والمدرسية- كانت تَبُثُّ دعايتها القومية للانفصال عن السلطة العثمانية»^(٣).

كما رعت الشريعة حرية العمل والكسب المباح، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وقال ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ، وَإِنْ نَبِيٌّ اللَّهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ»^(٤).

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الاسلام، (ص ١٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود، (٣٠٥٢)، والبيهقي في السنن الكبرى، (٢٠٥/٩).

(٣) مؤامرة فصل الدين عن الدولة، لمحمد كاظم حبيب، (ص ٧٥).

(٤) أخرجه البخاري، (٢٠٧٢).

وفي الحديث أيضًا ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَغْرِسَهَا»^(١).

كما رعت الشريعة حرية الرأي بضوابطها، فأمرت بالنطق بالحق والصدق والإحسان، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا»^(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ...» الحديث^(٣).

وقال أيضًا: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(٤).

وقال أيضًا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصُمْتُ»^(٥).

وهكذا؛ فإن الشريعة حرّرت الفكر والرأي وجعلتهما ينضبطان بضابط من الدين القويم، والمسلك الكريم!

يقول جوستاف لوبون: «إِنَّ الْعَرَبَ هُمْ الَّذِينَ عَلَّمُوا الْعَالَمَ كَيْفَ تَتَّفَقُ حُرِيَّةُ

(١) أخرجه أحمد، (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد، (٤٧٩).

(٢) أخرجه مسلم، (١٦٠٧).

(٣) أخرجه مسلم، (٤٩).

(٤) أخرجه أحمد، (١١١٤٣)، وأبو داود، (٤٣٤٤)، والترمذي، (٢١٧٤)، وابن ماجه، (٤٠١١).

(٥) أخرجه البخاري، (٦٠١٨)، ومسلم، (٤٧).

الفكر مع استقامة الدين»^(١).

٣- الاجتماعية:

الشريعة الإسلامية عنوان العدالة الاجتماعية، ورعاية الألفة بين فئات المجتمع ومكونات الأسرة الواحدة رسالة الشريعة الاجتماعية، فهي تضبط الأخلاق الاجتماعية، وتحوط العلاقات بسياج من الحقوق والحريات والآداب القويمة، بحيث لا يقع جورٌ أو ظلمٌ على فئة من الفئات.

فالشريعة تبدأ بتكريم الإنسان - كل الإنسان - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال تعالى مبيناً ميزان التفاضل بين بني آدم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي رعاية العدالة والحقوق الاجتماعية يقول ﷺ: «إِنَّهُ لَا قُدْسَ أُمَّةٍ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ حَقَّهُ فِيهَا غَيْرَ مُتَعَتِّعٍ»^(٢)، فما أحسن هذا الكلام وأشرفه! وقال ﷺ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلُكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ

(١) سيكولوجيا الجماهير، لجوستاف لوبون، (ص ٢٧٦، ٤٣٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه، (٢٤٢٦)، وأبو يعلى، (١٠٩١)، وابن أبي شيبة في المصنف، (٢٢١٠٥).

مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١).

والشريعة الاجتماعية تحقق العدل والمساواة معاً بين الرجال والنساء.
فقد قال ﷺ: «إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»^(٢)، وقال أيضاً: «اسْتَوْصُوا
بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»^(٣).

وتُعنى الشريعة بالأسرة عنايةً عظيمة في بنائها وتكوينها وصِلاتها المالية والمعنوية.
قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ
وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].
وقال تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦].

وفي جماع الخير الاجتماعي يقول ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ»^(٤).
وكان من شأنه ﷺ في بيته - كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: «كان يكون في مهنة
أهله - تعني: خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»^(٥).
وغير هذا من النصوص والتشريعات الكثيرة في حق المرأة - زوجةً وبناتاً وأماً.
ولهذا وأمثاله قال تولستوي: «لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين

(١) أخرجه البخاري، (٣٤٧٥)، ومسلم، (١٦٨٨).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٦١٩٥)، وأبو داود، (٢٣٦).

(٣) أخرجه البخاري، (٥١٨٥)، ومسلم، (١٤٦٨).

(٤) أخرجه الترمذي، (٣٨٩٥)، وابن ماجه، (١٩٧٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) أخرجه البخاري، (٦٧٦، ٦٠٣٩).

الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة»^(١).

وقال ليوبولد فايس: «جاء النبي ﷺ بما لم يُسمع به من قبل من أن الرجال والنساء سواء أمام الله، وأن جميع الواجبات الدينية مفروضة على الرجل والمرأة على حد سواء، والحق أنه ذهب إلى أبعد من ذلك، فأعلن: أن المرأة شخص بملء حقها، وليس لمجرد صلتها بالرجل كأم أو زوجة، أو أخت أو بنت، وأنها لذلك من حقها أن تقتني ممتلكات، وأن تتعاطى التجارة على حسابها ومسئوليتها»^(٢).

وقال ريفيل: «لو رجعنا إلى زمن هذا النبي لَمَا وجدنا عملاً أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول؛ فالنساء مديّنات لنبيهنّ بأمور كثيرة رفعت مكانتهن بين الناس»^(٣).

٤ - الأخلاقية:

الشريعة أخلاق ربانية تنبع من عقيدة إيمانية، وممارسات شرعية، تدعو إلى معالي الأمور، وتنهى عن سفاسفها، وتجازي على الأخلاق المستقيمة في الدنيا بسعة الخير وكثرة البركة والتوفيق، وفي الآخرة بثقل الموازين، ورجحان كفة الصالحات. ومما يشهد لأخلاقية الشريعة المطهرة: أوامرها ونواهيها التي ربطت بين الأخلاق والأحكام، وبين السلوكيات والثواب والعقاب، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود: ١١٢] مع ثنائها على صاحب الخلق العظيم بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

(١) نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي، (ص ٧٦).

(٢) قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، (ص ٤٢٢).

(٣) نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي، (ص ٨٢).

وفي الحديث قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١).
 وقوله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٢).
 وقوله ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»^(٣).
 فالشريعة تقوى واستقامة وحسن خلق! وفي الحديث: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٤).
 والشريعة ترعى مكارم الأخلاق مع العدو قبل الصديق، وحال الحرب والسلام، وأخلاق الحرب في الإسلام تُبنى عن حقيقة هذه الشريعة المثالية الواقعية.
 وقال ﷺ معلماً لقائد جيشه: «... عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَحِبُّ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»^(٥).
 وفي الحديث: «مَا قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا دَعَاهُمْ»^(٦).
 ومن أخلاق الإسلام في الجهاد: الإِعْذَارُ وَالْإِنْذَارُ قَبْلَ الْقِتَالِ، قَالَ ﷺ: «وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ

(١) أخرجه البزار، (٨٩٤٩)، والبيهقي في الكبرى، (١٠/١٩١)، والقضاعي، (١١٦٥).

(٢) أخرجه أحمد، (١٠١٠٦)، وأبو داود، (٤٦٨٢)، والترمذي، (١١٦٢)، والحاكم، (١/٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٢٦)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه أحمد، (٢٧٥١٧)، والترمذي، (٢٠٠٢)، وابن أبي عاصم في السنة، (٧٨٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) أخرجه أحمد، (٢١٣٥٤)، والترمذي، (١٩٨٧)، وقال: حسن صحيح.

(٥) أخرجه البخاري، (٢٩٤٢)، ومسلم، (٢٤٠٦).

(٦) أخرجه أحمد، (٢١٠٥).

عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ؛ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلُّهُمْ الْجَزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ»^(١).

لهذا كان الجهاد والسياسة في الإسلام شديدي الارتباط بالأخلاق المستقيمة. لقد شهد منصفو الغرب بأخلاقية هذه الشريعة الربانية، وفي النقول الآتية برهان ساطع على ذلك:

قال لامبتون: «إنَّ الدين في الإسلام لم يكن منفصلاً عن السياسة، كما أن السياسة لم تكن منفصلة عن الأخلاق»^(٢).

وقال مارسيل بوازار: «السلطة في الإسلام تفرض عدداً من المعايير الأخلاقية، بينما تسمح في الطابع الغربي أن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم»^(٣).

وقال دافيد دي سانتيلانا: «لا شك أن المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسمُّ الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية،

(١) أخرجه مسلم، (١٧٣١).

(٢) الفكر السياسي عند المسلمين، لامبتون، (ص ٣٣ - ٣٤).

(٣) الإسلام في عيون غربية، د. محمد عمارة، (ص ١٩٠).

وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مرّ الدهور»^(١).

ولكمال الشريعة في هذا الجانب فلا يمكن أن تقارَن تشريعاتها مع غيرها من الشرائع الإلهية أو الوضعية - على حدّ سواء.

وعلى الصعيد العملي رَحَّبَ الأوروبيون بأخلاق الإسلام، وسماحة أهله وفضّلوا نظام حكم العثمانيين الأتراك الأخلاقي على نظام حكم أتباع دينهم من الكاثوليك، أو الأرثوذكس.

قال رودنسون: «ففي إيطاليا عبّرت كثير من الأقاليم لحكوماتها المستبدّة عن أنها تُرَحِّبُ - من كلّ قلبها - بغزو تركيٍّ مثلما فعلَ بعضُ البلقانيين المسيحيين»^(٢).

٥ - السّعة والمرونة:

الشريعة الإسلامية أوسع من كل المذاهب الفقهية، فهي نصوصٌ شرعية وقواعدٌ تأصيليةٌ ومقاصدٌ مرعيةٌ، ولها روافدٌ هائلةٌ من الاجتهادات والتراث الفقهي والمدارس العلمية منذ عصر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب الاجتهاد فيها مفتوح غير موصد دون أهله الذين يُصدَرُ عن اجتهادهم ويُنزَلُ على رأيهم! فهو اجتهاد منضبط لا فوضى فيه، ولا تسبّب، وتجديد منضبط لا دعاوى لا زمام لها ولا خطام، في الشريعة ثوابتٌ وقطعيّاتٌ وإجماعاتٌ ليست موردًا للاجتهاد، وفيها مجال رحب للاجتهادات الظنيات الفقهيات والعقوبات، وكل ما لم يرد فيه دليل

(١) القانون والمجتمع، دافيد دي سانتيلانا، دراسة منشورة في كتاب: تراث الإسلام، بإشراف توماس أرنولد،

تقلاً عن: شهد شاهد من أهلها، د. راغب السرجاني، (ص ٢٤)، دار نهضة مصر للنشر، ط ٣

(٢) الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية، دراسة منشورة بكتاب: تراث الإسلام، (ص ٥٦).

من نقل صحيح صريح، أو إجماع منعقد فهو من مسائل الاجتهاد، فلا يُثَرَّبُ على المجتهد فيها، وإن أخطأ، إذا كان الحق قصده واجتهد في طلبه، وفي التشريع مساحة للعفو المسكوت عنه للتوسعة على العباد، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتُدُوهَا، وَفَرَضَ أَشْيَاءَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرِ نِسْيَانٍ؛ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»^(١).

وجعل الفتاوى المبنية على الأعراف قابلةً للتغير بتغير هذه الأعراف، فلا يُنَكَّرُ تغَيُّرها بتغيُّر الزمان، أو المكان، أو الأشخاص، وهذا من أسرار صلاحيتها وخلودها، وملاءمتها لكل زمان.

وقد وعى عدد من الغربيين المتخصصين حقائق السعة والمرونة مع الثبات والاستمرار في الشريعة وعبروا عن ذلك.

فقال إنساباتو: «إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوروبية، بل هي التي تُعْطِي للعالم أرسخَ الشرائع ثباتًا»^(٢).

وقال د. شبرل- عميد كلية الحقوق بجامعة (فيينا)-: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها؛ إذ إنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون- نحن الأوروبيين- أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة»^(٣).

ويقرر القانوني فمبري: «أن الفقه الإسلامي واسع إلى درجة أنني أعجبُ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، (٥٨٩)، وفي الأوسط، (٧٤٦١)، وفي الصغير، (١١١١)، والدارقطني، (٤٣٩٦)، والحاكم، (١٢٩/٤).

(٢) فارس الخوري وأيام لا تنسى، محمد الفرحاني، (ص ٢٦٩).

(٣) شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، د. يوسف القرضاوي، (ص ٦٧-٦٨).

كُلَّ الْعَجَبِ كُلِّهَا فَكَثُرَتْ فِي أَنْ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَسْتَنْبِطُوا مِنْهُ الْأَنْظِمَةَ وَالْأَحْكَامَ الْمُوَافِقَةَ لَزَمَانِهِمْ وَبِلَادِهِمْ! ^(١).

خامساً: محاسن العبادة الإسلامية وخصائصها:

التقرب إلى الله تعالى بالعبادة في الإسلام هو مهمة الحياة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبالعبادة تعمّر الأرض، وتتحقّق الخلافة لآدم وبنيه في هذه البسيطة، وغاية العبادة العظمى تحصيل التقوى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

والتقوى من أسباب سعادة الإنسان في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تعالى عن الأمم والمجتمعات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

خصائص العبادة الإسلامية:

العبادة غايتها تحصيل السعادة العاجلة والآجلة، ولها خصائص كثيرة، وجوانب عديدة، نَجْتَرِئُ مِنْهَا عَلَى مَا يَلِي:

(١) الإسلام دين وعقيدة ودعوة حضارة، مقال لمحمد الشقيري، صحيفة (سبق)، ٢٦ رمضان ١٤٣٢ هـ.

١ - الشمولية:

العبادة تستوعب كل عمل يحبه الله ويرضاه، وتحول كل مباح يراد به وجه الله إلى طاعة يثاب عليها الإنسان بنيته، فهي بهذا تشمل كل واجب ومندوب أمر بهما الله تعالى كما تشمل كل مباح يتحول بالنية إلى عبادة، كما تشمل ترك كل منهجي عنه تحريماً أو كراهة بنية التقرب إلى الله بترك المنهيات.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وقال ﷺ: «وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»^(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقِنَهُ»^(٢).

وقال ﷺ: «لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٣).

وعليه؛ فإن العبادة تشمل فروض الأعيان والكفايات، والفرائض والنوافل، وشعائر النسك والأخلاق، والأعمال البدنية التعبدية، وأعمال القلب التعبدية، فالدين كله عبادة، والعبادة تسع الحياة بأنشطتها المختلفة، وجوانبها المتنوعة، متى ما قُصد بذلك وجه الله، وكان العمل من أصله مشروعاً، وأدَّى على وجه الاتباع لرسول الله ﷺ، ولم يشغل عما هو أوجب أو ألزم. فإذا كانت التجارة عبادة - مثلاً - بالضوابط السابقة؛ فإن من شرطها: ألا

(١) أخرجه مسلم، (١٠٠٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده، (٤٣٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٤٩٢٩).

(٣) أخرجه مسلم، (١٥٥٢).

تصدَّ عما هو أهمُّ منها من العبادات.

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُمْ تِجْرَةً وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

٢ - الاستمرارية:

العبادة وظيفية العمر، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].
فلا غاية زمنية تنتهي إليها حتى تبلغ الروح منتهاها، وقد وُصف نبينا ﷺ بأنه كان عمله ديمة^(١).

وكان ﷺ إذا عمل عملاً أثبته^(٢).
وكان ﷺ يقول: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ»^(٣).
وكان يقول ﷺ: «الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا»^(٤).

فالعبادات لا تنقطع بالقلب توحيداً وتعظيماً لله تعالى، ولا تنقطع باللسان ذكراً ودعاءً وصلاةً وتلاوةً، ولا تنقطع بالجوارح صلاةً في اليوم واليلة للفرائض، وما شاء الله من النوافل الرواتب وغيرها، وفي كل أسبوع جمعة، وفي

(١) أخرجه البخاري، (٦٤٦٦)، ومسلم، (٧٨٣).

(٢) أخرجه مسلم، (٧٤٦).

(٣) أخرجه البخاري، (٦٤٦٤، ٦٤٦٥)، ومسلم، (٧٨٣).

(٤) أخرجه البخاري، (٦٤٦٣).

كل سنة عيدان. وصيامًا في كل سنة شهر، وفي كل شهر ثلاثة أيام نفلًا، وفي كل أسبوع يومان (الاثنين والخميس). وزكاة كل عام مرة بشروطها، وصدقة للفطر كل عام مرة، وأبواب نوافل الصدقات بعد ذلك مُشَرَّعة. والحج والعمرة في العمر مرة فرضًا، وما عداه كان نفلًا، وهكذا لا تُترك العبادة - بمعنى شعائر التعبد والتنسك والتأله لله تعالى بل هي مستمرة كل يوم وليلة؛ من غير فتورٍ عن الفرائض، أو تهاونٍ بالواجبات، وتراجعٍ عن فعل النوافل والمستحبات، وفي هذا قال الله - في الحديث القدسي -: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»^(١). وكان ﷺ ينهى عن الإخلال بالمداومة على النافلة فضلًا عن الفريضة، فيقول - لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما -: «عبد الله، لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»^(٢).

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكِ الْمَدَلِّ تَمْشِي رَوِيدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

وهي بهذا الاستمرار تربط القلب بالرب، وتغسل عن النفس أدرانها: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ؟» قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا»^(٣).

(١) أخرجه البخاري، (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري، (١١٥٢).

(٣) أخرجه البخاري، (٥٢٨).

٣- التوقيفية:

لا تكون العبادة عبادةً حتى تكون مشروعةً، ولا تُشرع العبادة إلا عن طريق الوحي المطهر - قرآنًا وسنةً - فإن لم تكن العبادة مشروعةً فهي ممنوعة.

قال ﷺ: «لتأخذوا عني مناسككم»^(١).

وقال أيضًا: «صلُّوا كما رأيتموني أصلي»^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال ﷺ - في بيان أن العبادة المتبدعة مردودة - : «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ

أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٣).

ولهذا قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَرْنَا أَنْ نَقْتَدِيَ وَلَا نَبْتَدِيَ، وَنَتَّبِعَ

وَلَا نَبْتَدِعَ»^(٤). وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصول السنة - عندنا - : التمسك بما كان عليه

أصحاب رسول الله، والاقتراء بهم، وترك البدع؛ وكل بدعة ضلالة»^(٥).

فالأصل في العبادة الحظر والتوقف حتى يَرِدَ دليلُ الشرع المطهر؛ فمستندُ المشروعية

موافقةُ الشريعةِ المطهرة، بفهم وتطبيق الصحابة البررة، وأهل الحديث الماهرة^(٦).

(١) أخرجه مسلم، (١٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٣١).

(٣) أخرجه مسلم، (١٧١٨)، وعلَّقه البخاري، (٦٩/٣).

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد، لعبد الغني المقدسي، (ص ٢١٤).

(٥) أصول السنة، للإمام أحمد بن حنبل، (ص ١٤).

(٦) درة البيان، لمحمد يسري، (ص ٨٧).

ولا تَسَلِّمُ العبادة من الابتداع حتى توافِقَ الشرعَ في أمورٍ ستّةٍ، هي: السببُ، والقَدْرُ، والجنسُ، والصفةُ، والزمانُ، والمكانُ.

فالبدعة ما لم يشرعه الله من الدين، فكلُّ مَنْ دان بشيءٍ لم يشرعه الله فذلك بدعة، وإن كان متأوِّلاً فيه ^(١).

فكلُّ عبادة لم تستندِ إلى دليلٍ شرعيٍّ معتبرٍ، أو خالفَ مقاصدَ الشرعِ فهي بدعة، وكل عبادة حُدِّدَتْ مِنْ قَبْلِ الشارعِ فتغيَّرَ حدودُها بدعة ^(٢).

فأصل الدين أن يُعبدَ الله وحده، وأن يُعبدَ الله بما شرع، وألّا يُعبدَ بالبدع، سواء نُقلت بعقيدة أو بعمل.

٤ - الوسطية:

الوسطية في العبادة هي الحق المحمود بين طرفين مذمومين، وهي التوازن المنشود بين إفراط في العبادة ينتهي إلى غلوٍّ، وتفريط فيها يُفضي إلى تسبّبٍ وانحلال.

فالعبادة والشعائر الإسلامية وسط بين من يغلو فيها غلوَّ الرهبانية المبتدعة عند النصراني، فتتعطل معه الحياة، وتفسد الفطرة، وبين مَنْ يجعل الشعائر التعبدية هملاً لا التفاتَ إليه، اعتماداً على الجانب الأخلاقي أو الفلسفي، فتتعطل القلوب عن التأله لله بها، والأبدانُ عن القيام بواجبات عبادة ربّها.

والعبادة الإسلامية وسط فهي تُقَرُّ بحاجات الإنسان وترعاها، لكنها تقدم العبادة في أوقاتها من غير تأخير أو تعطيل.

(١) الاستقامة، لابن تيمية، (١/ ٤٢).

(٢) القواعد النافعة في تمييز البدع الواقعة، لمحمد يسري، (ص ٧٧-٨٠).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

ووازنت العبادة في أدائها بين ما يُعمل فردياً لا اطلاع لأحد عليه كالصيام، وبين ما يُعمل جماعياً بحضرة الناس كصلاة الجماعة. ووازنت العبادة الإسلامية بين رعاية وإقامة العبادات القلبية، وإقامة العبادات الظاهرة والعملية.

وهي عبادة وسطية بين من يريد من الله ولا يريد الله، وبين من يريد الله ولا يريد من الله! فهي تُعلم أربابها طلبَ مرضاة الله، وطلب ثوابه، والهرب من غضبه، ومن عقابه. وهي عبادة تعترف بحاجات الإنسان الغريزية المتنوعة؛ فتشرع النكاح، وتثيب عليه، وتفتح باب التعدد لمن احتاجه، وقدر عليه. وفي الحديث: «وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»^(١).

وقال أيضاً ﷺ: «... وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢). وهي وسطية في الإلزام والتخير، فهي تجعل من العبادة ما لا بد منه في كل حال ولا تُسقط باقي التكاليف، وفي نفس الوقت تفتح باباً للمنافسة والمسابقة في الدرجات العلا بنوافل متأكدة وراتية، وأخرى غير متأكدة، وثالثة مطلقة لمن أراد الاستزادة والترقي في مدارج الفضل والكمال: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

(١) أخرجه مسلم، (١٠٠٦).

(٢) أخرجه البخاري، (٥٠٦٣)، ومسلم، (١٤٠١).

٥- اليسر ورفع الحرج:

روح العبادة في الإسلام اليسر ورفع كل الحرج.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

وفي الحديث: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ»^(١).

وقال أيضاً ﷺ: «يُسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(٢).

ومن تيسيرها: ربط العبادات الشرعية والتكاليف بالقدرة والاستطاعة.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وفي الحديث: «صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(٣).

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وَشَرَعَتِ الرُّخَصُ عِنْدَ الْمَشَقَّاتِ؛ كَالْقَصْرِ فِي الصَّلَوَاتِ، وَالْفَطْرِ فِي الْأَسْفَارِ، وَحَالِ الْمَرْضَى. وَعِنْدَ الْخَوْفِ وَالْمَطَرِ الشَّدِيدِ وَالْوَحْلِ يُرَخَّصُ فِي تَرْكِ الْجَمَاعَاتِ.

وفي الأعذار القهرية - كالنوم، والصغر، والجهل، والنسيان، والخطأ - تُرْفَعُ آثَامُ الْأَخْطَاءِ وَأَوْزَارُ التَّقْصِيرِ.

(١) أخرجه البخاري، (٣٩).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٩، ٦١٢٥)، ومسلم، (١٧٣٤).

(٣) أخرجه البخاري، (١١١٧).

وَفَتَحَتْ أَبْوَابَ الْبَدَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ عِنْدَ التَّعْذُرِ فِي أَحْوَالٍ عِدَّةٍ؛ فَالْتِيَمُّ بِدَلِّ الْوَضُوءِ، وَالْإِطْعَامُ بِدَلِّ الصِّيَامِ.

وَلِهَذَا اسْتَقَرَّتْ فِي الشَّرِيعَةِ قَاعِدَةٌ كَلِيَّةٌ كَبْرَى، هِيَ: «الْمَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ»، وَتَفَرِّغَ عَنْهَا قَاعِدَةٌ: «إِذَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ»^(١).

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمِنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ: التَّيْسِيرُ فِي كُلِّ أَمْرٍ نَابَهُ تَعْسِيرُ

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَمَّى الدِّينَ يَسْرًا مَبَالِغَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَدْيَانِ قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ رَفَعَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْإِصْرَ الَّذِي كَانَ عَلَى مَنْ قَبْلَهُمْ، وَمَنْ أَوْضَحَ الْأَمْثَلَةَ لَهُ: أَنَّ تَوْبَتَهُمْ كَانَتْ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ، وَتَوْبَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْإِقْلَاعِ وَالْعِزْمِ وَالنَّدَمِ»^(٢).

وَقَالَ السِّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَتَخَرَّجُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ جَمِيعُ رَخَصِ الشَّرْعِ وَتَخْفِيفَاتِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ أَسْبَابَ التَّخْفِيفِ فِي الْعِبَادَاتِ وَغَيْرِهَا سَبْعَةٌ: السَّفَرُ، وَالْمَرَضُ، وَالْإِكْرَاهُ، وَالنِّسْيَانُ، وَالْجَهْلُ، وَالْعُسْرُ وَعُمُومُ الْبَلْوَى، وَالنَّقْصُ؛ فَإِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْمَشَقَّةِ؛ إِذِ الْنَفُوسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الْكَمَالِ، فَنَاسِبُهُ التَّخْفِيفُ فِي التَّكْلِيفَاتِ»^(٣).

سَادِسًا: مُحَاسِنُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ:

الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ دَعْوَةٌ إِلَى اللَّهِ وَهِيَ دَعْوَةٌ إِلَى الْحَقِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُ دَعْوَةٌ

الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].

فَهِيَ دَعْوَةٌ إِلَى اللَّهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الحج: ٦٧].

(١) الْأَشْبَاهُ وَالنِّظَائِرُ، لِلْسِّيُوطِيِّ، (ص ٧، ٨٣).

(٢) فَتَحَ الْبَارِي، لِابْنِ حَجَرٍ، (١/ ١١٦).

(٣) الْأَشْبَاهُ وَالنِّظَائِرُ، لِلْسِّيُوطِيِّ، (ص ١٦٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨].
وهي تستمد مادتها من الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾
[المائدة: ٦٧].

وهي ربانية في غايتها: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنِّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

وهي دعوة أصولها راسخة، ومنطلقاتها ثابتة، وملاحظها ظاهرة وبينة، تهدي بهدي وتقتفي أثر سيد النبيين - صلوات الله وسلامه عليه - تنشر الخير، وتشر الهدى، وتدعو إلى الصلاح، وتصنع الحياة بصبغة الإسلام، ومن معالم محاسنها تنخير ما يلي:

١ - دعوة الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص:

إذ الإيمان والتوحيد هما أول حق الله على العبيد، والعقيدة الربانية هي أول ما يُدعى إليه الناس لِتُحَرِّرَهُمْ من عبادة كل معبود من دون الله، ولتكون العبادة لله وحده بما شرع، لا بما ابتدع.

وهذه العقيدة الربانية هي عقيدة شمولية تعتني بعبادات القلب والقالب، وباستقامة الظاهر، وإخلاص الباطن، تسعى لتأصيل عرض تفاصيلها، وتفصيل الرد على مخالفاتها.

وهذه العقيدة الربانية هي عقيدة فعالة مؤثرة، فليست مجرد قول يقال، ولا دعوى تُدعى من غير فعال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ

الضِدْقُون ﴿[الحجرات: ١٥].﴾

فهي عقيدة تُحيي القلبَ بالإيمان بالله، وتشغل البدنَ بمرضاة الله، وتفتدي بالأرواح دينَ الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٣) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣].﴾

وهي عقيدة تربط بين أبنائها بوشيجة فريدة لأجلها هجر الأنبياء أوطائهم، وتركوا أرضهم وديارهم، وعاشوا غرباء مع أتباعهم، تلكم الوشيجة هي الحب في الله.

٢- دعوة الاجتماع على الاتباع:

الأصل اللّاحِظُ: أن المسلمين أمة واحدة، تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، كما يسعى بدمتهم أديانهم، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لأبيضٍ على أسودٍ إلا بالتقوى، وأساسٌ وحدة الأمة الإسلام، وتحكيمُ شريعته، على منهج أهل السنة والجماعة وأصولهم القويمة.

وعليه؛ فإن الدعوة إلى الله على منهج أهل السنة والجماعة، تعني - أول ما تعني -: الاعتصام بالسنة، والمحافظة على الجماعة؛ ف«الجماعةُ رحمةٌ، والفرقةُ عذابٌ»^(١) قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالاعتصام والاجتماع لا يكون إلا على منهج الاتّباع للنبي ﷺ:

قال شيخ الإسلام: إن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعُهُم إلا رسولُ الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند، (١٨٤٤٩)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٨٦٩٨).

ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة؛ بل كل أحدٍ من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ^(١).

والاتباع في شأن الدعوة إلى الله أمر واجب وحتم لازم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والمخالفة في ذلك مخالفة لسبيل المؤمنين وتعرض للفتنة أو العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. فسييل البدع والشبهات والضلالات من أخطر ما يهدد الحركات والدعوات، فلا يملك الدعاة في منهج الدعوة وأصولها ومسالكها إلا أن يأخذوا بسنن الهدى وأن يتجنبوا سبل الردى.

وتتأكد العناية بالاتباع في وسائل الدعوة، فلا يقلد الكفار في وسائلهم التي هي من شعار دينهم، ولا تعتمد وسيلة أهدرتها نصوص الوحي فمنعتها، أو نفرت عنها، وكل وسيلة بعد فهي مباحة، متى ما حققت المقصود الشرعي؛ إذ ليست وسائل الدعوة توقيفية بإطلاق، ولا مطلقة من كل قيد، وكما أن الغايات يجب أن تكون شرعية فالوسائل كذلك، و«الوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل»^(٢). فالحاصل أنه: «ليس للوسائل حد شرعي، فكل ما أدى إلى المقصود فهو

(١) مجموع الفتاوى، (٣/ ٣٤٦) بتصرف.

(٢) الفروق، للقرافي، (٢/ ٣٢).

مقصود، ما لم يكن منهياً عنه بعينه، فإن كان منهياً عنه بعينه فلا يُقَرَّبُ به... وليس من اللازم أن يُنصَّ الشرع على كل وسيلة بعينها، فيقول: هذه جائزة، وهذه غير جائزة؛ لأن الوسائل لا حصر لها، ولا حد لها، فكل ما كان وسيلةً لخير فهو خير^(١).

٣- دعوة التربية والتزكية:

إن الدعوة الإسلامية ليست مجرد كلمات تُلقَى أو علوم تُنشر، وإنما هي معاشية ومخالطة للخلق بالحق، وتربية للنفوس بصالح الأقوال والأعمال، وتهئية للأشبال ليرتقوا ذرى الكمال.

فالتربية دعامة مهمة في الدعوة إلى الله، وهي جزء أصيل من عمل المرسلين والصالحين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

والتربية هي التي تحوّل العقيدة المستكنة في الضمائر يقيناً إلى حقيقة سلوكية في الواقع، ترسخ معاني الألوهية في القلب، لتصبح يقيناً لا تنزله محنة وابتلاء، كما لا تغيره نعمة ورخاء، وهذه التربية تحتاج إلى ترسيخ الأخلاق، وتقويم السلوك، وتعميق الوعي، ولا يتحقق هذا إلا بعمل مستمرٍّ دائمٍ، وعزم لا يلين. وأخيراً؛ فإنه: «لا يُصلح آخر هذا الأمر إلا ما أصلح أوله»^(٢).

ولم تُر الأمة الإسلامية بحالة من الضعف كهذه الحالة اليوم، حين استبدلت شريعتها، واستوردت مناهجها، وسقطت في التبعية لأعدائها، والقيام بواجب التربية

(١) لقاءات الباب المفتوح مع فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين، (١/ ٤٤٩).

(٢) من كلام مالك. انظر: التمهيد، لابن عبد البر، (٢٣/ ١٠).

والتزكية للنفوس عامة؛ هو في الحقيقة تهيئة للأمة للمطالبة بتحقيق وتطبيق شرع الله في الأرض، وما أحسن مقولة من قال: «أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم على أرضكم!»^(١).

وإن العناية بالتربية لطائفة مخصوصة من الأمة يهيئ لها فئات فذة قادرة على البذل والعطاء، وتحقيق الآمال، والمrapطة على الثغور العلمية والعملية حماية للدين من كيد الكائدين، وعبث العابثين.

وصفوة القول: أن الواجب التربوي هو طريق الخلاص، وأُس التمكين. وللتربية أسباب ومعالم، فهي تقوم على الربانية التي تعني: تحققاً بالصلة الوثيقة بالله تعالى أداءً للفرائض، واجتناباً للمحارم، واستدامةً للذكر، وعنايةً بالشكر، وعلينا بالصبر. كما يقوم الواجب التربوي على وسطية مرعية بين الإفراط في جانب، والتفريط في جانب؛ فهي تربية توازن؛ عبادة في جهة، وعملية من جهة أخرى، إيمانية من باب، وجهادية من باب آخر.

وهي تربية إيجابية، تعني: المبادرة إلى الصالحات على وجه السداد والمقاربة لا المثالية المعقدة، وإنما الواقعية المؤثرة، وهي قصد في الأمر كله، وفي الحديث: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدَّلْجَةِ، وَالْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا»^(٢).

والخلل التربوي هو مكمُن الداء في كل إخفاقات الدعوات - إلا ما شاء

(١) من كلام الأستاذ حسن الهضيبي، ونقلها عنه الشيخ الألباني في رسالته: التصفية والتربية، (ص ٣٣)، ط: مكتبة المعارف.

(٢) أخرجه البخاري، (٦٤٦٣).

الله-؛ إذ تارة يكون بسبب ضعف التربية، وتارة أخرى بسبب عدم تدريجها، أو ضعف تكاملها، وانضباطها وجدّيّتها.

والدعوة التي لا تعتمد التربية طريقاً ومنهجاً لا تنتج في الواقع، ولا تُغير فيه- إلا ما شاء الله.

٤ - دعوة البلاغ العام الشامل المتكامل:

إن الدعوة الإسلامية تستفرغ كلّ وسع، وتبذل كلّ جهد في البلاغ العام العالمي الشامل لكل الناس، ولكل أبواب الإسلام العظيم، فليس لها زمان تنقيد به، قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

ولا تلتزم سرّاً ولا جهراً فحسب في طريق بلاغها: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَرًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨-٩].

ولا تختصّ بحال من أحوال الداعية دون حال؛ فقد قال ﷺ - في مرض موته -: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم»^(١).

ولما حضرت معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاة قال: سمعتُ رسول الله يقول: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

كما لا تختصّ بحال للمدعو دون حال، فقد دعا نبينا ﷺ غلاماً من يهود حال احتضاره فأسلم، فحمد النبيُّ الله^(٣).

(١) أخرجه أحمد، (٢٦٤٨٣)، وأبو داود، (٥١٥٦).

(٢) أخرجه ابن حبان، (٢٠٠)، والطبراني في الكبير، (٦٣).

(٣) أخرجه البخاري، (١٣٥٦).

كما أمر بالدعوة قبل لقاء العدو، وإذا اصطفوا للقتال ^(١) وكذا فعل أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين التقى أمير جيش الروم قبيل اليرموك ^(٢)، ومثله فعل عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبيل فتح مصر ^(٣).

وليس للدعوة مكان يخصصها فهي في كل مكان، فهي دعوة في القصور، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَنَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقد دعا جعفر بن أبي طالب النجاشي في بلاطه بالحبشة ^(٤). وكذا فعل عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بلاط المقوقس بمصر ^(٥). وهي تمارس أيضًا عند القبور، فكثيرًا ما وعظ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندها، وتعوذ بالله من فتنتها، ومن فتنة الدجال ^(٦).

وكما دعا رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حضرًا دعا سفرًا، ذهابًا وإيابًا، وسافر لأجل الدعوة، كما في سفره لأهل الطائف، وهاجر لأجلها، وهاجر أصحابه، كما في هجرتي الحبشة، وفي الهجرة إلى المدينة. وأرسل سفراءه بالدعوة إلى الأمصار مبلغين عنه، ودخل الأسواق بنفسه داعيًا إلى ربه.

(١) أخرجه مسلم، (١٧٣١).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، (٥٥٧/٩).

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير، (٩٨/١٠).

(٤) أخرجه أحمد، (١٧٤٠).

(٥) فتوح مصر وأخبارها، لابن أبي الحكم، (ص ٧٥).

(٦) أخرجه مسلم، (٢٨٦٧).

وهذه الدعوة شاملة كما تتجه إلى أمة الدعوة من غير المسلمين تتجه أيضًا إلى أمة الإجابة من المسلمين سواء بسواء، وكما تتقصد المنكرات العامة تتقصد المنكرات الخاصة بالإنكار، وتعتني بمنكرات العصر قبل المنكرات التاريخية التي لم تعد موجودة.

والدعوة تعتني بإبلاغ الإسلام كلّه إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومن حيث الوسائل فهي دعوة شاملة في وسائلها، فلا تقتصر على دعوة جماعية عامة، ولا تنحصر في دعوة فردية خاصة، لا تقتصر على مؤسسات خيرية، أو هيئات اجتماعية، بل كل وسيلة تحقق أهداف الإسلام ومقاصده من غير أن تعارض الشرع فهي مطلوبة.

٥ - دعوة واقعية على بصيرة:

فهي تنطلق من إدراك حاجات الواقع، ومعرفة تفاصيله التي تؤثر في مسيرة الدعوة إلى الله، وتتهيأ له بما يناسبه من الوسائل والأدوات؛ لتحقيق لها البصيرة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

ومن لم يعرف الواقع في الخلق، والواجب في الحق لم يعرف أحكام الله في عباده! يقول ابن القيم: «لا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن

والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علماً.

النوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعته في ذلك لم يَعدْ أجريْن، أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ﷺ^(١).

ومعرفة الواقع تفيد الدعوة واقعياً في إدراك السنن الربانية في الدعوة والإصلاح، وأن التغيير المرجوَّ يجب أن يمضي وفق سنن الله الجارية لا سنن الله الحارقة. وهذا يُفيد في اعتبار المراحل في الدعوة إلى الله تعالى مع التسديد والمقاربة، ورعاية التدرج في التحول من الإلف المعتاد إلى مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ. وبمراعاة جانب الواقعية في أهداف الدعوة ووسائلها وأساليبها تنضبط مسيرتها، وتنظم المصالح في مسالكها، ويتحقق الرشد، ويتنفي الاضطراب والتعثر في مراحلها.

وبإغفال هذا الأصل المهم وقعت الدعوة إلى الله في مآزق مختلفة، وعلى مستويات عدّة، فعلى سبيل المثال: قد يقال - فيما يتعلق بأهداف الدعوة -: إن هدف الدعوة هو إقامة حكم الله في الأرض، وتغيير الواقع القائم. يقال ذلك من غير تفريق بين هدف بعيد وقريب، فتتجه الدعوة صوب هذا الهدف مباشرةً باحثةً عن وسائله، و متمحورةً حول مقدماته، ومتخليةً عن أصول أخرى ومنطلقات وأعمال مهمة، مختزلةً مسألة التغيير في نحو نظام بعينه، فتمرُّ السنون فلا الهدفُ

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم، (١/١٢٨).

يتحقق ولا الواقع يتغير؛ بل ويلحق بعض الدعاء فتور؛ حيث عالج الهدف مراراً فكان نصيبه الفشل.

وممكن الخلل: أن الهدف لم تُراعَ الواقعية في رسمه ولا ظرفه، من حيث الزمان أو المكان، وكفاية العدة، ونحو ذلك.

ولو قيل: إن هدف الدعوة تعبيد الناس لربهم - جل وعلا - وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وأن هذا الهدف الشامل لا يتم إلا عبر مراحل وأهداف قريبة، تستوجب انشغالاً بالعلم والتربية، والأمر والنهي، ونحو ذلك، وتنتهي بإعلان سيادة الشريعة وهيمنتها - لكان أولى وأنفع^(١).



(١) معالم في أصول الدعوة، لمحمد يسري، (ص ١٧٤-١٧٦).



الفصل الثامن ..

قيم وحقوق رعاها الإسلام



قيم وحقوق رعاها الإسلام

القيم الإنسانية وحقوق الإنسان هي بعض ما عُيّنت به الرسالة الإسلامية، والهداية الربانية في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وإذا كان الإسلام يقوم على عقيدة وشريعة وعبادة وأخلاق ونظم تشمل جوانب الحياة بأسرها، فإنه يقوم من وراء ذلك على مجموعة من القيم الإنسانية العالية والمفاهيم الراقية، التي يتفق عقلاء البشر على حسنها وكمالها متى ما تحولت إلى روح تدبُّ في كل مناحي الحياة.

وهذه المعاني والقيم الراقية تتجلى في حقوق الإنسان التي تُظهر احترامه، وتُعلي من قدره، وتؤكد على صيانة دمه، وماله، وعرضه، وعقله، ونسله، وتثبت له على غيره - فردًا كان أو مجتمعًا أو دولة - حقوقًا يجب أن تُحترم فلا تنتهك، وأن تُقدس فلا تُدنس؛ فإلى مجموعة تلك القيم والحقوق التي تبنتها الشريعة الإسلامية في أحكامها وآدابها وأخلاقها العظيمة.

أولاً: القيم الإنسانية في الإسلام:

١ - العلم:

قرر القرآن طبيعة الإنسان: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فدفع الجهل بالعلم؛ ولذا كان القرآن الكريم - وهو كلام الله الأزلي - يقرر

هذه القيمة في أول ما نزل منه.

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وقال تعالى: ﴿تَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]؛ فهي دعوة للقراءة، والكتابة بالقلم.

وفي القرآن والسنة تعظيم للعالم لا يدانيه تعظيم، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].
وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي القرآن حربٌ شعواءٌ على الجهل البسيط وهو عدم العلم، وعلى الجهل المركب وهو العلم المغلوط، وعلى الهوى والتعصب والتقليد التي تُغيبُ عنه العلم والفهم.
فالعلم نورٌ كلُّ عقلٍ وبصيرةٍ، وهدايةٌ كلِّ فطرةٍ وسليقةٍ، والبحث عنه فريضة، ومنه: ما هو فرض على كل مسلم ومسلمة، ومنه: ما هو فرض على الأمة المسلمة بمجموعها.

وللعلوم الكونية والمادية - النظرية والتطبيقية على حدٍّ سواء - مكانةٌ في الإسلام رفيعة؛ فهي فرض على مجموع الأمة؛ لتجد كفايتها في شئون عمارة الكون والحياة من علوم وفنون.

ومن أعجب ما في هذا الباب من توافقات: أن العلم النظري والتطبيقي ما اتفق على حقيقة مسلمة إلا وأيدها الوحي ولم يعارضها بحال! واتفقت البراهين وتضافرت، واجتمعت الحجج وتعانقت لتؤكد أن الإسلام هو دين الحق، الذي

لا تعارض فيه ولا تناقض بحال، ومن أجل هذا عني علماء المسلمين بقضية الإعجاز العلمي التجريبي في القرآن والسنة.

فليس بين حقائق الكون المنظور، وبين آيات الكتاب المسطور من تصادم، أو تناقض، قال تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

يقول الفونس إيتان دينيه: «لقد رفع محمد ﷺ العلم إلى أعظم الدرجات، وجعله من أول واجبات المسلم»^(١).

٢- العدل:

إعطاء كل ذي حق حقه ومستحقه - من غير بخس ولا شطط - هو العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾ [النحل: ٩٠].
وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وبإقامة العدل تصلح الدول وينتظم شأنها، وتقوم المجتمعات ويتعظم ازدهارها، ويرتقي الأفراد في سلم الحضارة والرفق الإنساني.

والإسلام هو عدل الله بين عباده، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

والعدل هو كلمات الله المقدسة التي تقيم القسط بين الخلق، قال تعالى:

(١) نقلاً عن بيانات الحل الإسلامي، للدكتور القرضاوي، (ص ٢٢).

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

فلا مجال لفروق بين البشر؛ تجعل ميزان العدل يميل هنا أو هناك، قال تعالى:

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقِمُ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر

على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»^(١).

وقيمة العدل سارية في علاقة المسلم بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بمن

حوله، فالتوحيد هو حق الله على العبيد، وهو حقيقة العدل في علاقة المسلم بالله،

كما أن الشرك هو أعظم الظلم - عيادًا بالله - : ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والجور على النفس منهي عنه، وبالعدل أمر الإنسان فيما بينه وبين نفسه، وفي

الحديث: «إِنْ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢).

وظلم النفس يكون بارتكاب ما نهى الله عنه فيما بينه وبين عبده من أمانة

العبادة، والتكاليف الشرعية.

والعدل بين الخلق من أعظم المقصود، فهو بين الزوجات، قال تعالى: ﴿فَإِنْ

خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

ومأمور به بين الأولاد، ففي الحديث: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»^(٣).

(١) أخرجه أحمد، (٢٣٤٨٩) والطبراني في الأوسط، (٤٧٤٩).

(٢) أخرجه البخاري، (٦١٣٩).

(٣) أخرجه البخاري، (٢٥٨٧)، ومسلم، (١٦٢٣).

وقد جمع نبينا ﷺ أنواع العدل كلها؛ فقد قال سلمان رضي الله عنه: «إنَّ لربِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا؛ فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: صَدَقَ سَلْمَانُ»^(١).

والعدل مأمور به - قولاً وفعلًا -، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].
والعدل واجب مع الأحاب والاباعد، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وليس أدل على هذا المعنى من شهادات المنصفين من المتخصصين غير المسلمين:
قال المفكر إدموند بيرك: «إن القانون المُحمَّدِيَّ قانون ضابط للجميع من المَلِكِ إلى أقلِّ رعاياه، وهذا القانون يُسَجَّ بأحكم نظام حقوق، وشرعة الإسلام هي أعظم تشريع عادل لم يسبق قط للعالم إيجاد مثله، ولا يمكن فيما بعد»^(٢).
وكما جرى العدل في العلاقة مع البشر فهو أيضًا جارٍ في العلاقة مع الحيوانات العجماوات فيدلُّ على الإحسان والرحمة في التعامل معها^(٣).
والإسلام هو محرِّرُ البشرية ومخلِّصُها من العبودية لغير ربِّ البرية، إنها الحرية التي ترفع وتدفع عن الإنسان كلَّ قهرٍ وذلٍّ في هذه الحياة، وتجعله عبدًا لله دون من وما سواه!
إنها حرية دينية واعتقادية وشعائرية منضبطة بما لا يُحيلها إلى فوضى عارمة، أو إكراه

(١) أخرجه البخاري، (١٩٦٨).

(٢) مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد ٥٥٩، مقال: عبقرية محمد ﷺ العسكرية، محمد عبد الشافي.

(٣) الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل، د. محمود البابلي، (ص ٥٣).

مستبد، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولا إله إلا الله كلمة الحرية الخالدة، ومفتاح الانعتاق من كل استبداد واستعباد، فلا تجبر ولا تكبر ولا تأله، في الأرض لأحد دون ربّ البشر - جل في علاه.

فلا أرباب مع الله ولا أرباب من دون الله، ولا إله إلا الله، والحرية روح الشريعة في أحكامها الخاتمة والناسخة لما سبقها من شرائع وأحكام، يقول الله تعالى عن شريعة النبي ﷺ المحررة من القيود والآصار والأغلال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والحرية روح النظام السياسي الإسلامي؛ فالطاعة فيه لله ولرسوله أولاً، ولن أطاعهما من الولاية ثانياً، قال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، وقال ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١).

والحرية مكفولة في الاختيارات السياسية للإنسان، ولقد شارك في هذه الاختيارات الكبار والصغار، الرجال والنساء، وقد تجلّت في حياة النبي، وعهد الخلافة والخلفاء الراشدين، فلما تقلّصت مساحتها ضعّف النظام السياسي بقدر تقلّصها. والحرية دعامة النظام الاقتصادي الكبرى، فالطبيات حلال كلّها، يتخير منها الإنسان ما شاء، والنشاطات الاقتصادية مباحة كلّها ما دامت نافعة غير مضرّة، طيبة غير خبيثة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (٣٨١).

وقال تعالى: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال ﷺ: «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(١).

لكن الحرية الاقتصادية منضبطة بضوابطها التي تحافظ على النفع، وعدم الضرر، والكسب الطيب دون الخيث، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وفي الحديث قال ﷺ: «لَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ»^(٢)، وقال أيضًا ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ»^(٣).

وإذا ثبت أن المرأة كانت مضطهدة بشكلٍ أو بآخر قبيل الإسلام، فإن الإسلام قد حرَّرها من كل رقٍّ، وردَّ إليها كرامتها، واعتبارها المفقود- اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا-، وكرَّمها إنسانةً وأمًّا وبتًّا وزوجةً، ثم اعترف بها عالمةً وفقيةً، وتوجَّها على عرش الفضل مربيةً لأجيال الأمة.

ومن غير استطراد فهذه شهادة منصف من غير أهل الإسلام:

(١) أخرجه أحمد، (١٧٧٦٣)، وابن حبان، (٣٢١٠)، والطبراني في الأوسط، (٣١٨٩)، والحاكم، (٢٣٦/٢).

(٢) أخرجه البخاري، (٢١٣٩).

(٣) أخرجه أحمد، (٩٠٣١)، والحاكم، (١١٥/٤).

يقول فروم دريسمان: «لقد كانت دعوة مُحَمَّد ﷺ إلى تحرير المرأة السبب في نهوض العرب، وقيام مدنيّتهم»^(١).
وهذه شهادة أخرى منصفة:

تقول إيفلين كوبولد: «لما جاء الإسلام رَدَّ للمرأة حريتها، فإذا هي قسيمة الرجل، لها من الحق ما له، وعليها ما عليه، ولا فضلَ له عليها إلَّا بما يقوم به من قوة الجَلَد، وبسطة اليد، واتساع الحيلة»^(٢).

٣- العمل:

العمل في عمارة الأرض بعبادة الربِّ فرضٌ وقيمةٌ في الإسلام، والعمل قد يكون عبادةً ونسكًا، وقد يكون إنشاءً في الأرض وتشبيدًا لمعالم الحضارة، وقد يكون قيادةً وريادةً وحكمًا بين الخلق، وكل ذلك عمل، وكل ذلك عبادة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

فالعمل - بهذا الاعتبار - عبادةٌ تُحقق مقاصدَ الخالق من الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فهذا الشمول في فهم العبادة والعمل من الأهمية في الإسلام بمكان. وفي كل عمل يعمل به المسلم هو مأمور فيه بالإتقان والإحسان، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(٣).

(١) نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي، (ص ٨٢).

(٢) قالوا عن الإسلام، (ص ٤٣٢).

(٣) أخرجه مسلم، (١٩٥٥).

وقال أيضًا: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتِقَنَهُ»^(١).

وكل عمل يعملهُ المسلم في الدنيا يجد عاقبته في الآخرة ولا بد!

قال تعالى: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فيثاب الإنسان على الخير ولو كان مما يفوت النفع به: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا تَقَوَّمَ السَّاعَةَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ»^(٢).

وكل عمل مشروع من أعمال الدنيا يَكْفُ الإنسان عن السؤال، ويُمكنهُ من القيام على شأن مَنْ يعول؛ فهو عمل مبرور وكسبه طيب.

وفي الحديث: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحِزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيَكْفُ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»^(٣).

والعمل في عمارة الدنيا وتحصيل أسباب القوة فيها من أعظم العمل، سواء أكانت القوة عسكرية، أم اقتصادية، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقد اعتبر الجهاد من أفضل الأعمال، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أحب إلى الله ﷻ؟ قال: «صل الصلاة لمواقيتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله»، ولو استزده لزدني»^(٤).

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده، (٤٣٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٤٩٢٩).

(٢) أخرجه أحمد، (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد، (٤٧٩).

(٣) أخرجه البخاري، (١٤٧١).

(٤) أخرجه أحمد، (٣٩٩٨) والطبراني في الكبير، (٩٢١٨).

وقد نصّ القرآن على أعمال كثيرة، وكذا السنة المطهرة؛ ففي مهنة الرعي قال تعالى: ﴿وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤]، وفي الحديث: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»^(١).

وفي مهنة الصيد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النحل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦].

وفي صناعة الأسلحة والدروع قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ الْهَدِيدِ ۝ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتْ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠-١١].

وقال ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده»^(٢). وعليه؛ فقد عمل النبي وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الغني منهم والفقير، الكبير والصغير، الشريف والوضيع.

ولهذا تميزت قيمة العمل في الإسلام بالتقدير العالي وحفظت على المجتمع توازنه. يقول جوستاف لوبون: «لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدّى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب، ولا يزال يؤدي!»^(٣).

(١) أخرجه البخاري، (٢٢٦٢).

(٢) أخرجه البخاري، (٢٠٧٢).

(٣) حضارة العرب، (٣٩١).

وقال مسيو لويلد: «صان المسلمون أنفسهم - حتى الآن - من مثل خطايا الغرب الهائلة فيما يَمَسُّ رفاهية طبقة العمال، وتراهم يحافظون بإخلاص على النظم الباهرة التي يساوي بها الإسلام بين الغني والفقير، والسيد والأجير على العموم، وليس من المبالغة أن يقال - إذاً -: إن الشعب الذي يزعم الأوروبيون أنهم يرغبون في إصلاحه هو خير مثال في ذلك الأثر الجوهري»^(١).

٤ - التآخي:

الإخاء قيمة إنسانية معروفة في المجتمعات البشرية، وله في الإسلام دوائر ومستويات متعددة!

فَأَخَصُّ دوائر التآخي والولاء هو: التآخي على الإسلام والإيمان، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي الحديث قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»^(٢).

وفي الحديث - أيضاً - قال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(٣).

وهناك دوائر أعمُّ للتآخي بين بني قبيلة، أو بلد، أو وطن، أو قوم معينين.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

(١) حضارة العرب، (٣٩٢).

(٢) أخرجه البخاري، (٢٤٤٢)، ومسلم، (٢٥٨٠).

(٣) أخرجه البخاري، (٤٨١، ٢٤٤٦)، ومسلم، (٢٥٨٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿[نوح: ٢-٣].

فهذه أخوة في جنس، أو لغة، أو وطن، وهي علاقة تُنشئ بين الناس حقوقاً للجوار والمساكنة في الدار، بالإضافة إلى ما يكون من حقوق أرحام ومصاهرة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب، وقد يُعبر عنها بكلمة: المواطنة، أو الجنسية في النظم العصرية.

وهناك الدائرة الأعم وهي الانتساب إلى البشرية، وإلى أبيها الأول آدم عَلَيْهِ السَّلَام، وفيها يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفي الحديث قال ﷺ: «والناس بنو آدم، وآدم من تراب»^(١).

وهي أخوة تُنشئ احتراماً للنفس البشرية وتكريماً لها، جعل النبي ﷺ يقوم لجنائز غير المسلم.

وهذه الدوائر الثلاث من التأخي تجعل من قيمة الولاء بين المؤمنين عبادة من أعظم العبادات، وعلاقة من أسمى العلاقات من المحبة والنصرة. وتُنشئ علاقة دون ذلك بين المسلم وبني قومه ممن ليسوا على الإسلام تقوم على الإحسان، وبذل الخير، وإشاعة المعروف والنهي عن المنكر، وحفظ المصالح

(١) أخرجه أحمد، (٨٧٣٦)، وأبو داود، (٥١١٦)، والترمذي، (٣٩٥٦)، وقال: حسن غريب.

المشتركة في الوطن أو الدار.

ثم تُنشئ علاقةً بين المسلم وبني آدم ممن هم على غير ملته، تقوم على التعارف لا التناكر، والتفاهم لا التدابر، والدعوة إلى الخير، من غير أن تُفضي هذه العلاقة أو التي قبلها إلى محبة دينية، أو تحسين لما عليه المخالفون في أصل الدين، أو اشتراك في أعمال جاهلية، أو ولاءات غير شرعية!

ثانيا: حقوق الإنسان في الإسلام:

لم يعرف العالم المعاصر تقنياً أو تنظيمياً لما يُسمّى بحقوق الإسلام قبل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م، والذي تبعته إعلانات أخرى ومواثيق دولية عمرها لا يتجاوز في الأكثر خمسة عقود.

وقبل تلك الإعلانات العالمية سبقت إلى ذلك الرسائل الإلهية التي ضبّطت تصرفات البشر لقرون متطاولة، ولما كان الإسلام آخر تلك الشرائع فقد اكتملت فيه منظومة الحقوق؛ لأنه دين الحق، ولأنه المحفوظ بإذن الحق سبحانه من الزيادة والنقصان.

والأديان تنطلق في الجملة من أصول واحدة فيما يتعلق بالإنسان، لكنها تتفاوت في التشريعات، وتتغاير مع تلك المواثيق في عدد من المنطلقات والتقنيات، وفيما يأتي حديثٌ عن أهم تلك الحقوق بإيجاز مع إشاراتٍ للمقارنة بين الإسلام وغيره من الأديان، أو المواثيق الدولية المعاصرة.

وبادئ ذي بدء؛ فإن كلمة: (الحق) وما تصرّف منها وردت في القرآن في مائتين وثلاثة وثمانين موضعاً، وفي السنة النبوية أضعاف هذا العدد، والحقوق في

لسان الشريعة المطهرة هي «ما ثبت في الشرع للإنسان، أو لله تعالى على الغير»^(١).

والحقوق في الإسلام على أربعة أقسام:

أولاً: حق الله الخالص.

ثانياً: حق العبد الخالص.

ثالثاً: ما اجتمع فيه الحقان وحق الله غالب.

رابعاً: ما اجتمع فيه الحقان وحق العبد غالب.

- وحق الله الخالص، مثاله: العبادة؛ فلا يشركه فيها أحد سواه.

- وحق العبد الخالص، مثاله: الدية؛ فيملك العبد إسقاطها برأيه.

- ما اجتمع فيه الحقان وحق الله غالب، مثاله: حدُّ القذف؛ فلا يملك العبد

إسقاطها وإن كانت شرعت لاستيفاء حق العبد، وحق الرب.

- ما اجتمع فيه الحقان وحق العبد غالب، مثاله: القصاص؛ فإن عفا عنه

العبد، جاز لولي الأمر أن يوقع عليه العقوبة الرادعة لحق الله تعالى.

وهذه المزاوجة بين الحقين لا تعرفها الشرائع الوضعية، ولا المواثيق الدولية

التي جعلت الحقوق خاصة بالأفراد، أو بالمجتمعات فحسب!

فالقوانين لم تعط حق العفو في جريمة القتل لأولياء المقتول كما فعلت الشريعة

الغراء، في حين أنها جعلت جريمة الزنا حقاً خالصاً للفرد الذي هو الزوج فقط،

فلا تُسمع الدعوة إلا منه! وله أن يعفو، فيوقف تنفيذ الحكم!

(١) النظريات العامة للمعاملات في الشريعة الإسلامية، د. أحمد فهمي أبو سنة، (ص ٥٠).

ووثائق حقوق الإنسان في الإسلام كثيرة أهمها ثلاثة:

١ - وثيقة المدينة بين المسلمين وسكان المدينة.

٢ - وثيقة صلح نجران.

٣ - وثيقة خطبة الوداع.

فهذه موثيقتان نبوية ثلاثتان تنضم إلى جملة الآيات المهمة في هذا الباب، ومما امتازت به الشريعة الغراء أنها تخرج بين الحقوق والواجبات في منظومة متكاملة، وعلى أساس مما تقدّم يمكننا أن نعرض صور هذه التلازم بين واجبات الإنسان وحقوقه في منهاج الإسلام، على النحو التالي:

١ - واجب الإنسان تجاه ربه وخالقه:

إخلاص العبودية لله تعالى وحده وعدم الشرك به، هذا يبعث في النفس الإنسانية أعلى مراتب الإحساس بالحرية والمساواة مع الغير، أي: أن واجب العبودية لله وعدم الشرك به ينشئ للإنسان حقين أساسيين في الحياة:

الأول: حق التحرر من العبودية والذلة لغير الله.

والثاني: حق المساواة مع بني البشر.

٢ - واجب الإنسان تجاه والديه وأقاربه:

ومن ذلك: طاعة الوالدين والإحسان إليهما والبرُّ بهما، والسهرُّ على خدمتهما وراحتهما، ورعايتهما وبذل كل ما تحتاج إليه العناية بشيخوختهما، وهو ما يجب أن ينشئ الإنسان لأجله أعمالاً كثيرة، وهو ما يجب أيضاً أن يربي الإنسان أبناءه وبناته عليه؛ فيتعين أن يكون للوالدين حق الطاعة في غير معصية الله، وحق الإكرام والمودة، وحق الرعاية والنفقة.

٣- واجب الإنسان تجاه أسرته:

والأسرة في الإسلام هي الزوجة والأبناء من ذكور وإناث، فأماً واجب الإنسان تجاه زوجته؛ فإن الإسلام يوجب احترام الزوجة والبرَّ بها، وعدم إهانتها، ويطلب الإنفاق عليها في غير تبذير ولا تقتير؛ كما يطلب توفير كل ما تحتاجه متطلبات الحياة بحسب طاقته وقدرته، ولا يكلفها المشاركة في الإنفاق إلا برضاها؛ وعلى الرجل إذا تزوجها أن يحترم أموالها وممتلكاتها، وألا يعتدي عليها.

وهذا ينشئ للمرأة حقاً على الرجل؛ فمن هذا:

- حق الرعاية والاحترام والإنفاق.
- حق الاحتفاظ بأموالها وممتلكاتها لصالحها الشخصي.
- حق تنمية أموالها بالتجارة وغيرها من وسائل الاستثمار.
- حق المشاركة في مسئولية رعاية الأسرة.
- وهذا ينشئ بالمقابل للرجل على المرأة حقوقاً، منها:
- احترامه وطاعته بغير معصية الله.
- ألا تخونه في نفسها وماله.
- أن تشاطره مسئولية رعاية الأسرة.

وأما واجب الإنسان تجاه أبنائه؛ فقد رأينا الإسلام يوجب على الأب حسن اختيار الزوجة الصالحة التي ستصبح أماً لأبنائه، وحسن اختيار الاسم الكريم، وحسن التربية والتنشئة لابنه، وحسن إعداده للحياة، وتحمل المسئولية، والتخلق بقيم العدل والمساواة.

وهذا ينشئ للأسرة على الأبناء حقوقاً كثيرة، منها:

- حق الطاعة والبر ورعاية الوالدين.

- حق المحافظة على شئون الأسرة.

٤ - واجب الإنسان تجاه ولاية الأمر:

الإسلام يوجب على المسلم السمع والطاعة للحاكم المسلم في غير معصية الله تعالى؛ كما يوجب النصيح له وإعانتته على مسئولياته في تحقيق مصالح الرعية، وعدم الخروج على سلطانه، أو التمرد على أوامره إلا إذا نقض العهد مع الله والأمة فأخل بأركان عقد الولاية أو فقد شروطها، مع تحري مصلحة الأمة في ذلك؛ لأن مصلحة الأمة شرط مرجح في هذا الأمر.

وهذا ينشئ للرعية على الحاكم حقوقاً، منها:

أ- حق المحافظة على عقيدة الأمة وهويتها الثقافية والفكرية، والعمل على بنائها حضارياً.

ب- حق إقامة العدل بين الناس.

ج- حق حماية مصالح الرعاية.

د- حق حماية السيادة العامة للأمة.

هـ- حق تحقيق الأمن العام للأمة.

و- حق المساواة بين أبناء الشعب.

ز- حق السهر على حياة الناس.

ح- حق توفير أسباب الحياة الكريمة الآمنة... إلى آخر هذه الحقوق.

٥- واجب الإنسان تجاه المجتمع:

يتمثل واجب الإنسان تجاه مجتمعه في ميادين متعددة، نوجزها فيما يلي:

أ- واجب السهر على أمن الأمة العام؛ فكل مسلم رجلٌ آمنٌ يتحمل مسؤولية السهر على حماية أمن الأمة كلها، كلٌّ في مجال اختصاصه؛ وفي هذا يقول النبي ﷺ: «كلُّ رجلٍ من المسلمين على ثغرةٍ من ثغرةِ الإسلام؛ اللهَ اللهُ أَنْ يُوْتَى الإسلامُ مِنْ قَبْلِهِ»^(١).

ب- واجب التنمية الزراعية، وعدم قطع الأشجار المثمرة وغيرها إلا لحاجة ملحة، مع العمل على إثراء الثروة الزراعية؛ حيث يقول النبي ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَغْرِسَهَا»^(٢).

ج- واجب التنمية الصناعية؛ حيث يؤكد النبي ﷺ على ذلك بقوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقِنَهُ»^(٣).

د- واجب التنمية التجارية.

هـ- واجب بذل الجهد للتعلم: وهذا في قول رسول الله ﷺ: «طَلِبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»^(٤).

و- واجب البحث العلمي: وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة، (٢٨١٣/١)، وإسناده مرسل حسن.

(٢) أخرجه أحمد، (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد، (٤٧٩).

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده، (٤٣٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٤٩٢٩).

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير، (٢٢)، وفي الأوسط، (٨٣٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان، (١٥٤٥).

ز- واجب بذل الجهد لاستثمار مكنونات الأرض، وفي هذا يقول الله تعالى:
﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ح- واجب المحافظة على البيئة وعدم إفسادها، وهذا في قول الله تعالى: **﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾** [الأعراف: ٥٦]، وكما في قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون بابا، فأدناه إمطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله»^(١).

ط- واجب المحافظة على أموال الآخرين، وفي هذا قول الله تعالى: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾** [البقرة: ١٨٠]، وقوله ﷺ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»^(٢).

ي- واجب تحقيق التضامن الاجتماعي، وهذا في قوله ﷺ: «ما آمن بي مَنْ باتَ شبعانَ وجارُهُ جائعٌ إلى جنبِهِ، وهو يَعْلَمُ بِهِ»^(٣).

ك- واجب محاربة المخدرات والمسكرات، كما في قول الله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾** [المائدة: ٩٠]، وكما في قوله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»^(٤).

ل- واجب العمل على إشاعة المحبة بين الناس، وحب الخير لهم، كما في قوله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِهِ»^(٥).

(١) أخرجه أحمد، (٩٧٤٨) والترمذي (٢٦١٤) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري، (٦٧)، ومسلم، (١٢١٨).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، (٧٥١).

(٤) أخرجه البخاري، (٤٣٤٣)، ومسلم، (١٧٣٣).

(٥) أخرجه البخاري، (١٣)، ومسلم، (٤٤).

م- واجب احترام الأقليات غير المسلمة في المجتمع المسلم؛ حيث يقرّر الإسلام لها حقوقها كحق الاعتقاد والعبادة، وحرية احتكامهم إلى شرائعهم في قضاياهم الشخصية.

٦- واجب المسلم تجاه المجتمعات الدولية:

يقرر الإسلام المبادئ العامة الآتية:

أ- الأصل الواحد للبشرية؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ب- التعارف والتعاون على كلّ ما يحقق الخير للمجتمع؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ج- تكريم النفس البشرية- بصرف النظر عن الانتماء القومي، أو العرقي، أو الديني، أو اللوني- كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وفي هذا الصدد يمكن أن نذكر بمثلين عمليين:

- كان النبي ﷺ جالساً مع بعض أصحابه فمرت بهم جنازة، فقام لها النبي ﷺ إجلالاً واحتراماً؛ ف قيل له: إنها جنازة يهودي، فقال ﷺ: «أليست نفساً؟!»^(١) وهذا يدل على احترام الإنسان لذاته دون تمييز.

- وعن صلة بن زفر قال: «أَبْصَرَ عُمَرَ شَيْخًا، يَسْأَلُ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: لَيْسَ لِي مَالٌ، وَأَنَا تُؤْخَذُ مِنِّي الْجَزِيَّةُ- قَالَ: وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ- فَقَالَ عُمَرُ: مَا

(١) أخرجه البخاري، (١٣١٢)، ومسلم، (٩٦١).

أَنْصَفْنَاكَ إِنْ أَكَلْنَا شَيْبَتَكَ، ثُمَّ نَأْخُذُ مِنْكَ الْجِزْيَةَ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى عَمَلِهِ أَلَّا يَأْخُذُوا الْجِزْيَةَ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ^(١).

د- احترام حياة الإنسان وعدم الاعتداء عليها؛ كما في قول الله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

هـ- واحترام العهود والمواثيق بين الناس؛ كما في قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ولقول الله -أيضاً-: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

وقد رأينا أن الإسلام يحترم هذه المواثيق الدولية، وفي التاريخ شاهد ذلك.

و- إقامة العدل حتى مع وجود الخصومة والعداوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ز- احترام الجهود الخيرة للآخرين، وعدم التقليل من شأنها؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

خلاصة القول:

إن منهاج الإسلام يمتاز بالتكامل والشمول الذي يُقيم المعادلة المتوازنة والمحكمة بين واجبات الإنسان وحقوقه؛ فمنهاج الإسلام عندما يقرّر ويؤكد على غرس وتنمية روح المسؤولية عند الإنسان، ثم يرتقي بقيمة هذه المسؤولية في

(١) أخرجه ابن زنجويه في الأموال، (١٦٥).

النفس البشرية ويجعلها ثمرة التكليف والتشريف الرباني للإنسان، أيًا كان هذا الإنسان، أو أيًا كان هذا الآخر، حتى ولو كان حيوانًا أو نباتًا !

ثالثًا: حقوق الأطفال والأبناء في الإسلام:

الأسرة هي الدعامة الأولى في بناء المجتمع، ومن ثم فحصول الإنسان في الدولة على حقوقه يمثل اللبنة الأولى في استيعاب أهمية الحقوق وأدائها إلى أهلها، ولبنة الأسرة الأهم هم الأطفال، وحقوق الأطفال يجب أن تقدّم على حقوق الوالدين لضعفهم وصغرهم واحتياجهم إلى الرعاية، ومن عجيب الأمر: أن يؤكد نبينا على حقوق الأبناء على الآباء في مجتمع لم يكن يرى الولد إلا عبدًا لوالده! قد روي في الأثر: «كما أن لوالديك عليك حقًا كذلك لولدك»^(١)، وفي الحديث: «... بِرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ...»^(٢).

وفيما يلي عرض لأهم حقوق الطفل في الإسلام:

١ - حق الطفل والولد في حسن اختيار أبويه:

فحقُّ للولد على والديه أن يحسنا اختيار بعضهما لولدتهما.

فعن معقل بن يسار أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: «إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: لا، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال: تزوّجوا الودود الولود؛ فإني مكاثّر بكم الأمم»^(٣). فالرجل العقيم والمرأة العقيمة لا ينتج عنهما الطفل الذي نبحت حقه.

(١) كنز العمال، للهندي، (٤٥٤٩٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، (١٠٠٢)، والحاكم، (٢٦٥/٤) وصححه.

(٣) أخرجه النسائي، (٣٢٢٢٧)، والطبراني، (٥٠٨)، والحاكم، (١٧٦/٢)، وصححه.

وقد عُنيَت الشريعةُ ببيانِ صفةِ المرأةِ التي تُخطَبُ، والرجل الذي ينكحُ، فأفاد النبي ﷺ بأولوية ذات الدين، فقال: «... فَاظْفَرُوا بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ»^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ، وَانكِحُوا الْأَكْفَاءَ، وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ»^(٢).
ذلك أن الناكح غارِسٌ فليتخير الأرض الطيبة، وقد نظم بعض الفقهاء والأدباء صفات المرأة التي تُنكحُ، فقال:

صفاتٌ مَنْ يَسْتَحِبُّ الشَّرْعُ خِطْبَتَهَا جَلَوْتُهَا لِأُولَى الْأَبَابِ مَخْتَصِرًا
صَبِيَّةٌ، ذَاتُ دِينٍ، زَانِهٌ أَدَبٌ، بَكْرٌ، وَدَوْدٌ، وَلَوْدٌ، حَكَتْ فِي نَفْسِهَا الْقَمَرَا
غَرِيبَةٌ، لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ خَاطِبِهَا؛ تِلْكَ الصِّفَاتُ الَّتِي أَجْلُو لِمَنْ نَظَرَا

وقد ردَّ النبي ﷺ نكاح المرأة التي كرهت اختيار أبيها^(٣).

٢ - حق الطفل جنيناً في الحياة والحفاوة به:

تَظْهَرُ رعايةُ الشرعِ للجنينِ في حمايته من أن يعتدي عليه أحدٌ، فقد رَخَّصَ لوالدته في الفطرِ لأجل مشقة الحملِ، وأَجَلَ النبيُّ الحدَّ على مَنْ زنت فجاءت بطفلٍ حتى تضعه، ثم حتى تَفْطِمَهُ، فكان هذا حمايةً للطفل، ولحقه في الحياة من غير مضارَّةٍ ولا إضرارٍ.

والحفاوة بالطفل حقٌّ له، وغريزة في قلوب الآباء؛ ولذا سأل الأنبياءُ ربَّهم طيبَ الذرية، قال تعالى: ﴿هَٰذَا لَكَ دُعَاؤُكَ رَبَّهِ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

(١) أخرجه البخاري، (٥٠٩٠) ومسلم، (١٤٦٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه، (١٩٦٨)، والحاكم، (١٧٦/٢)، والبيهقي، (١٣٣/٧).

(٣) أخرجه البخاري، (٥١٣٨).

وقد سنَّ النبي ﷺ التحنيك للصغير عقب ولادته^(١) والعقيقة عنه عند سابعه^(٢). وكان ﷺ يحتفي بأولاده وأولاد بنته الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ويلاعبهما ويلاطفهما كثيراً، وربما صلى حاملاً أُمَامَةَ بنتَ زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(٣). وربما لقي ﷺ الصبيان في طرق المدينة فيسلم عليهم^(٤).

٣- حق الطفل في حسن التسمية والانتساب لأبويه:

لقد عُني الإسلام بهذا الحق وأكد عليه النبي ﷺ قولاً وفعلاً، وفي الحديث: «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»^(٥).

وكان لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنت تسمى عاصية، فسماها النبي ﷺ جميلة^(٦). وقد غيَّر النبي ﷺ أسماء كثيرة؛ كحزن^(٧)، والعاص^(٨)، وعزيز^(٩)، وشيطان^(١٠)، والحكم^(١١)، وشهاب فسماه هشاماً^(١٢)، وسمى حرباً سلماً^(١٣). وحرَّم الإسلام الانتساب لغير الوالد، وفي الحديث: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ -

(١) أخرجه البخاري، (٥٤٦٨).

(٢) أخرجه البخاري، (٥٤٧١).

(٣) أخرجه البخاري، (٥١٦)، ومسلم، (٥٤٣).

(٤) أخرجه مسلم، (٢١٦٨).

(٥) أخرجه مسلم، (٢١٣٢).

(٦) أخرجه مسلم، (٢١٣٩).

(٧) البخاري، (٦١٩٣، ٦١٩٠) عن ابن المسيب: «أن أباه جاء إلى النبي ﷺ فقال: ما اسمك؟ قال: حزن، حزن، قال: أنت سهل».

(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، (٣٦٥).

(٩) سنن أبي داود، (٤/ ٢٨٩).

(١٠) سنن أبي داود، (٤/ ٢٨٩).

(١١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، (٨١١).

(١٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، (٨٢٥).

(١٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، (٨٢٣).

وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ - فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ»^(١).

كما عالج الإسلام قضية نسبة ولد الزنا، والاختلاف في النسب لثلاً تضيع الأنساب أو تختلط.

٤ - حق الطفل في الرضاعة والحضانة:

أثبت الإسلام للأم حَقَّها في رضاع طفلها زوجةً كانت أم مطلقةً، وأثبت لها الأجرة على ذلك غير منازعةً، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بِبَنِيكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمِثْرُضِعْ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

كما شجّع الإسلام المرضعات من غير الأمهات أن يقمن بذلك وأوجب لهن الأجر حرصاً على رضاع الطفل، وعقد بين المرضعة والطفل علاقة الأمومة، وأثبت بها الرحم، قال تعالى: ﴿وَأَمَهَتُكُمْ أَلَيْتِ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. ونشر بها التحريم إلى غيرها: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾ [النساء: ٢٣]. وفي الحديث: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»^(٢).

وللطفل حَقُّه أن يكون في حضانه والدته عند طلاقها، وللأم حَقُّها في رعاية أبنائها والحنان عليهم، وقد قال النبي ﷺ للأم المطلقة: «أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي»^(٣)، ويتفق الفقهاء على بقاء الصغير في حضانه أمه، ثم يخيّر بعد أن يكبر ويصل إلى السابعة.

٥ - حق الأطفال في النفقة والعدل والمساواة:

وهذا الحق معلوم من نصوص الإسلام؛ لعموم قوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ

(١) أخرجه البخاري، (٦٧٦٦)، ومسلم، (٦٣).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٤٧١٢)، وأصله متفق عليه.

(٣) أخرجه أحمد، (٦٧٠٧)، وأبو داود، (٢٢٧٦)، والحاكم، (٢٠٧/٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

مَنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴿٧﴾ [الطلاق: ٧].

وفي الحديث قال ﷺ: «أفضل دينارٍ ينفقه الرجلُ: دينارٌ ينفقه على عياله، ودينارٌ ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينارٌ ينفقه على أصحابه في سبيل الله»^(١).
وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «ما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»^(٢).

وقد أذن النبي ﷺ لامرأة أبي سفيان أن تأخذ من ماله ما يكفيها وولدها بالمعروف لشحه عليهم^(٣).

وقد أمر النبي ﷺ بالعدل بين الأولاد، والمساواة في العطاء، فقال: «اعدلوا بين أولادكم في النحل، كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البرِّ واللطف»^(٤).
وامتنع من الشهادة على عطية جارٍ فيها الوالد، فلم يسو بين أبنائه في الهبة، وقال: «أعطيت كل ولدك مثل هذا؟ قال: لا، قال: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، قال: فرجع فرد عطيته»^(٥).

٦ - حق الطفل في التأديب والتربية والضمان الاجتماعي:

أما الضمان الاجتماعي ضد المرض والفقر والإعاقة؛ فقد دلت عليه النصوص

(١) أخرجه مسلم، (٩٩٤).

(٢) أخرجه أحمد، (١٧١٧٩)، والنسائي في الكبرى (٩١٨٥، ٩٢٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد، (٨٢، ١٩٥).

(٣) أخرجه البخاري، (٢٢١١)، ومسلم، (١٧١٤).

(٤) أخرجه البخاري، (٢٥٨٧)، واللفظ لابن حبان، (٥١٠٤).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، (٣١٦٣٦)، وأصله في الصحيحين.

الشرعية المتصافرة، وفي الحديث: «فَإَيُّهَا مُؤْمِنٌ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ - مَنْ كَانُوا - وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي؛ فَأَنَا مَوْلَاهُ»^(١). والضِّياعُ هم الأطفال.

فكانت هناك أوقاف للأطفال خاصة، ومن لطيفها: وقفٌ أجراه صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللهُ لإمدادِ الأمهاتِ بالحليبِ اللازمِ لأطفالهن.

وقد حثَّتِ الشريعةُ على كفالةِ اليتيمِ بما لا مزيدَ عليه، فقال ﷺ: «أنا وكافلُ اليتيمِ كهاتينِ في الجنةِ - وأشار بالسَّبَّابةِ والوُسْطَى، وفرَّقَ بينهما قليلاً»^(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ وَلِيَ لِلْيَتِيمِ مَالًا فَلْيَتَجَرَّ فِيهِ، وَلَا يَدْعُهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ»^(٣).

وفي حسنِ التربية قال الله تعالى: ﴿فَوَا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]،

وفي الحديث قال ﷺ: «أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ»^(٤).

وفي حديثٍ آخر أنهم قالوا: «يا رسول الله! قد عَلِمْنَا حَقَّ الوالدِ على الولدِ،

فما حَقَّ الولدِ على الوالد؟ قال: أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ وَيُحْسِنَ أَدَبَهُ»^(٥).

ولا شك أن تأديبَ الأولادِ حالَ الصَّغَرِ هو النافعُ لهم.

قد ينفعُ الأدبُ الأولادَ في صِغَرٍ وليسَ ينفعُ عندَ الشيبةِ الأدبُ

إِنَّ الغصونَ إِذَا قَوَّمتْهَا اعتَدَلَتْ ولن يَلينَ - ولو لَيَّتْهُ - الخشبُ

وقد نُقِلَ تأديبُ النبي ﷺ للحسين، وقد أخذَ تمرَّةً مِنْ تمرِ الصدقة؛ ليأكلها

فقال له ﷺ: «كِنْ كِنْ، لِيَطْرَحَهَا، أَمَا شَعَرْتَ أَنَّنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»^(٦).

(١) أخرجه البخاري، (٢٣٩٩).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٢٨٢٠)، وأصله عند البخاري، (٦٠٠٥).

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل، (٤٦٨/٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه، (٣٦٧١)، وابن أبي الدنيا في النفقة على العيال، (٣٢٧).

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإبان، (٨٢٩١).

(٦) أخرجه البخاري، (١٤٩١)، ومسلم، (١٠٦٩).

٧- حق الطفل في تعلّم دينه وأحكامه:

رُوي عن النبي ﷺ قوله: «وإذا أفصح أولادكم فعلهم لا إله إلا الله»^(١)، وقال ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة، وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها، وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع»^(٢).

وفي القرآن الكريم وصايا لقمان لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقد جاءت وصاياہ ﷺ للأبناء، كما في وصيته لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله... الحديث»^(٣).

٨- حق الطفل في اللهو المباح، والاستمتاع بزمان الطفولة:

قال الله تعالى مقرّاً لأبناء يعقوب: ﴿أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢].

يقول جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «دخلت على النبي ﷺ وهو يمشي على أربعة، وعلى ظهره الحسن والحسين، وهو يقول: نِعَمَ الْجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعَمَ الْعَدْلَانِ أَنْتُمَا»^(٤).

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة، (٤٢٣).

(٢) أخرجه أحمد، (٦٦٨٩)، وأبو داود، (٤٩٥).

(٣) أخرجه أحمد، (٢٧٦٣)، والترمذي، (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه الطبراني الكبير، (٢٦٦١).

وقال ﷺ - لبعض الأطفال -: «يا غلام! اذهب العب»^(١).

فهذه من رعاية الإسلام لزمن الطفولة وصية الصبا، وقد قيل: مَنْ كان له صبيٌّ فَلْيَتَصَابَ له، مع حفظه بما لا يجوز اللعب به، وما يُعَرِّضُه للخطر، وما يذهب بدينه وخلقُه من الصحبة الفاسدة، ونحو ذلك من المَخَاطِر، وهناك حقوق أخرى في الصحة والتعليم وغيرهما؛ نتجاوزها خشية الإطالة.

رابعاً: حقوق الوالدين في الإسلام:

إن حقوق الوالدين مما لم تعرفه تلك الإعلانات العالمية لحقوق الإنسان في حين عني الإسلام بها أيما عناية، وذكرها في القرآن والسنة مستفيضةً، بل جعلها من أعظم الأعمال وأقربها ثواباً عند الله تعالى، وقرن الدعوة إلى الإحسان إليهما بعبادته وعدم الإشراك به، وقضى أمره بذلك، وهذه منزلة لم نجد لها مثيلاً في القرآن العظيم لغير الوالدين^(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقد عدَّ القرآن الكريم والسنة المطهرة العقوق من أكبر الكبائر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْيَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وفي الحديث: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ - ثلاثاً - قالوا: بلى! قال: الإشراكُ

(٢) أخرجه أحمد، (١٠٢٧١).

(٢) الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل، (ص ١٥٤).

بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً - فقال: ألا وقول الزور. قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»^(١).

ولقد أمر الله بالإحسان إليهما ولو كانا كافرين، وأوجب حقهما ولو كانا غير مسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

وكما جاء الأمر ببرهما في حياتهما جاء أيضاً بعد موتهما، ففي الحديث قال أبو أسيد رضي الله عنه: «بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله: هل بقي عليّ من برّ أبيّ شيء بعد موتها أبرّها به؟ قال: نعم، خصال أربعة: الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقيهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برّهما بعد موتها»^(٢).

ومن البر بهما وأعظم حقوقهما: أن لا يُعرّضهما الابن للسبّ من جهته، لقوله ﷺ: «من الكبائر: شتم الرجل والديه. قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه، ويسبّ أمه فيسبّ أمه»^(٣).

ولشبهت هذا الحق وشيوعه في المجتمع المسلم لم يعرف المجتمع المسلم دور العجزة والمسنين إلا مؤخراً حين أهمل المسلمون دينهم وتخلّقوا بأخلاق غيرهم!

(١) أخرجه البخاري، (٢٦٥٤)، ومسلم، (٨٧).

(٢) أخرجه أحمد، (١٦٠٥٩)، وأبو داود، (٥١٤٢)، وابن ماجه، (٣٦٦٤).

(٣) أخرجه مسلم، (٩٠).

وكما أوجب الإسلام على الوالد النفقة على ابنه، أوجب على الولد النفقة على والديه حال احتياجهما أو فقرهما، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»^(١).

ولعظم حقهما، لم يجز القصاص إذا قتل الوالد ولده؛ لحديث: «لَا يُقَادُ وَالِدٌ بَوْلَدِهِ»^(٢).

خامساً: حقوق المرأة في الإسلام:

إن إطلالةً على حقوق المرأة في اليهودية تُبين أنها كانت ممسوخة الهوية، فاقدة الأهلية، منزوعة الحرية، تخضع طيلة حياتها لطاعات ثلاث، لأبيها، ثم لزوجها، ثم لأخيها البكر - الذي ينوب مناب والدها حين يغيب - وقد كانت النظرة إليها على أنها لعنةٌ وسببٌ نزول اللعنات! وكانت معدومة الحق في الاختيار، أقرب إلى المتاع الذي يُورَثُ ويبيع، ولم تكن المرأة في النصرانية بأحسن حالاً منها في اليهودية، فقد كانت لديهم أصل الخطيئة، ورأس الشر؛ لأنها سبب كل الفساد في الأرض^(٣).

وبزوغ شمس الرسالة الخاتمة تحررت المرأة من رق الجاهليات كلها، فنالت حقوقها، واكتسبت شخصيتها، ونالت أهليتها بما لم تعرفه البشرية من قبل في شأن المرأة؛ فإلى طائفة من حقوقها في الإسلام، بعد معرفة أن الإسلام أعطى المرأة أمّا حقوقاً خاصة، وأعطى الزوجة حقوقاً أخرى، وأعطى البنت حقوقاً ثالثة، وهكذا تعددت حقوقها بتعدد موقعها في أسرتها، لكن الحديث عنها باعتبارها إنسانة، لها حقوق أصيلة ثابتة تصحبها في حياتها بأسرها.

(١) أخرجه أحمد، (٦٩٠٢)، وأبو داود، (٣٥٣٠)، وابن ماجه، (٢٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد، (٩٨)، والترمذي، (١٤٠٠)، وابن ماجه، (٢٦٦٢).

(٣) حقوق الإنسان في الإسلام، مقرر جامعة المدينة العالمية، لمحمد يسري، (ص ٣٢٥ - ٣٢٩).

١ - حق المرأة في التعليم والتعلم والدعوة:

للمرأة حق في تعلّم دينها والنافع من علوم عصرها، وتعليم ذلك لبني جنسها، فهي في التكاليف الشرعية والنصوص الإلهية الآمرة بالتعليم داخلة مع الرجل دخولاً أولاً، وقد حثّ النبي ﷺ على تعليم النساء خاصة ولو كنّ إماءً لسن بحرائر، فقال ﷺ: «ثلاث لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدّى حقّ الله وحقّ مواليه، ورجلٌ كانت عنده أمةٌ، فأدّبها فأحسن تأديبها، وعلمّها فأحسن تعليمها، ثم أعْتَقَهَا فترزقها فله أجران» (١).

وقد ثبت أن النبي ﷺ خرج إلى النساء فأمرهن ونهاهن وذكرهن، ووعظهن (٢)، وترجم البخاري: باب: عِظَةُ الإمامِ النساءِ وتعليمهن (٣)، وقد خصص لهن النبي ﷺ يوماً للتعليم يُعَلِّمُهُنَّ مما علمه الله.

وكانت المرأة تدخل على النبي ﷺ فتسأل ويحيب، وتحضر المجامع العلمية والدعوية العامة كخطبة العيد والجمعة ونحوها.

وقد كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقيهة الصحابيات يسألنها بعد النبي ﷺ فتفتيها كما تفتي الرجال، وعبر التاريخ نبغت عالِماتٌ كثراتٌ، وكما شاركت المرأة في التعلم والتعليم شاركت في الدعوة والتذكير.

٢ - حق المرأة في العمل:

عملت المرأة الغربية حيث لا كافل لها إلا نفسها، وسعى كثيرون في الغرب

(١) أخرجه البخاري، (٩٧)، ومسلم، (١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري، (٩٨)، ومسلم، (٨٨٤).

(٣) صحيح البخاري، (٣١ / ١).

لتعمل لتكون فريسة بين أيديهم، ولكن قيمة المرأة في الإسلام تكمن في أنها حاضنة الأطفال، ومربية الرجال، ومنشئة الحضارات، ولو أُعطيت مقابل ذلك أجرًا لكان باهظًا؛ ولهذا فهي في الإسلام مكفولة من أبيها، وأخيها، وزوجها. وبعد هذا فإن احتاجت الخروج لعملٍ مباحٍ من تجارة أو صناعة أو زراعة أو ما أشبه فلا حرج عليها ما كان هذا بضوابطه الشرعية.

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «طُلِّقَت خالتي فأرادت أن تَجِدَ نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأَتَت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «بَلَى فَجُدِّي نَحْلِكَ؛ فَإِنَّكَ عَسَى أَنْ تَصَدَّقِي، أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفًا»^(١)، فأجاز لها أن تقوم على اجتناء التمر وقطعه لتتفع به.

وقد أجاز النبي صلى الله عليه وسلم للمرأة أن تخرج معه في الحروب للمداواة والسقي، عن الربيع بنت معوذ، قالت: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نسقي ونداوي الجرحى، ونردُّ القتلى إلى المدينة»^(٢). فإذا أذن لها وليُّها ولم يكن عملُها مَخْلًا بواجبها داخل بيتها، مع مشروعية عملها، ومناسبتها والتزامها لدى خروجها بالضوابط الشرعية في لباسها وتعاملها مع الرجال، عندها فإن عملها لا غبارَ على مشروعيته.

٣- حق المرأة في المشاركة السياسية:

المرأة نصف المجتمع، وهي تلد وتربي النصف الثاني، ومبكرًا قد رعى الإسلام للمرأة حقوقها السياسية، فقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم النساء المهاجرات إليه من

(١) أخرجه مسلم، (١٤٨٣).

(٢) أخرجه البخاري، (٢٨٨٢).

مكة، كما بايع في مكة عددًا قليلًا منهم، وفي بيعة العقبة الثانية حضرت امرأتان من الأنصار البيعة كما ذكرت ذلك كتبُ السيرة، وقد ذكر القرآن الكريم بيعة الامتحان في سورة الممتحنة.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وللنساء ولايةُ الحسبة على بعضهن لا سيما فيما لا يطلع عليه الرجال، وما المشاركة في بعض أعمال الخدمة والمداواة حال الغزو إلا من شاركتهن في الشأن العام، ولها أن تباع البيعة العامة للإمام، وأن تشارك في اختياره، كما فعل عبد الرحمن بن عوف في الترجيح بين علي وعثمان رضي الله عنهما، وهو أمرٌ يبيع أن تكون عضوة في المجالس الشورية اليوم، وأن تحضر لتقول رأيها، لا سيما فيما يدخل في اختصاصها، من غير دخول في الولاية العامة، أو ولاية القضاء ونحوه مما اشترط له الذكورة شرعًا.

٤ - الحقوق المالية للمرأة في الإسلام:

وحصلت المرأة على حقها في صداقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَوْلَى النَّسَاءِ صَدَقْتِهِنَّ نَحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، أي: عطية لا يدخل فيها أحد.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ إِحْدُهُنَّ قِنْطَارًا﴾ [النساء: ٢٠].

وأوجب لها النفقة على زوجها حال الزوجية، وحال العدة، وحال الحمل،

قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِّنْ حَيْثُ سَكَنَ﴾ [الطلاق: ٦].

وفي الحديث: «ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف»^(١).
وأثبت الشرع المطهر حقها في الإرث، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

وهذا يدل على استقلال ذمتها المالية، وطلاقة تصرفها في مالها، وذلك بالبيع والشراء والهبة وغيرها، بل وبصرف الزكاة إلى زوجها إن كان فقيرًا، كما وقع في قصة زينب امرأة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

٥ - الحقوق الاجتماعية للمرأة في الإسلام:

لقد حصلت المرأة على حقوقها الاجتماعية أُمًّا؛ فيجب التزامها والإحسان إليها، والبر والإحسان إلى الأمهات مقدَّم على برِّ الآباء.

وقد قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لمن سأله: من أحق الناس بحسن صحابتي، قال: - «أُمُّكَ، قال: ثم من؟ قال: ثم أُمُّكَ، قال: ثم من؟ قال: ثم أُمُّكَ، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك»^(٣).

وقد ثبت هذا الحق للأم، ولو كانت غير مسلمة، وفي الحديث أن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قدمت عليَّ أُمِّي وهي مشركة في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستفتيت رسول

(١) أخرجه مسلم، (١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري، (١٤٦٥)، ومسلم، (١٠٠٠).

(٣) أخرجه البخاري، (٥٩٧١)، ومسلم، (٢٥٤٨).

الله ﷻ، قلتُ: «إن أُمِّي قدمت وهي راغبة، أفأَصِلُ أُمِّي؟ قال: نعم صِلِي أُمَّكِ»^(١).
 وخص الأمَّ بتحريم العقوق، فقال ﷻ: «إن الله حَرَّمَ عليكم عقوق الأمهات»^(٢).
 أما البنات فقد أوجب لهن الرعاية والعناية والصيانة.
 وفي الحديث: «من عال جارتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو -
 وضم أصابعه»^(٣).
 وفي الحديث الآخر: «من ابتلي من البنات بشيءٍ، فأحسن إليهن كُنَّ له سِتْرًا
 من النار»^(٤).
 وأثبت الإسلام للبنات الحقَّ في اختيار زوجها، فقال ﷻ: «لا تُنكِحُ الأيِّمُ
 حتى تُستأْمَرَ، ولا تُنكِحُ البكرُ حتى تُستأْذَنَ»^(٥).
 ونهى الله تعالى الأولياء عن العضل، وهو منعها النكاح، قال تعالى: ﴿فَلَا
 تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].
 وأعطى الإسلام المرأة زوجةً حقوقاً كثيرةً من: النفقة والكسوة والسكنى وغير
 ذلك، والعشرة بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَعَايِشُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].
 وأعطى الزوجة حقاً في الرضاع والحضانة وغير ذلك وأُعْطِيَتْ الحقَّ في طلب
 الخلع عند عدم قدرتها على الحياة مع زوجها، ورَتَّبَ لها على الطلاق حقوقاً ماليةً

(١) أخرجه البخاري، (٢٦٢٠)، ومسلم، (١٠٠٣).

(٢) أخرجه البخاري، (٢٤٠٨)، ومسلم، (٥٩٣).

(٣) أخرجه مسلم، (٢٦٣١).

(٤) أخرجه مسلم، (٢٦٢٩).

(٥) أخرجه مسلم، (٥١٣٦).

ومعنوية، بما يسمح لها بالتهيؤ لحياة جديدة بدون تعقيدات أو اشكالات.

سادساً: حقوق غير المسلمين في الإسلام:

الإسلام دين أنبياء الله جميعاً: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].
وهو دين التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ
إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهو دين حفظ العهود والعقود، لا يخسُ الذم، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

والمسلمون يلتزمون بأحكام وحقوق أهل العهد والذمة من غير المسلمين؛
طلباً لمرضاة ربهم واتباعاً لسنة نبيهم، ومصطلح أهل الذمة في الإسلام، يعني:
أهل العهد والميثاق، وسُمِّي أهل الكتاب ومن ألحق بهم كذلك؛ لأنه يُدْمُ شرعاً
من ينقض عهدهم، أو يتعدى على حقوقهم.

والإسلام يدعو الخلق جميعاً إلى الدخول فيه، ومن دخله كان مسلماً، له كل
الحقوق، وعليه كل الواجبات، من غير تمييز عرقي أو لغوي أو ثقافي أو جغرافي،
قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ فالشريعة المعصومة لا تفرق
بين متساويين، ولا تجمع أو توحد بين متمايزين أو مختلفين، فهي العدل الذي
يعطي كل ذي حق حقه.

وفيما يلي استعراض لحقوق أهل الذمة في بلاد الإسلام:

١ - حق أهل الذمة في حفظ الكرامة الإنسانية:

الناس سواء في حفظ كرامتهم الإنسانية لا فرق بين مسلم وغيره، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، والعلاقة بين المسلم وأهل الكتاب تقوم على مراعاة حقوقهم وحفظ مشاعرهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقد قام النبي ﷺ لجنازة اليهودي وقال: «أليست نفساً؟!»،^(١) وقد أباحت الشريعة من علاقات المصاهرة بالزواج من أهل الكتاب ما يمنع من الإهانة أو الظلم.

٢- حق أهل الذمة في العدل:

إن الأساس الذي تقوم عليه العلاقة مع غير المسلمين يقوم على القسط والعدل، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]، والأمر بالعدل عام شامل في القرآن حتى مع الخصوم والمخالفين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

فمن أراد أهل الكتاب بظلم تصدَّت له الشريعة، والمجتمع من ورائها، والدولة بسلطانها، ومُنِعَ من التعدي أيًّا كان موقعه، وقد انتصف عمر بن الخطاب لقبطي مصري استطال عليه ابن عمرو بن العاص، فمكَّنه من القصاص منه، وأرسل كلمته: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» وقد حذَّر النبي ﷺ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مَعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا

(١) أخرجه البخاري، (١٣١٢) ومسلم، (٩٦١).

بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»^(١).

٣- حق أهل الذمة في حماية دمائهم وأموالهم:

وكما تحمي الشريعة أهل الذمة داخل المجتمع فهي تحميهم من كل اعتداء خارجي، وكلمات الفقهاء ووقائع التاريخ شاهدٌ صدقٍ على هذا المعنى.

يقول القرافي المالكي: «إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا؛ لأنهم في جوارنا، وفي حمايتنا وذمتنا وذمة الله تعالى وذمة رسول الله ﷺ، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم، ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيّع ذمة الله تعالى وذمة رسوله، وذمة دين الإسلام»^(٢).

ويقول النووي الشافعي: «إذا صحَّ عقد الذمة لزمنا الكفُّ عنهم، بأن لا يُتعرَّضَ لهم نفساً ومالاً، ويضمنها المتلفُ، ولا تُتلفُ خورُهم وحنازيرُهم إلا إذا أظهروها»^(٣).

وقال ابن قدامة الحنبلي: «وحكمُ أموال أهل الذمة حكمُ أموال المسلمين في حرمتها، قال علي رضي الله عنه: (إنما يذلولوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا)»^(٤).

وقال الحصكفي الحنفي: «وإذا صار المستأمن ذمياً يجري القصاص بينه وبين المسلم، ويجب كَفُّ الأذى عنه، وتحرم غيبتهُ كالمسلم»^(٥).

(١) أخرجه أبو داود، (٣٠٥٢)، والبيهقي في الكبرى، (١٨٧٣١).

(٢) الفروق، للقرافي، (٢٩/٣).

(٣) روضة الطالبين، للنووي، (٣٢١/١٠).

(٤) المغني، لابن قدامة، (١٥-١٤/٣).

(٥) الدر المختار، للحصكفي، (٤٠٢-٤٠١/٦).

وقال ابن عابدين الحنفي - أيضًا -: «لأنه بعقد الذمة وجب له ما لنا، فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته، بل قالوا: إن ظلم الذميَّ أشدُّ»^(١).

٤ - حق أهل الذمة في حرية المعتقد وممارسة الشعائر:

لأهل الذمة الحق في اعتقادهم وممارسة شعائرهم؛ فلا يُتعرَّض لهم وما يدينون، وقد قال ﷺ - لأهل نجران فيما كتبه لهم -: «لَا يُغَيَّرُ أَسْقُفٌ عَنْ أَسْقُفِيَّتِهِ، وَلَا رَاهِبٌ عَنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلَا كَاهِنٌ عَنْ كَهَانَتِهِ»^(٢).

وقد أوصى الصديق يزيد بن أبي سفيان، فقال: «وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُحَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَاكَلَةٍ، وَلَا تُحْرِقَنَّ نَخْلًا وَلَا تُغْرِقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلَ، وَلَا تَجْبُنَ وَسُوفَ تَمُرُّونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ، فَدَعُوهُمْ وَمَا فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ»^(٣).

ولا يُجْبَرُونَ على ما يخالف عقيدتهم أو شريعتهم، فليس للقاضي أن يُحْضَرَ اليهوديَّ إلى مجلسه يوم السبت، وليس لمن تزوج يهودية أن يجبرها على أكل اللحوم المحرمة في دينها، ومن استأجر نصرانيًّا فليس له منعه من الذهاب إلى كنيسه.. وهكذا.

٥ - حق أهل الذمة في التعلم والعمل:

لقد كفلت الشريعة المطهرة لأهل الذمة الحق في التعلم سواء أكان هذا للعلوم المرتبطة بأديان أهل الكتاب، أو كان للعلوم الدنيوية، كما عمل أهل الكتاب في ظل الدولة الإسلامية من أيامه ﷺ، فكانوا تُجَارًا وصُنَاعًا، بل

(١) حاشية ابن عابدين، (١٣/١٣٥).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، (١/٢٦٤).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى، (١٨٦١٢، ١٨٦١٤).

واستعملوا في الدولة وتقلدوا فيها مناصب كثيرة، وعرف عدد من الأطباء في عهد الدولة العباسية من أهل الذمة؛ كسهل بن سابور، وجرجيس بن بختيشوع وغيرهم، ومن الكتّاب والمترجمين ورجال الدولة، بل كفّلت الشريعة للذمي أن يملك أرض الإسلام إذا أحياها، قال ابن قدامة **رَحِمَهُ اللهُ**: «لا فرق بين المسلم والذمي في الإحياء، نصّ عليه أحمد، وبه قال مالك، وأبو حنيفة»^(١).

٦ - حق أهل الذمة في حرية التنقل والإقامة داخل دار الإسلام:

وكفّلت الشريعة لغير المسلمين حرية التنقل والإقامة في بلاد الإسلام سوى أرض الحرم.

يقول الشافعي **رَحِمَهُ اللهُ**: «لا يؤخذ من الذمي شيء وإن اضطرب (أي: تنقل) في بلاد الإسلام كلّها غير الحجاز؛ فإنّ الجزية أثبتت له الأمان العام على نفسه وأهله وماله في المقام والسفر»^(٢).

ولمّا أجلى الوالي قوماً من أهل الذمة إلى جبل لبنان بخروج فريق منهم على عامل الخراج، كتب له الإمام الأوزاعي في ذلك، وكان من قوله: «... فإنهم ليسوا بعبيد فتكون في حلّ من تحويلهم من بلد إلى بلد، ولكنهم أحرار أهل ذمة»^(٣).

٧ - حق أهل الذمة في كفايتهم وتأمينهم اجتماعياً:

لقد تواتر النهي عن إيذاء أهل الذمة، أو ظلمهم، أو انتقاص حقهم، ولا يؤاخذ منهم أحد بظلم آخر أو تعدّيه، وحققت الشريعة حدّ الكفاية لرعاياها!

(١) المغني، لابن قدامة، (٨/ ١٤٩).

(٢) أحكام أهل الذمة، لابن القيم، (ص ١٢٢).

(٣) الأموال، لأبي عبيد، (ص ٤١٨).

فهذا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يكتب إلى عدي بن أرطاة، يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَمَرَ أَنْ تُؤْخَذَ الْجِزْيَةُ مِمَّنْ رَغِبَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَاخْتَارَ الْكُفْرَ عُتْوًا وَخُسْرَانًا مُبِينًا، فَضَعِ الْجِزْيَةَ عَلَى مَنْ أَطَاقَ حِمْلَهَا، وَخَلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِمَارَةِ الْأَرْضِ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ صَلَاحًا لِمَعَاشِ الْمُسْلِمِينَ، وَقُوَّةً عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَانْظُرْ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ قَدْ كَبُرَتْ سِنُّهُ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ، فَأَجَرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا يُصْلِحُهُ، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ كَبُرَتْ سِنُّهُ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ، كَانَ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِ أَنْ يَقُوَّتَهُ، حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ، أَوْ عِتْقٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ بَلَّغَنِي: أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ مَرَّ بِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَسْأَلُ عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ، فَقَالَ: مَا أَنْصَفْنَاكَ! إِنْ كُنَّا أَخَذْنَا مِنْكَ الْجِزْيَةَ فِي شَبَبَتِكَ، ثُمَّ صَيَّعْنَاكَ فِي كِبَرِكَ! قَالَ: ثُمَّ أَجْرَى عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يُصْلِحُهُ»^(١).

وقد عقد خالد بن الوليد معاهدة صلح مع أهل الحيرة من العراق، جاء فيها: «وجعلتُ لهم أيما شيخ ضَعُفَ عن العملِ أو أَصَابَتْهُ آفَةٌ مِنَ الْآفَاتِ، أو كَانَ غَنِيًّا فَافْتَقَرَ، وَصَارَ أَهْلُ دِينِهِ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ طُرَحَتْ جِزْيَتُهُ، وَعِيْلَ - من بيت مال المسلمين - وعيَالُهُ، مَا أَقَامَ بَدَارَ الْهَجْرَةِ وَدَارَ الْإِسْلَامِ»^(٢).

كلمة أخيرة:

بزوال دولة الإسلام العظيمة، وسقوط الخلافة الكبرى، وتنحية الحكم

(١) الأموال، لأبي عبيد، (ص ٤٨).

(٢) الخراج، لأبي يوسف، (ص ١٥٥ - ١٥٦).

بالشريعة، وتنكيس رايات الجهاد الإسلامي لم يعد هناك وجودٌ لعقد الذمة، فلا مطالبةٌ بجزيةٍ، ولا أحكامٌ تخصُّهم دون غيرهم، ومن أسفٍ أن ما يقع على أهلِ الذِّمَّةِ اليومَ من ظلمٍ أو تعسفٍ هو من جرَّاءِ تطبيقِ العلمانية كنظام للحكم، ولا يُسألُ عنه الإسلامُ ولا دولتهُ، وإنما تُسألُ عنه الأنظمةُ الوضعيةُ الحديثةُ! ولو عاد للإسلام مجده ما اشتكى أحد من غير المسلمين في بلاد الإسلام.





الفصل التاسع..

مقاصد شريعة الإسلام



مقاصد شريعة الإسلام

للشريعة مقاصدٌ عاليةٌ، وأهدافٌ غالية، قامت على رعايتها لاستقامة الحياة البشرية، في دينها ودنياها، وهي مصالحٌ إذا فُقدت ترتب عليها فساد وتهارج عظيم في الدنيا، وفوات النجاة والنعيم في الآخرة.

وقد نظر العلماء إلى هذه المصالح والمقاصد والضرورات في أحكام الشريعة الإسلامية فوجدوها فيها مرعية، بل في كل شريعة إلهية لا بدَّ وأن تكون محمية، والسبب في ذلك: أنها لا تخصُّ أمة دون أخرى، ولا تتعلق بجيل دون غيره.

يقول الإمام الشاطبي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «... لأنها قيام بمصالح عامة مطلقة، لا تختص بحال دون حال، ولا بصورة دون صورة، ولا بوقت دون وقت»^(١).

وهذه المصالح العامة والمقاصد الكلية عدّها العلماء خمس كليات هي: الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال.

قال الشاطبي: «ومجموع الضروريات خمسة، وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل»^(٢).

(١) الموافقات، للشاطبي، (١٧٦/٢).

(٢) الموافقات، (٤/٢).

ومن العلماء من زاد سادسة هي العرض.

فالشريعة عُنيت بهذه الخمس عناية خاصة في تشريعاتها الجزئية، يظهر هذا في نصوص كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ۖ إِنَّكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقُوا نُرُوزَكُمْ ۖ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ۖ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فقد تضمنت في حفظ الدين: النهي عن الشرك بالله بجميع أنواعه، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي حفظ النفس قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ۖ إِنَّكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقُوا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ۖ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وجاء في حفظ النسل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وجاء في حفظ المال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وأما حفظ العقل فلازم كل تلك الضرورات؛ إذ لا حفظ لمن لا عقل له؛ ولهذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «هذه الآيات محكمات في جميع الكتب، لم ينسخن شيء، وهنَّ محرماتٌ على بني آدم كلهم، وهنَّ أمُّ الكتاب، من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار»^(١).

(١) تفسير البغوي، (٢/ ١٤٤).

والسنة ضوء القرآن في رعاية هذه المقاصد الكلية، والأحاديث في رعايتها لا تُحصَى عدًّا، ولا تُستقصى حصرًا، وسيأتي ذكر بعضها عند الكلام تفصيلًا عن هذه المقاصد الشرعية التي عُيّنت الشريعة بحفظها وتحقيق مصالحها في الخلق.

قال الغزالي: «فإنَّ جَلْبَ المنفعة ودَفْعَ المضرّة مقاصد الخلق، وصالح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكننا فَعْنِي بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهي: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم؛ فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يُفَوِّت هذه الأصول فهو مفسدة ودَفْعُهَا مصلحة.

وحفظ هذه الأصول الخمسة، في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح. ومثاله: قضاء الشارع بقتل الكافر المضلّ، وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته، فإنَّ هذا يُفَوِّت على الخلق دينهم. وقضاؤه بإيجاب القصاص؛ إذ به حفظ النفوس. وإيجاب حدّ الشرب؛ إذ به حفظ العقول التي هي ملاك التكليف. وإيجاب حد الزنا؛ إذ به حفظ النسل والأنساب، وإيجاب زجر الغصّاب والسّراق؛ إذ به يحصل حفظ الأموال التي هي معاش الخلق، وهم مضطرون إليها.

وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها، يستحيل أن لا تشمل عليه ملة من الملل، وشريعة من الشرائع، أُريدَ بها صلاحُ الخلق؛ ولذلك لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتل والزنا والسّرقَة، وشرب المسكر»^(١).

(١) المستصفى، للغزالي، (١/٢٨٦-٢٨٨).

المقصد الأول: حفظ الدين:

الدين جملة ما يعتقد ويعمل به الإنسان طلباً للصالح والفلاح في العاجلة والآجلة، والدين هو الإسلام منذ أبينا آدم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد تعددت الشرائع المنزلة على أنبياء الله ورسوله.

وحاجة الإنسان إلى التدين فطرية ضرورية لا ينفك عنها بشر، فإمّا اهتدى إلى الحق وإمّا ضلّ وعبد الله على جهل، أو انتكست فطرته فألحد! والدين هو من يجيب على أسئلة النفس البشرية: من أنا؟ ولماذا جئت؟ وإلى أين أصير بعد الموت؟

فالدين لا بدّ منه ولا غنى عنه، وهو مركّب في كل فطرة؛ فالإنسان عابد متدين بفطرته، فإن اتصلت فطرته بنور الوحي والرسالة اهتدت، وإن ابتعدت ضلّت وفسدت، وتدين الإنسان بدين يُشفيه ويُريده!

والإسلام حمى الدين وحفظ جنابه أن يناله انحراف أو تبديل، وذلك عبر مجموعة من التشريعات والمبادئ التي تحقق هذه المقصد، ومن ذلك:

أولاً: وجوب التفقه في الدين، وطلب علمه:

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فالعلم قبل القول والعمل، وطلبه فريضة، وفي الحديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١)، والتفقه كما فيه فرض عين على كل مسلم، منه أيضاً فرض كفاية على مجموع الأمة لا جميعها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ

(١) أخرجه الطبراني في الصغير، (٢٢)، وفي الأوسط، (٩)، وفي الكبير، (١٠٤٣٩).

مَنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَسْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال ابن تيمية رحمه الله: «والتحقيق أن النبي ﷺ ذكر الدين العيني في حديث جبريل، الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً، الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان، فيجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله مخلصاً له الدين... وهذه هي الخمس - أي: أركان الإسلام -، وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب المصالح، فلا يعمُّ وجوبها جميع الناس، بل إما أن يكون فرضاً على الكفاية، كالجهاد والأمر بالمعروف، وما يتبع ذلك من إمارة وحكم وفتيا وإقرار وتحديث، وغير ذلك... وإما أن يجب بسبب حقٍّ للأدمين يختصُّ به مَنْ وجب له عليه»^(١).

ثانياً: وجوب العمل بعلم الدين والدعوة إليه:

أوجبت الشريعة العمل وجعلته من الإيمان، وذمّت مَنْ تركه، أو خالف فعمل ما لم يُشرع، أو ارتكب ما حرّم الله.

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وجاء الأمر بالطاعات كثيراً، والنهي عن المعاصي طويلاً، في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ورتبت الطاعات في قسمين، منها: ما هو حتمي إلزامي، وهي الفرائض والواجبات، ومنها: ما هو تطوعي غير إلزامي، وهي النوافل والسنن والمستحبات. ورأس المأمورات: توحيد ربّ الأرض والسماوات، ورُتبت المنهيات إلى

(١) مجموع الفتاوى، (٧/ ٣١٤).

قسمين: ما تركه حتمٌ لازم، وهي: الكبائر والصغائر والمبتدعات، ومنها: ما هو غير لازم كالمكروهات وخلاف الأولى من الأعمال، ورأس المنهيات: الشرك بالله. وجاء الحثُّ ببيان الأجر وحسن عاقبة من جاء بالواجبات وكفَّ عن المحرمات، وبيان رفعة درجات من استكثر من النوافل المستحبات، وكفَّ عن المكروهات.

وفي الدعوة إليه، قال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الحج: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فالدعوة وظيفة الأنبياء والمرسلين، وطريقة الدعوة المصلحين.

ثالثاً: وجوب الحكم بالإسلام:

لا يحفظ الإسلام مثل الحكم بشريعته والاحتكام إلى كتابه العظيم وسنة نبيه الكريم، بل لا يتم إيمان ولا يكمل حتى يحكم الشرع المنزل.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وأول واجبات الإمام والحاكم المسلم: «حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع، أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة، ويُنَّ له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود؛ ليكون الدين محروساً من خلل، والأمة ممنوعة من الزلل»^(١).

(١) الأحكام السلطانية، للهاوردي، (ص ٤٠).

وفي هذا السياق يأتي حدُّ الردة الذي يُعتبر حماية للدين من العبث والتلاعب، وحفظاً لحق المجتمع الإسلامي ونظامه العام من الاختلال.

وفي الحديث: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(١).

وفيه: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ - يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ - إِلَّا بِإِخْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٢).

فالدين الكامل لا يجوز إدخال نقصٍ عليه بالرغبة عنه بعد الدخول إليه.

وفي نفس السياق تجب عقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ

لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٣).

رابعاً: تشريع كل أسباب الدفاع عنه وحمايته:

الجهادُ بابٌ من أبوابِ الدفاعِ عن الدين، سبيلٌ لرفعِ العقبات التي تحول

دون وصول الناس إلى هدايته، وإنقاذ البشرية من ضلالة الشرك وعبادة غير الله.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ

يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فلا بدَّ للحق من قوة تنصره وتحميه، وتردع من يحاول الاعتداء عليه؛ ولهذا

(١) أخرجه البخاري، (٣٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٨٧٨)، ومسلم، (١٦٧٦).

(٣) أخرجه مسلم، (١٧١٨).

شُرِعَ قتالُ مَنْ امتنع بقوة عن أداء شعيرة من شعائر الإسلام الظاهرة الواجبة المتواترة، كما قاتل الصّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ امتنع عن أداء الزكاة؛ وذلك حمايةً للدين أن ينقص.

المقصد الثاني: حفظ النفس الإنسانية:

لقد عُنِيَتِ الشريعةُ بالنفس الإنسانية فَحَفِظَتْ حَقَّهَا في الحياة، ولم تقبل بمجرد الحياة، وإنما أَمَرَت بالحياة الكريمة، وكفلها الشرع المطهر لكل إنسان، وفيما يلي بيان موجز لمقصد حفظ النفس في الشريعة الإسلامية:

أولاً: تكريم النفس الإنسانية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ أَكَرِيمٌ﴾ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ

فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ [الانفطار: ٦-٨].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

يستوي في هذا التكريم المسلم وغيره، والصالح وغيره، فالنفس البشرية مكرّمةٌ بأصل خَلَقَتِهَا، والإحسانُ إليها مطلبٌ من مطالب الشرع: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

والنهي عن الإهانة بضرب الوجه للإنسان، بل وللحيوان، والإكرام للإنسان حال حياته وبعد مماته؛ ولذا قام النبي ﷺ لجنازة يهوديٍّ حين مرّت أمامه، وأمرت الشريعة بالبرّ والإقسط إلى مَنْ لم يعادِنَا مِنْ غيرِ أَهْلِ مِلَّتِنَا وأمرت

(١) أخرجه مسلم، (١٩٥٥).

بالحكم بالعدل بين الخلق كافة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

ثانيًا: حفظ الحق في الحياة:

لعظم الحق في الحياة وتحريم وتجريم العدوان على هذه الحياة، قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

فلا يجوز بحال أن يقتل إنسانٌ بغير الحق.

وفي الحديث: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فَسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا»^(١).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا: سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلٍّ»^(٢).

وقد عدَّ النبي صلى الله عليه وسلم قتل النفس من الكبائر العظيمة، فقال - في حديث السبع الموبقات -: «... وقاتل النفس التي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ»^(٣).

وتحريم الاعتداء يشمل كل نفسٍ معصومة الدِّم من مسلم وغير مسلم، وقد جاء التحذير من الاستهانة بدم غير المسلم خاصةً، ففي الحديث: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(٤).

(١) أخرجه البخاري، (٦٨٦٢).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٨٦٣).

(٣) أخرجه البخاري، (٢٧٦٦)، ومسلم، (٨٩).

(٤) أخرجه البخاري، (٣١٦٦، ٦٩١٤).

ثالثاً: تحريم الانتحار وقتل النفس:

وكما حرّمت الشريعة أن يعتدي الإنسان على غيره حرّمت أيضاً الاعتداء على النفس، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، وفي الحديث: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مَّخْلُودًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُلْمًا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَّخْلُودًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مَّخْلُودًا فِيهَا أَبَدًا»^(١).

رابعاً: إباحة المحرّم لانقاذ النفس:

ولحفظ الحياة أوجبت الشريعة على المضطر أن يتناول المحرم لينقذ نفسه، ولو تناول الميتة أو شرب الخمر لإزالة الغصة، أو الدواء إذا اضطر إليه وكان فيه محرم. قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَيسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ فَضَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾

(١) أخرجه البخاري، (٥٧٧٨)، ومسلم، (١٠٩).

[الأنعام: ١١٩]، بل اعتبرت من منع طعاماً يملكه عن مضطر فهلكت أنه يضمن ديته؛ وبهذا قضى عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

ولو أن المضطر امتنع عن أكلٍ أو تناولٍ ما يُنقذ به نفسه لَأَثِمَ؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

خامساً: تشريع القصاص والحدود:

وذلك لأنه رادع عن انتشار القتل وتفاحشه وكثرته، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ آلَ لَبِ بْنِ أَدِّسَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وكانت العرب قديماً تقول: «القتل أنفى للقتل» فكانت من جمل كلامهمُ البليغ حتى نزلت الآية الشريفة. وكما شرعَ قتل الزاني المحصن شرعَ تأخير الحدِّ على مَنْ حملت من الزنا لحقَّ جنينها، وحفظَ حياته، وشرعَ تأجيل الحدِّ لحقَّ رضيعها، وحفظَ حياته!! ودفعَ القصاصَ والحدَّ عن المجنون لفقد عقله، وعن الصبي لنقص عقله. وأوجبَتِ الشريعة الاستيثاقَ لحدِّ الزاني بالشهادات الموثقة من أربع شهودٍ وحتى يثبت الحدُّ. كما رُبطَ الحدُّ بوجود وليٍّ الأمر^(٢).

المقصد الثالث: حفظ النسل:

النسل والتناسل وسيلةُ بقاءِ الإنسان على ظهر هذه الحياة، وهو أمرٌ عُنيَتِ الشريعة برعايته وحفظه، وكما ركب الخالقُ الغريزةَ لتدعو الإنسانَ إليه فقد أنزل في الشريعة أحكاماً تَضْبِطُهُ وترعاه، ومن ذلك:

(١) الكافي، لابن قدامة، (٣/ ٧١).

(٢) الإسلام وضرورات الحياة، لعبد الله قادري الأهمل، (ص ٤٠-٤٦)، وتعرف على الإسلام، (ص ٤٢-٤٣).

أولاً: الترغيبُ في التناسلِ والنهيُ عن تركِ النكاح:

لقد امتنَّ الله على الإنسان بمنة النسل، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢].

فالولد نعمة ومنة من الله تعالى على الإنسان، وقد حببها إليه، فقال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤].
وقد رغبَ النبي ﷺ في كثرة النسل: فأخبر أن أمته كثيرة العدد جدًا يوم القيامة، فهم نصفُ أهل الجنة أو يزيدون، ولا يتأتى هذا إلا عن طريق أسبابٍ منها: النكاح والتناسل!

وقد روي عنه قوله ﷺ: «تزوَّجوا الودودَ الولودَ؛ فإني مكاثِّرُ بكم الأمم»^(١). وهذا مما يرضي الله ورسوله ﷺ، وكان ﷺ يدعو لأصحابه بالبركة في زوجاتهم وذريَّاتهم.

وجاء الترغيبُ في النكاح كثيرًا، فقال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وقال ﷺ: «يا معشرَ الشبابِ، مَنْ استطاعَ منكم الباءةَ فليتزَوَّجْ؛ فإنه أغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفرجِ»^(٢).

(١) أخرجه النسائي، (٣٢٢٢٧)، والطبراني، (٥٠٨)، والحاكم، (١٧٦/٢)، وصححه.

(٢) أخرجه البخاري، (٥٠٦٦)، ومسلم، (١٤٠٠).

وذهب أكثر الفقهاء إلى استحباب النكاح من حيث الأصل.
وجاء الترغيب في التعدد لمن قدر عليه، وتحقق العدل لديه.

وورد التحذير من التبتل والاختصاص والرغبة عن النكاح، وقد قال ﷺ:
«أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد،
وأزوّج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص قال: «أراد عثمان بن مظعون أن يتبتّل،
فنهاه رسول الله ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاختصينا»^(٢).

ثانياً: تحريم الاعتداء على الجنين:

اعتبرت الشريعة أن للجنين حياةً تقديرية يجب احترامها، ويحرم الاعتداء
عليها بالإجهاض، أو الإسقاط، أو الضرب، أو الدواء المفضي إلى قتله، أو
سقوطه، وجعلت في قتله والجناية عليه ديةً مقدّرةً بخمسٍ من الإبل؛ ففي
الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنّ امرأتين من هذيل، رمت إحداهما الأخرى
فطرحت جنينها، ف قضى رسول الله ﷺ فيها بغرة عبدٍ أو أمةٍ»^(٣).

كما جاءت الشريعة - أول ما جاءت - بتحريم قتل الأولاد، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

(١) أخرجه البخاري، (٥٠٦٣).

(٢) أخرجه البخاري، (٥٠٧٤)، ومسلم، (١٤٠٢).

(٣) أخرجه البخاري، (٦٩٠٤)، ومسلم، (١٦٨١).

وجاءت الشريعةُ بكراهة العزل عند الجماع مع إباحته للحاجة^(١).
وفصّل الفقهاءُ في أحكام الإجهاض والإسقاط بعد اتفاقهم على منعه بعد
نفخ الروح بلا عذرٍ معتبرٍ شرعاً.

وإذا كانت بلاد المسلمين تشتكي من وجود حالاتٍ نادرة من الإجهاض؛
فإن إحصاءاتٍ تقول: إن هناك أكثر من مليون حالة إجهاض جنائي في أمريكا
كلّ عام، وفي إسبانيا والبرتغال نفس العدد، وفي اليابان مليوني حالة، وفي الاتحاد
السوفيتي السابق وأوروبا الشرقية بضعة ملايين^(٢).

ثالثاً: حفظ الأعراض وصيانة الأنساب:

وذلك لأن القذف بالزنا يتضمّن طعنًا في نسب الولد الذي رُميت أمّه بالزنا.
وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وفي حديث السبع الموبقات: «... وَقَذْفَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(٣).
وقد جاءت الشريعة بحفظ الأنساب وحُرمة الطعن فيها بغير سبب، وحفظ
النسب في الإسلام هو حفظٌ للنسل، ولأجل حفظ الأنساب حُرّم الزنا، قال
تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].
وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

«وتُعاقبُ الشريعة الإسلامية على الزنا باعتباره مأساً بكيان الجماعة وسلامتها؛
إذ إنه اعتداءٌ شديدٌ على نظام الأسرة، والأسرة هي الأساس الذي تقوم عليه الجماعة،

(١) شرح مسلم، للنووي، (١٠/١٧).

(٢) خلق الإنسان، د. محمد علي البار، (ص ٤٣٢-٤٣٣).

(٣) أخرجه البخاري، (٢٧٦٦) ومسلم، (٨٩).

ولأن في إباحته إشاعةً للفاحشة، وهذا يؤدي إلى هدم الأسرة، ثم إلى فساد المجتمع وانحلاله، والشريعة تحرص - أشدَّ الحرص - على بقاء الجماعة متماسكةً قويةً^(١).
كما حرَّمت الشريعة كلَّ أسباب الزنا وذارئعه؛ كالنظر، والخلوة، والمصافحة. وحفظُ النسب له ارتباطٌ بحياة المجتمع بأسره؛ فهو مرتبطٌ بحق الحضانة وانتقالها من أهل الأم إلى أهل الأب، عبر ترتيبٍ شرعيٍّ، وله تعلقٌ بموانع النكاح، ومن تباح للرجل من النساء، ومن تحرُّم عليه حرمةٌ مؤبَّدة.
وله تعلقٌ أيضًا بصلة الرحم والقيام بحقوق الوالدين والإحسان إلى قرابتهما، فإذا اختلطت الأنساب لم يتحقق من تلك المصالح شيء.
ولم تكن قسمة الميراث بالطريقة الشرعية التي أمر الله؛ لأنها تُبنى على الأنساب، وغير ذلك من مستلزمات شرعية.
ولذا كان من الكبائر: الانتسابُ إلى غير الوالد والعائلة والقبيلة، أو نفْيُ النسب على خلاف الواقع، والحقيقة، وفي الحديث قال ﷺ: «ليس من رجلٍ ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر»^(٢).
وفي الحديث أيضًا قال ﷺ: «لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر»^(٣).

وقد أبطل الإسلامُ التَّبَنِّيَّ، فقال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

(١) التشريع الجنائي الإسلامي، لعبد القادر عودة، (٢/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري، (٣٥٠٨) ومسلم، (٦١).

(٣) أخرجه البخاري، (٦٧٦٨)، ومسلم، (٦٢).

المقصد الرابع: حفظُ العقل:

العقل خصيصة الإنسان الكبرى، وميزته العظمى، التي بها فُضِّلَ على العجماوات. فالعقل مناطُ التكليف، وهو أساس المسؤولية الدينية والدنيوية، وقد عُنيَت الشريعةُ بحفظه وحمايته على النحو التالي:

أولاً: تكريم العقل ورعايته:

لقد رفع الوحي من قيمة العقل وحثَّ على التعقل وأثنى على أهله، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وجاءت الدعوة إلى التعقل، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [النساء: ٨٢].

وجاء الخطاب إليهم مراراً، فقال تعالى: ﴿وَأَتَقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ويقدِّمُ الشرع أولي الألباب على غيرهم، وفي الحديث قال ﷺ: «لِيَلْنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثم الذين يُلُونَهُمْ - ثلاثاً»^(١).

قال النووي - تعليقاً على حديث: «يأتي في آخر الزمان قومٌ حُدثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفْهَاءُ الْأَحْلَامِ، يقولون من خير قول البرية، يَمْرُقُونَ من الإسلام كما يَمْرُقُ

(١) أخرجه مسلم، (٤٣٢).

السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ»^(١) -: «يستفاد منه: أن الثَّبْتَ وقوة البصيرة تكون عند كمال السن، وكثرة التجارب وقوة العقل»^(٢).

ثانياً: تحرير العقل من معوقاته وتوظيفه في مجالاته:

ومن ذلك: ذمُّ التقليد الأعمى الذي هو حجاب العقل وغطاء الفهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ هُمُ الْيَاقُونَةُ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

كما نهى عن اتباع الهوى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وقد وَجَّهَ الوحيُّ العقلَ فيما لا طاقةَ له عليه، وأمر الله تعالى أصحابَ العقول والفهوم بطلب العلم والاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، ونهى عن خوض العقل في الأمور الغيبية التي لا تدخُلُ له فيها، وفي الحديث: «تفكَّروا في آلاءِ الله، ولا تفكَّروا في الله»^(٣).

وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى أحمرَّ وجهه، حتى كأننا فُقِمَى في وجنتيه الرُّمَّانُ، فقال: أبهذا أُمِرْتُمْ، أم بهذا أُرْسِلْتُ إليكم؟ إنما هلك مَنْ كان قبلكم حين

(١) أخرجه البخاري، (٣٦١١)، ومسلم، (١٠٦٦).

(٢) نقله عن النووي ابن حجر في فتح الباري، (٢٨٧/١٢).

(٣) العظيمة، لابن حيان الأصبهاني، (١/٢١٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، (٢٩٧٥).

تنازعوا في هذا الأمر، عزمْتُ عليكم ألا تتنازعوا فيه»^(١).

ومثل هذا حقيقة الروح وكنهها، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]^(٢).

ثالثاً: اعتبار العقل مناط التكليف:

كُلُّ تكليفٍ مُنَاطٌ بأمرين: العقل، والقدرة.

والعقل الذي يُعتبرُ هو: عقلُ البالغ، فصار التكليف من جهة العقل يُعتبرُ فيه البلوغُ بأماراته المعروفة؛ فإن كان صبيّاً دون البلوغ لم يُكَلَّفْ، وفي الحديث: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الطِّفْلِ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَبْرَأَ»^(٣).

وإذا كان العقلُ مناطَ التكليف فقد وجب حفظُهُ وصيانته؛ لأنه ضرورة لا تستقيم حياة بدونها^(٤).

ومما تجدر ملاحظته أن العقل الممدوح شرعاً ليس هو مناط التكليف، وإنما هو العقل الذي يحمل الإنسان على الانتفاع بالعلم، والاستقامة، وإدراك مصالحه الأخروية والدينية، والسعي إليها.

رابعاً: حماية العقل من المسكرات والمخدرات:

لَمَّا كان التقليد، والهوى، والتعصب من أسباب حجب العقل معنوياً جاء في الشرع المنع منها، ولما كانت الخمر والمسكرات من أسباب حجب العقل مادياً جاء تحريمه في شريعة ربِّ الأرض والسموات.

(١) أخرجه الترمذي، (٢١٣٣).

(٢) طريق الهداية، (ص ٢٥٥-٢٦٠).

(٣) أخرجه أحمد، (١١٨٣)، وأبو داود، (٤٤٠٣).

(٤) الإسلام وضرورات الحياة، (ص ٩٥).

كل ذلك حمايةً للعقل أن يغيب أو أن يفقد.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ

لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفي الحديث: «كلُّ مسكرٍ خمرٌ، وكلُّ خمرٍ حرامٌ»^(١).

وإذا تأمل الإنسان في أضرار الخمر المادية والمعنوية عرف وتيقن أنها أم

الخبائث الدينية والدنيوية على حدٍّ سواء.

فهي أضُرُّ شيء بصحة الإنسان وأسوأ شيء أثرًا على عقله وإدراكه وفهمه.

وقد حاول الغرب لها منعًا فازداد الناس بها ولعًا؛ لأنَّ التحريم والتجريم

البشري لا يبلغ مبلغ التحريم الشرعيِّ الإلهيِّ.

ولأنَّ العقوبة الشرعية ليست كالوضعية، ولأنَّ هداية الإسلام للعقول

وإرشاده لها تجعلها تأبى أن تغيب، أو تقبل بأن تُغيب.

المقصد الخامس: حفظ المال:

المال عطاء الله الذي استخلف عباده فيه، وجعله محببًا للقلوب مزيّنًا

للفوس، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ

مَتَكِّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد حفظت الشريعةُ المالَ، وأحاطته بسياج من التشريعات التي تصونه

وتستثمره لنفع البشرية، وذلك على ما سيأتي بيانه:

(١) أخرجه مسلم، (٢٠٠٣).

أولاً: إباحة اكتساب المال من حِلِّهِ:

قال تعالى: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْنِعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ

رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لِلَّهِ الْبَيْعُ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقد اعترفت الشريعة بغريزة حب المال والتملك، قال تعالى: ﴿الْمَالُ

وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وأكدت على أن الإنسان مستخلف فيه؛ لينفقهُ في وجوهه المباحة، قال تعالى:

﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ

الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ

وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة

والصناعة وغير ذلك»^(١).

وقد حثَّ النبي ﷺ على الكسب والعمل في قوله: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ

كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»^(٢).

(١) تفسير القرطبي، (١٣/١٤).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٥٢٩٦)، والترمذي، (١٣٥٨)، وابن ماجه، (٢٢٩٠)، وقال الترمذي: حسن.

ونهى ﷺ عن المسألة، فقال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله، وليس في وجهه مزعة لحم»^(١).

وقد عمل الأنبياء - جميعاً - فرعوا الغنم، وباشروا الزراعة، والتجارة، والصناعة، وغيرها من المهن الشريفة. ومن أبواب اكتساب المال الحلال ما يلي:

١ - ما يعطاه الإنسان من بيت مال المسلمين من زكاة أو فية، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَانَهُكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

٢ - الإرث، وهو: ما ينال الإنسان من مال بسبب موت مورثه، وفيه آيتا سورة النساء (١١ - ١٢).

وفي الحديث: «مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ»^(٢).

٣ - الوقف، وهو: حبس أصلٍ وتحيس منفعتِهِ طلباً للثواب، وهو سنة متأكدة في حق أصحاب اليسار من الغنى، وبه عمل عامة الصحابة رضي الله عنهم من أصحاب الأموال. فَمَنْ ناله شيءٌ من مصارف الوقف بحسب شرط الواقف صحَّ تحويله لهذا المال.

(١) أخرجه البخاري، (١٤٧٤)، ومسلم، (١٠٤٠).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٧٦٣)، ومسلم، (١٦١٩).

٤ - ما يعطاه الإنسان على وجه الهدية، أو من غير مسألة، كما في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «قد كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرةً مالا، فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال رسول الله ﷺ: خُذْهُ، وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ، وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ» ^(١).

وقد بينت الشريعة وجوه إنفاق المال الواجبة والمستحبة، وما فيه من الزكاة والصدقة، وغيرها من أبواب النفقة.

ثانياً: بينت الشريعة المكاسب المحرمة إجمالاً وتفصيلاً:

وبينت أن الإنسان مسئول بين يدي الله عن ماله؛ من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وفي الحديث: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» ^(٢).

كما نهت الشريعة عن المكاسب المحرمة والخبيثة إجمالاً، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وفي الحديث: «من اقتطع حقَّ امرئٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرَّم عليه الجنة، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك» ^(٣).

(١) أخرجه البخاري، (٧١٦٤)، ومسلم، (١٠٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي، (٢٤١٧)، والدارمي، (٥٥٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم، (١٣٧).

وقال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ - هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ - لَقِيَ اللَّهَ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» ^(١).

وقد جاء تحريم السرقة قطعياً، وأنها من الكبائر، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

وفي الحديث: «لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده» ^(٢).

كما جاء تحريم الربا صريحاً في القرآن والسنة، وعليه انعقد الإجماع: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رَأْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٧٩﴾.

وفي الحديث: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء» ^(٣).

وأحكام الشريعة تتناول تحريم الرشوة، وكسب البغاء، وأجور الكهان، وكل بيع محرّم، وبيع ما عبّد من دون الله من الأصنام، كما تناولت النهي عن احتكار الطعام، وتحريم البيع على البيع، والنّجس، وغيره من أنواع البيوع الفاسدة.

(١) أخرجه البخاري، (٦٦٧٧)، ومسلم، (١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٧٨٣)، ومسلم، (١٦٨٧).

(٣) أخرجه مسلم، (١٥٩٨).

ثالثاً: إنفاق المال في حقه:

لقد ضبطت الشريعة أمر إنفاق المال عبر مجموعة من القواعد الحاكمة من أهمها: القاعدة الأولى: عدم جواز الإنفاق في المحرمات كالخمر، والزنا، والرشوة، وسائر المحرمات بأصل حكمها، وقد تقدمت إشارة إلى ذلك.

القاعدة الثانية: حرمة التبذير والإسراف في الإنفاق، وفي هذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد نهى ﷺ عن إضاعة المال.

والحقوق المالية معدودة، أهمها:

١ - أداء الزكاة المفروضة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۖ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

٢ - أداء النفقات الواجبة:

وهي أنواع متعددة، منها:

الزوجة، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧].

وقال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِّن حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ [الطلاق: ٦].

والمطلقة الرجعية لها نفقة واجبة - أيضاً -، والمطلقة الحامل حتى تضع حملها، والحاضنة لأولادها، وكذا للمرضعة نفقة واجبة على الوالد، كما دللت على ذلك آيات وأحاديث متعددة.

ومنها: النفقة على الأولاد، والعيال (وهم من يعولهم الإنسان من والد، أو والدته، أو قريب، أو فقير).

وفي الحديث: «أبدأ بمن نعول، أمك، وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك»^(١).
وفي الحديث عن أبي مسعود الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «إذا أنفق الرجل على أهله محتسبها فهو له صدقة»^(٢).

وعن الشعبي قال: «إن من النفقة التي تضاعف تسعمائة ضعف: نفقة الرجل على نفسه، وعلى أهل بيته»^(٣).

٣- قضاء الديون وأداؤها، أو التصدق على المعسرين بها:

وهذا واجب إلا على من كان معسراً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].
وفي الحديث: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله»^(٤).

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى، (١٧٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري، (٥٥)، ومسلم، (١٠٠٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال، (٥٠٥).

(٤) أخرجه البخاري، (٢٣٨٧).

ويدخل في هذا الباب: رَدُّ الودائع المالية إلى أهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

٤ - الضيافة الواجبة:

ومنها: ما هو حق واجب، ومنها: ما هو مسنون مندوب؛ فمن الحق الواجب: إضافة الضيف ليوم وليلة.

ففي الحديث قال ﷺ: «ليلة الضيف حق على كل مسلم»^(١).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: «قلنا: يا رسول الله، إنك تبعثنا، فنزل بقوم فلا يقروننا، فما ترى؟ فقال ﷺ: إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»^(٢).

فهي واجبة عند بعض الفقهاء كالظاهرية، لا سيما على أهل البوادي ونحوهم، وهي سنة عند أكثرهم؛ لقوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ، قَالُوا: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ»^(٣).

ثم إن التوسع في المال بالمباحات من المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والمراكب حلال؛ لعموم قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿[الأعراف: ٣٢].

(١) أخرجه أحمد، (١٧١٧٢)، وأبو داود، (٣٧٥٠).

(٢) أخرجه البخاري، (٦١٣٧)، ومسلم، (١٧٢٧).

(٣) أخرجه البخاري، (٦٠١٩)، ومسلم، (٤٨).

وذلك ما لم يخرج هذا عن حدِّ الاعتدالِ إلى الإسرافِ، أو التبذيرِ، أو حياةِ الترفِ المذمومِ.

وهكذا فهذه الضروراتُ الخمسُ - التي تمثل أهمَّ حقوقِ الإنسانِ في الحياة - تدور على حفظها سائرُ تشريعاتِ الإسلام؛ فمن التزمها أكرمهُ اللهُ بالسعادة في الحياة الدنيا والنجاة في الآخرة، وَمَنْ تَنَكَّبَهَا شَقِيَ في الدنيا بمقدارٍ ما أعرض عن هدي الله، وناموسِهِ العادلِ والكاملِ^(١).



(١) تعرف على الإسلام، منفذ السقار، (ص ٤٦).



الفصل العشرون..

أخلاق الإسلام وآدابه



أخلاق الإسلام وآدابه

أولاً: الأخلاق الإسلامية:

الأخلاق الفاضلة في الإسلام بمنزلة سامية، فهي من جملة ما بُعث لأجله نبينا ﷺ، وقد قال - عن نفسه -: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(١). وهو مُتَمِّمُهَا بقوله وفعله وخُلُقُه ﷺ، وقد قال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وعلى هذا أكَّدت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي قالت: «كان خُلُقُه القرآن»^(٢).

وهو الذي قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»^(٣). ولأهمية الأخلاق من الإسلام، وثقلها في ميزان الحق يوم القيامة، قال ﷺ: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ»^(٤).

(١) أخرجه أحمد، (٨٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد، (٢٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٧٦٩).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٤٦٠١).

(٣) أخرجه البخاري، (٣٥٥٩)، ومسلم، (٢٣٢١).

(٤) أخرجه أبو داود، (٤٧٩٩)، والترمذي، (٢٠٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد، (٤٦٤)، وأبو نعيم في

حلية الأولياء، (٥/٢٤٣).

وفي الحديث الآخر: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحَسَنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(١). وما ذلك إلا لارتباطها بالإيمان، فهي جزء منه، وبعض شعائره وشرائعه، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.

يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَّا قَالَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»^(٢) وكان ﷺ يقول: «خَصْلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: الْبَخْلُ وَسَوْءُ الْخُلُقِ»^(٣). وحسنُ الخلق يعني: التحلّي بالفضائل والمكارم، والتزین بالمحاسن في معاملة الخلق.

وقد قال ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٤).

وفيما يلي نماذج للأخلاق الإسلامية الفاضلة:

١ - خلق الصدق:

الصدق هو مطابقة الخبر للواقع، أو مطابقة ما نطق به اللسان لما هو في الحقيقة والعيان، وهو مطابقة الظاهر للباطن، فالصادق مع الله ومع الناس ظاهره كباطنه. وقد أثنى الله تعالى في كتابه على أهل الصدق، ودعا إليه، فقال - تعالى ذكره -

(١) أخرجه أحمد، (٢٥٥٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٧٦٣٣).

(٢) أخرجه أحمد، (١٢٣٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٤٠٤٥).

(٣) أخرجه الترمذي، (١٩٦٢)، والبخاري في الأدب المفرد، (٢٨٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، (١٠٣٣٦).

(٤) أخرجه الترمذي، (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح.

: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقد وردت أحاديث كثيرة تأمر بالصدق وتحث عليه، منها:

قوله ﷺ: «عليكم بالصدق!؛ فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب!؛ فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١).

وللصدق مظاهر يتجلى فيها، وينبغي أن يتحلى بها كل مسلم، منها:

١ - صدق الحديث؛ فالمسلم إذا حدَّث لا يُحدِّث بغير الحق والصدق؛ إذ كذب الحديث من النفاق وعلاماته، قال ﷺ: «آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوْتمن خان»^(٢).

٢ - صدق المعاملة؛ فالمسلم إذا عامل أحداً صدق في معاملته، فلا يغش، ولا يخدع، ولا يزور، ولا يُغرر بحال من الأحوال.

٣ - صدق العزم؛ فإذا عزم على فعل ما ينبغي فعله لا يتردد في ذلك، بل يمضي في عمله غير ملتفتٍ إلى شيء، أو مبالٍ بأحد حتى ينجز عمله.

٤ - صدق الوعد؛ فالمسلم إذا وعد أحداً أنجز له ما وعده به؛ إذ خُلف الوعد من آيات النفاق، كما سبق في الحديث الشريف.

٥ - صدق الحال؛ فالمسلم لا يظهر في غير مظهره، ولا يُظهر خلاف ما يبطن، فلا

(١) أخرجه مسلم، (٢٦٠٧).

(٢) أخرجه البخاري، (٣٣)، ومسلم، (٥٩).

يلبس ثوب زور، ولا يُرائي، ولا يتكلّف ما ليس له؛ لقول الرسول ﷺ: «المتشبع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور»^(١)، قال الإمام النووي: «قال العلماء: معناه المتكثّر بما ليس عنده بأن يُظهر أن عنده ما ليس عنده؛ يتكثّر بذلك عند الناس، ويتزين بالباطل، فهو مذموم، كما يُذم من لبس ثوبي زور، قال أبو عبيد وآخرون: هو الذي يلبس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع»^(٢).

٢ - خلق التواضع:

التواضع هو هضم النفس، والوضع من قدرها، وعدم الكبر، فالكبر والإعجاب بالنفس مذمومان، فينبغي للمؤمن أن يتواضع في غير مذلة ولا مهانة، وأن يتراحم مع المؤمنين، ويرأف بهم، ويرحمهم ويلين لهم.

قال الله تعالى في جزاء المتواضعين: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، كما أمر الله نبيه ﷺ بالتواضع، فقال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وقال - عز من قائل - في الثناء على أوليائه بوصف التواضع فيهم -: ﴿مُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وها هو النبي محمد ﷺ يقول - في رسالته لهرقل ملك الروم -: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم»^(٣).

فعلى المسلم أن يلزم التواضع في الخطاب مع الناس، ولا يتكلم معهم

(١) أخرجه البخاري، (٥٢١٩)، ومسلم، (٢١٣٠).

(٢) شرح مسلم، للنووي، (١٥٧/١٤).

(٣) أخرجه البخاري، (٧)، ومسلم، (١٧٧٣).

بأسلوب المتعالي المتكبر؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(١)، «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»^(٢).

وقد ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في التواضع، فذكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنه كان بشراً من البشر، كان يُفَلِّي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه^(٣)، يخصف النعل، ويرقع القميص^(٤)، ويخدم أهله^(٥)، وكان لا يعيب طعاماً^(٦)، وكانت الأمة تأخذ بيده، فتنطلق به حيث شاءت^(٧).

ومع علو مكانته ﷺ فإنه حين رأى رجلاً يرتعد منه يظن أنه كملوك الأرض، فقال له رسول الله ﷺ: «هَوْنٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قَرِيشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»^(٨).

وإقراره ﷺ بما كانت عليه أمته من الفقر، أو خشونة العيش، يزيد من إكباره وإجلاله في نفس سامعه، ولا يضره شيئاً، ويدرب أصحابه بذلك على عدم التعالي على الخلق، باستحضار جوانب من بشريتهم، أو سابق حالهم، ويذكّرهم

(١) أخرجه مسلم، (٢٨٦٥).

(٢) أخرجه مسلم، (٢٥٨٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، (٨ / ٣٣١).

(٤) أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق، (٧٧ / ٤).

(٥) أخرجه البخاري، (٦٧٦).

(٦) أخرجه مسلم، (٢٠٦٤).

(٧) أخرجه البخاري، (٦٠٧٢).

(٨) أخرجه ابن ماجه، (٣٣١٢)، والحاكم، (٣٧٣٣).

أنهم - جميعاً - بنو آدم، وآدم من تراب، وأنَّ أكرمهم عند الله أتقاهم^(١).

ومن مظاهر التواضع ما يلي:

أ- مجالسة الفقراء والمساكين والمرضى، وأصحاب العاهات، وإجابة دعوتهم والأكل معهم ومماشاتهم في طريقهم.

ب- السعي في حاجات المسلمين، وإجابة دعوتهم وإكرامهم.

ج- ألاَّ يتقدَّم الرجل على أمثاله، بل يتأخَّر عنهم.

د- أن يزور من هو دونه في الفضل، ويحمل متاعه معه، ويمشي في حاجته.

هـ- عدم الإسراف في المطعم والمشرب، وعدم الخيلاء في الملبس والمسكن.

و- قبول النصيحة من أيِّ أحد، وعدم ردِّ الحق بعد تبينه.

أمثلة عالية للتواضع:

أ- كان رسول الله ﷺ يوم غزو بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، وحين دخل مكة فاتحاً دخل منكس الرأس؛ تواضعاً لربه، واعترافاً بنعمته.

ب- عُرف عن ناقة رسول الله ﷺ السرعة، ومع ذلك فقد سبقتها مرة ناقة أعرابي، وشقَّ ذلك على الصحابة، ولكن النبي ﷺ لم يُعَنِّفْهُ ولم يُبَكِّتْهُ، بل قال ﷺ: «حَقُّ على الله ألاَّ يرتفع شيءٌ من الدنيا إلاَّ وُضِعَهُ»^(٢).

ج- كان النبي ﷺ يخدم أهله، وهو القادر على أن يستعين بالخدم، وكان يُسَلِّم على الصبيان الذين يلقاها في الطريق، وهو الذي تهابه الملوك.

د- رُوي أن علياً رضي الله عنه اشترى تمرًا فحمله في ملحفته، قال له رجل: أحمل عنك

(١) هذه أخلاقنا، لمحمود الخازندار، (ص ٣٤٥ - ٣٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، (٢٨٧٢).

يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل^(١).

هـ- روي أن أبا هريرة رضي الله عنه أقبل من السوق يحمل حزمة حطب - وهو يومئذ أمير بالمدينة لمروان بن الحكم - ويقول: أوسعوا للأمير ليمر، وهو يحمل حزمة الحطب على ظهره.

و- روي أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف، وكان يكتب، فكاد السراج يُطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال عمر: ليس من كرم الرجل أن يستخديم ضيفه، فقال الضيف: إذن أنبئ الغلام؟ فقال عمر: إنها أول نومة نامها فلا تُنبئه، وقام عمر وملاً المصباح زيتاً، ولما قام قال له الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فأجابه قائلاً: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعاً.

٣- خلق الأمانة:

حين تستقيم الفطرة وتسلم من اتباع الهوى تتمثل في صاحبها بخلق الأمانة. والأمانة تشمل جميع ما يحمله الإنسان من أمور دينه ودنياه قولاً وفعلًا، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وإن أغلى ما يرزق الله العبد به، ولا يحزن العبد بعده على أيّ عرضٍ من الدنيا، ما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليفة، وعفة في طعمة»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، (١٣٣).

(٢) أخرجه أحمد، (٦٦٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٤٨٧٩).

فالأمانة ركن من هذه الأركان الأخلاقية الأربعة، التي لا يعدلها شيء في الدنيا، بل قد تكون سبباً في إقبال الدنيا على العبد؛ لما يجدُّ الناس فيه من الأمانة. والأمانة صفة مميزة لأصحاب الرسالات، فقد كان كل نبيٍّ يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولُ أَمِينٍ﴾ [الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨].

وُلِّقَ رسول الله ﷺ - قبل البعثة وبعدها- بالصادق الأمين، وكان المشركون يضعون أماناتهم عنده ﷺ، حتى ليلة الهجرة - وهم يريدون قتله - أمر علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يبيتَ على فراشه وأن يردَّ الأماناتِ التي عنده لأهلها. وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ، وَوَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَسَقَى لِلْمَرَأَتَيْنِ، رَجَعَتِ الْمَرَأَتَانِ إِلَى وَالدَّهْمَا تَخْبِرَانِهِ بِخَبْرِهِ، وَتَصِفُ إِحْدَاهُمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهَا: ﴿يَتَأَبَّأُ اسْتَعِجْرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَعِجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وفي الحديث: «وُتِّرَ سَلُّ الْأَمَانَةِ وَالرَّحْمُ، فَتَقُومَانِ جَنْبَيْ الصَّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا»^(١).

وهنيئاً لمن قام بحق الأمانة فجاز الصراط غير خائفٍ ولا وَجِلٍ، والحسرة والندامة - حيث لا تنفع حسرة ولا ندامة - على من تساهل فخان، وسقط فغدر. ومن الصور العملية للأمانة:

أ- أن تنصحَ من استشارك، ففي الحديث: «المستشارُ مؤتمَنٌّ»^(٢)، وقال:

(١) أخرجه مسلم، (١٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود، (٥١٢٨)، والترمذي، (٢٨٢٢)، وابن ماجه، (٣٧٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٤٨٨٨)، وحسنه الترمذي.

«وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ»^(١).

ب- حفظُ أسرار الناس، وسترُ عوراتهم؛ لقوله ﷺ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثَمَ التَّفَتَ فِيهِ أَمَانَةٌ»^(٢).

ج- إتقان العمل، وكتمان أسرارهِ وخصائصهِ.

ومن مخاطر الأزمان المتأخرة: اضطرابُ الموازين، وفسادُ القيم، وقد خشي رسولُ الله ﷺ من انتشارِ الخيانة بعد قرونٍ الخير، فقال: «إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ»^(٣).

وقال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فانتظرِ السَّاعَةَ، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فانتظرِ السَّاعَةَ»^(٤).

٤ - خلق الشجاعة:

من سنن الله في كونه: أن جعل أمرَ الدين لا يقوم إلا بالشجاعة، وحين يجبن أهل الحق يستبدل بهم قومًا غيرهم، ولمَّا كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والتضحية بالمال، بيّن - سبحانه - أن مَنْ تولى عن الجهاد بنفسه والتضحية بهاله، أبدل اللهُ به من يقوم بذلك، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

والشجاعةُ خلقٌ إسلاميٌّ قويمٌ، وهي تنبع من غرائز فطرية، وتقوِّها التربيةُ

(١) أخرجه أبو داود، (٣٦٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود، (٤٨٦٨)، و الترمذي، (١٩٥٩)، وقال: حديث حسن.

(٣) أخرجه البخاري، (٢٦٥١)، ومسلم، (٢٥٣٥).

(٤) أخرجه البخاري، (٦٤٩٦).

الجهادية بالمران، والتدريب، وخوض المواقف، حتى يكتسب الشاب هذا الخلق. وعلى العكس؛ فإن شدة التعلق بالدنيا وزيتها تنقلب على صاحبها داعية إياه إلى التخوف على مصالحه، والجبن عن خوض المعارك، والفرق بين نفسية الشجاع والجبان ملحوظ وظاهر، فإن الشجاع منشرح الصدر، والجبان أضيّق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا^(١).

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في الشجاعة، فقد وصفه الصحابة رضي الله عنهم فقالوا: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس»^(٢).

وقال البراء - في حديثه عن يوم حنين -: «كُنَّا - والله - إذا احمرَّ البأسُ نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به - يعني: النبي ﷺ»^(٣) لِمَا كانوا يرون من شجاعة رسول الله ﷺ.

ولا ينبغي للمؤمن أن يُريَ عدوّه من نفسه جبنًا، حتى إن الصحابي الشهيد حُبيبا لما صلى ركعتين قبل قتله، قال للمشركين: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدتُ^(٤)، فانظر إلى حاله رضي الله عنه ما الذي يشغل باله وهو مقبلٌ على الموت، يخشى إن أطل في الصلاة أن يُلصقَ بالمسلمين شبهة الجزع والجبن.

وشجاعة المؤمن تتبدى على أعدائه، وفي جرأته الأدبية في نصح إخوانه، وفي

(١) زاد المعاد، لابن القيم، (١/ ١٨٧).

(٢) أخرجه البخاري، (٣٠٤٠)، ومسلم، (٢٣٠٧).

(٣) أخرجه مسلم، (١٧٧٦).

(٤) أخرجه البخاري، (٣٩٨٩).

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتخرج الشجاعة عن حدِّ القصد حين تكون على الإخوة والأصدقاء، وعلى المساكين والضعفاء.

والشجاعة مطلوبة عند الصدع بالحق، والنصح لأولي الأمر بأدب إسلامي رفيع؛ فإنه لا يُباعِدُ من رزقٍ، ولا يُقَرِّبُ من أجلٍ قول الحق بشجاعة عند سلطانٍ أو وليٍّ جائرٍ، قال ﷺ: «أفضل الجهاد: كلمة حق عند سلطان جائر»^(١).

وتأمل أحوال صحابة رسول الله ﷺ وما بذلوه في المعارك والغزوات مع رسول الله ﷺ وبعده، فيها هو جعفر بن أبي طالب وفي جسده بضع وتسعون ضربة، ما بين طعنة ورمية، ليس فيها شيء في ظهره، وذلك في سرية مؤتة، وهذا خالد بن الوليد سيف الله يقول: لقد اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، وغيرهم من الصحابة كثير.

٥ - خلق الكرم:

السخاء خلق المسلم، والكرم شيمته، وبين الكرم والتضحية صلة وثيقة، فالمجاهد يجود بنفسه، وهذا غاية الجود، والمتحرر من شهوة المال الباسط يده في أبواب الخير والإحسان يكون أقدر على الجهاد ممن وقع في أسر المال؛ لِمَا يُوَصِّلُهُ الكرم في النفس من معاني التضحية والإيثار.

والكرم له أوجه كثيرة، وبذل المال في غيرها قد لا يكون كرمًا؛ لذلك قيل: الجود في الشرع إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، وهو أعم من الصدقة، وضده الشح الذي يعني: البخل مع مزيد من الحرص، والمسلم لا يكون شحيحًا ولا بخيلًا؛ إذ الشح

(١) أخرجه أحمد، (١١١٤٣)، وأبو داود، (٤٣٤٤)، والترمذي، (٢١٧٤)، وابن ماجه، (٤٠١١).

والبخل خُلُقَانِ ذَمِيَّانِ منشُؤُهُمَا حُبُّ النَّفْسِ، وظَلَمَةُ الْقَلْبِ، والشَّحُّ مَرَضٌ قَلْبِيٌّ عَامٌّ لَا يَسْلَمُ مِنْهُ الْبَشَرُ إِلَّا الْمُسْلِمُ بِإِيْمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ - كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ - يَقِيهِ اللَّهُ تَعَالَى شَرَّ هَذَا الدَّاءِ الْوَبِيلِ؛ لِيَعِدَّهُ لِلْفَلَاحِ وَيَهَيِّئَهُ لِلْفَوْزِ الْآخِرِيِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٥]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُتِمِّيَ هَذَا الْخُلُقَ وَيَتَخَلَّقَ بِهِ فِي ضَوْءِ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ نَصُوصٍ، فَفِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفَسَافَهَا»^(١).

وَفِي الْحَدِيثِ - أَيْضًا -: «مَا مِنْ يَوْمٍ يَصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ؛ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مَنْفَقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مَسْكًا تَلْفًا»^(٢). وَأَعْظَمُ صُورِ الْكَرَمِ: مَا يَكُونُ مَعَ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ وَقَلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ، وَهَذِهِ كَانَتْ مِنْ أَخْلَاقِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَهْلُ الْإِيمَانِ بِهَا أُولَى. وَمِنْ الصِّفَاتِ الْمُمَيِّزَةِ لِمَنْ تَأَصَّلَتْ فِيهِ خَصْلَةُ الْكَرَمِ: أَنَّهُ لَا يَرُدُّ أَحَدًا يَسْأَلُهُ،

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَارِيخِ دِمَشْقَ، (٢٨٩/١٤).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، (١٤٤٢)، وَمُسْلِمٌ، (١٠١٠).

وقد كان هذا حال رسول الله ﷺ ما سُئِلَ عن شيءٍ قطُّ، فقال: لا^(١)، فقد: «أُهِدِيتُ إِلَيْهِ بُرْدَةٌ وَكَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَرَأَاهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْسَنَ هَذِهِ! فَكُتِسْنِيهَا، قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ لَامَهُ أَصْحَابُهُ، قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ: أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهُ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبَسَهَا النَّبِيُّ ﷺ لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا»^(٢).

ومن مظاهر الكرم:

- ١- أن يعطي الرجل العطاء من غير منٍّ ولا أذى.
 - ٢- أن يفرح بالسائل الذي يسأله، ويُسرَّ لعطاءه.
 - ٣- أن ينفق من غير إسرافٍ ولا تقتيرٍ.
 - ٤- أن يعطي الكثير من كثيره، والمقل من قليله في رضا نفسٍ، وطيب قولٍ.
- وخلق الكرم يحبه الناس، وتفتح له قلوبهم، فضلاً عن حب الله له.
- وإن في تأمل الحياة العملية للرسول القدوة ﷺ ما يُفجِّرُ معاني الجودِ والكرم في قلب المتَّبِعِ المحبِّ، جاء في الحديث: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناسِ، وأجودَ الناسِ، وأشجعَ الناسِ»^(٣) و«كان رسول الله ﷺ أجودَ الناسِ، وكان أجودَ ما يكون في رمضان... فلرَسُولُ الله ﷺ أجودُ بالخير من الريحِ المرسلة»^(٤).

(١) أخرجه البخاري، (٦٠٣٤).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٠٣٦).

(٣) أخرجه البخاري، (٣٠٤٠)، ومسلم، (٢٣٠٧).

(٤) أخرجه البخاري، (٦)، ومسلم، (٢٣٠٨).

وجوده ﷺ هذا كان سبب إيمان ومحبة الكثيرين من أصحابه وأعدائه، واحترام العدو والصديق.

وعلى حملة الدعوة من ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة أن تكون الدنيا أحقر ما تكون في أعينهم؛ لتفيض بها أيديهم، وليعم الخير من حولهم^(١).

ثانياً: الآداب الإسلامية:

للمسلم أدب يميزه عن غيره، وله هديّ وسمت يخصه، والآداب مع الأخلاق تصبغ شخصية المسلم بصبغة الجمال والكمال البشري، والتأمل في الآداب الإسلامية يؤكد على عظمة الإسلام وراقي تعاليمه، وحرصه على سمو أتباعه، وفيما يلي جملة من الآداب الإسلامية الكريمة:

١ - الأدب مع القرآن الكريم:

إن المسلم يؤمن بقدسية كلام الله تعالى وشرفه وأفضليته على سائر الكلام، ويعتقد بأن القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تكلم به الله حقاً، وفي الحديث: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(٢).

وعلى المسلم أن يراعي جملة من الآداب مع القرآن الكريم، ومنها:

أ- أن يقرأه على أكمل الحالات، من طهارة وتسوّل، واستقبال للقبلة، وأدب ووقار.

ب- أن يتحرى الإخلاص عند تعلمه وتلاوته، وأن يحسن صوته به.

ج- أن يعمل بما فيه من أحكام وشرائع، وألا يطلب الدنيا به.

(١) هذه أخلاقنا، (ص ٥٠٦-٥٠٧).

(٢) أخرجه البخاري، (٥٠٢٧).

- د- أن يرنّله ولا يسرع في تلاوته، فلا يقرؤه في أقل من ثلاث ليالٍ.
- هـ- أن يلتزم الخشوع عند تلاوته، ويتدبره، ويظهر الحزن فيكي أو يتباكى.
- و- أن يتعلم أحكام تلاوته ويراعيها حال القراءة.
- ز- أن يهتم بمعرفة معانيه ومطالعة ما تيسر من تفاسيره المعتمدة.
- ح- أن يُسرّ تلاوته إن خشي على نفسه رياءً أو سمعه، أو كان يشوش به على مصلٍّ.
- ط- أن يجتهد في أن يتّصف بصفات أهله الذين هم أهل الله وخاصته.
- ي- استذكاره ومداومة قراءته، وتعاهده حتى لا ينساه.
- ك- الإمساك عن القراءة عند غلبة النعاس.
- ل- أن يُحسن الاستماع إليه والإنصات عند تلاوته.
- م- التسبيح إذا مرّ بآيات التسبيح، والتعوّذ إذا مرّ بآيات العذاب، وطلب الرحمة إذا مرّ بآيات الرحمة.
- ن- أن يسجد سجّدت التلاوة إذا مر بها.

٢- آداب المساجد:

المساجد هي بيوت الله تعالى وقد رفع الله تعالى شأنها، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]، وتعلّق القلب بها وحبّها سببٌ من أسباب نجاة العبد من هول أرض المحشر، وفي أن يُظلّه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ لقول النبي ﷺ: «سبعة يُظلّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل قلبه معلق في المساجد»^(١).

(١) أخرجه البخاري، (٦٦٠)، ومسلم، (١٠٣١).

- وهناك آداب تتعلق بالمساجد ينبغي مراعاتها والتأدُّب بها، منها:
- أ- إخلاص النية لله تعالى في بنائها، وارتياحها، وعدم الرياء والسمعة.
 - ب- الدخول بالرجل اليمنى، وذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ.
 - ج- ألا يجلس إذا دخل المسجد إلا بعد أن يصلي ركعتين.
 - د- السعي إلى المساجد بسكينة ووقار.
 - هـ- تعظيم المساجد، وعدم اللغو فيها بارتفاع الأصوات.
 - و- عدم تعطر المرأة، ويُراعى اتخاذُ بابٍ خاصٍّ للنساءٍ منعاً للاختلاطِ.
 - ز- المحافظة على نظافة المساجد، وعدم اتخاذها طُرُقاً.
 - ح- ألا يتخذ المرء لنفسه مكاناً ثابتاً في المسجد.
 - ط- عدم زخرفتها أو الإسراف فيها.
 - ي- ألا ينشد المرء ضالته في المسجد، وألا يخرج بعد الأذان.
 - ك- عدم البيع أو الشراء في المسجد، وصيافته عن حديث الدنيا.
 - ل- الخروج بالرجل اليسرى، وذكر الله أيضاً بدعاء الخروج.
 - م- عدم المكث فيها للجُنُبِ والحائض والنفساء إلا عابري سبيلٍ.
 - ن- نية الرجوع إليها في الصلاة التي تليها.
 - ق- اجتناب الحضور إلى المساجد لمن أكل ثوماً أو بصلاً.
 - ع- استحباب التبكير إلى المساجد، والاجتماع للصلوات ودروس العلم.
 - ف- عدم اتخاذ ساعات ذات أجراس كنواقيس النصرارى.
 - ص- أن تكون صفوف النساء خلف صفوف الصبيان والرجال.

٣- آداب المجالس:

لا يستغني الناس عن مجالس يجلس فيها المرء مع أصحابه وإخوانه، يحادثهم ويسامرهم، ويتبادل الرأي معهم، أو مجالس علم يتعلم فيها الإنسان ما ينفعه في دينه ودنياه، أو مجالس يتحدث فيها الناس حول الأمور العامة والخاصة.

والإسلام تناول كل شأن من شئون الحياة، حتى كيفية مجالسة المسلم لإخوانه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ [المجادلة: ١١].

وفي الحديث قال ﷺ: «يَا كُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرَقَاتِ! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا بَدُّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أُبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرُدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(١).

وقد شرع الإسلام آداباً للمجالس حتى يتأدب أهلها، من هذه الآداب:

أ- ألا يحضر مجلساً فيه منكرٌ إلا بغرض تغيير هذا المنكر، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

ب- يسلم على أهل المجلس، ثم يجلس حيث ينتهي به المجلس.

ج- لا يقيم أحداً من مجلسه؛ ليقعد هو فيه، ولا يجلس بين اثنين إلا بإذنها.

د- إذا قام أحد من مجلسه، ثم عاد إليه فهو أحقُّ به.

هـ- ألا يجلس في وسط الحلقة؛ لورود النهي عن ذلك.

(١) أخرجه البخاري، (٢٤٦٥)، ومسلم، (٢١٢١).

- و- الإخلاص لله بالنية الصالحة في حضور تلك المجالس.
- ز- ليكن قليل الحركة، متزن الكلام، وليتجنب المزاح الكثير والمرء.
- ح- ألا يقاطع أحدًا الكلام، أو يطلب منه إعادته.
- ط- إذا جلس في الطرقات فليراع: غصّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، وإعانة المحتاج، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يرشد الضالّ.
- ي- أن يستغفر الله عند قيامه من مجلسه تكفيرًا لما عساه أن يكون قد ألمّ به في مجلسه بقوله: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»^(١).

- ك- تحرّي مجالس الصالحين والأتقياء، والحذر من مجالس أهل الأهواء.
- ل- اجتناب الهيئة التي قد تنكشف فيها عورة الإنسان أثناء جلوسه.
- م- اجتناب النجوى المحرّمة، فلا يسر بالحديث لبعض الحضور دون بعض.
- ن- الحذر من التنصّت على حديث الآخرين.
- س- المبادرة بالانصراف إذا انتهى المجلس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١٢].

٤ - آداب الأكل والشرب:

إن المسلم ينظر إلى الطعام والشراب، باعتبارهما وسيلةً إلى غيرهما، لا غايةً مقصودةً لذاتها، وإذا نوى المسلم بأكله أو شربه التقويّ على العبادة، حوّلت من عادةٍ إلى عبادةٍ وأُثِّب عليها، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]،

(١) أخرجه الترمذي، (٣٤٣٣).

- وهذا هو ميزان الأكل والشرب في الإسلام بغير إسراف.
- ولذا كان على المسلم أن يلتزم في مأكله ومشربه بأداب شرعية خاصة، منها:
- أ- أن يُطَيَّبَ طعامه وشرابه بأن يُعَدَّهما من الحلال الطيب الخالي من الشبهة.
 - ب- أن ينوي بأكله وشربه التقوية على عبادة الله - تعالى.
 - ج- أن يجلس متواضعًا بأن يجثو على ركبتيه، ويجلس على ظهر قدميه، أو ينصب رجله اليمنى، ويجلس على اليسرى إن أمكنه.
 - د- أن يرضى بالطعام ولا يعيبه، فإنه أعجبه أكل، وإن لم يعجبه ترك.
 - هـ- أن يأكل مع غيره من ضيف أو أهل أو ولد أو خادم.
 - و- أن يبدأه بسم الله، وأن يختمه بالحمد لله، وأن يأكل بثلاثة أصابع.
 - ز- أن يصغر اللقمة ويجيد المضغ، ويلعق الصحيفة وأصابعه في آخر طعامه.
 - ح- إذا سقط منه شيء مما يأكل أزال عنه الأذى وأكله.
 - ط- ألا ينفخ في الطعام ولا الشراب الحارَّ وينتظر حتى يبرد.
 - ي- ألا يبدأ تناول الطعام أو الشراب، وفي المجلس من هو أولى منه بالبداء.
 - ك- ألا ينظر إلى جلساءه أثناء الأكل، ولا يراقبهم.
 - ل- ألا يفعل ما يستقذره الناس عادةً؛ بنفض اليد في الطعام، ونحو ذلك.
 - م- أن يمسك عن الأكل قبل الشبع اقتداءً بالرسول ﷺ.
 - ن- أن يُحَلِّلَ أسنانه ويتمضمض ويغسل يده بعد الأكل تطيبًا للضم واليد.
 - س- عدم الأكل على شبع منعًا للإسراف والتخمة والأمراض.
 - ع- إجابة الدعوة بشرط ألا يكون فيها شيء محرّم.

- ف- عدم الأكل في آنية الذهب والفضة.
- ص- الاجتماع وتكثير الأيدي على الطعام، الأكل مما يليه.
- ق- الشرب قاعدًا ثلاثًا قدر الإمكان، وعدم الشرب من فم السقاء.
- ر- أن يكون ساقى القوم آخرهم شربًا.
- ش- الدعاء قبل شرب اللبن بـ: «اللهم بارِكْ لنا فيه، وزِدْنَا منه»^(١).

٥- آداب اللباس والزينة:

لا بدّ للإنسان من لباس يسترُ به عورته، وقد امتنَّ الله به على عباده، فقال:

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيْشًا وَلِبَاسُ النَّقَوِي ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾

[الأعراف: ٢٦].

وأمر رسول الله ﷺ به في قوله: «كُلُوا واشْرَبُوا والبُسُوا وَتَصَدَّقُوا في غير إسرافٍ ولا مخيلة»^(٢).

- فباللباس يسترُ الإنسان عورته، ويتجملُ أمام الخلق، وقد بينَ ﷺ ما يجوزُ منه وما لا يجوزُ؛ لذا كان على المسلم أن يلتزمَ في لباسه بهذه الآداب:
- أ- ألا يلبسَ الرجالُ الحريرَ، ولا الذهبَ مطلقًا.
- ب- ألا يطيلَ الرجل ثوبه إلى أن يتجاوزَ الكعبين؛ لورودِ النهي عن ذلك.
- ج- أن يؤثرَ لباسَ الأبيض على غيره، ويتجنبَ الأحمرَ القاني، ويُستحبَ القميص.
- د- أن تطيلَ المرأةُ خمارها، وأن يمتدَّ لباسها؛ ليسترَ جميعَ بدنِها حتى قدمها.

(١) أخرجه أحمد، (١٩٧٨)، وأبو داود، (٣٧٣٠)، والترمذي، (٣٤٥٥)، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه النسائي، (٢٥٥٩).

هـ- ألاّ يتشبه الرجل في لباسه بلباس الكفار، ولا تشبه المرأة في زيّها بزي الكافرات.

و- ألاّ تلبس المرأة اللباس الضيق، ولا الشفاف.

ز- ألاّ يلبس الرجل لبسة المرأة، ولا المرأة لبسة الرجل.

ح- أن يبدأ باليمين في لبس الثوب والنعل وترجيل الشعر، وباليسرى عند الخلع.

ط- أن يقول- إذا لبس شيئاً جديداً-: «اللهم لك الحمد أنت كسوتني، أسألك

خيرَهُ وخيرَ ما صنَع له، وأعوذُ بك من شرِّه وشرِّ ما صنَع له»^(١).

ي- التواضع في اللباس والحذر من الخيلاء والتكبر، وعدم اتخاذ ثوب شهرة.

ك- طهارة اللباس وستر العورة، واجتناب ما عليه صلبان أو تصاوير لذوات الأرواح.

٦- آداب الضيافة والوليمة:

الضيافة من آداب الإسلام وشعائره التي اهتمّ بها، بل ومن علامات الإيمان،

وقد ذكر القرآن قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة ومدى كرمه في ضيافتهم، وهو

لا يعرفهم، فقال: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ

فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ^(٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ^(٢٦) فَقَرَّبَهُ

إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿[الذاريات: ٢٤-٢٧].

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

فَلْيَكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتُهُ، قَالُوا: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَوْمُهُ وَلَيْلَتُهُ،

وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي، (١٧٦٧).

(٢) أخرجه البخاري، (٦١٣٥)، ومسلم، (٤٨).

وقد شرع الإسلام آداباً للضيافة، ومن هذه الآداب:

- في الدعوة إليها:

أ- أن يدعو لضيافته الأتقياء؛ قال ﷺ: «ولا يأكل طعامك إلا تقي»^(١).

ب- ألا يخص بضيافته الأغنياء دون الفقراء.

ج- ألا يقصد بضيافته التفاخر والمباهاة، بل الإخلاص والاقتداء بالنبي ﷺ.

د- ألا يدعو إليها من يعلم أنه يشق عليه الحضور.

- في آداب إجابتها:

أ- أن يجيب الدعوة ولا يتأخر عنها إلا من عذر.

ب- ألا يميز في الإجابة بين الفقير والغني، أو بين بعيد المسافة وقريبها.

ج- أن ينوي بإجابه إكرام أخيه المسلم؛ ليثاب على ذلك.

- في آداب حضورها:

أ- ألا يطيل الانتظار عليهم فيقلقههم، وألا يعجل المجيء فيفاجئهم.

ب- أن يجلس حيث يشير إليه صاحب المكان، ولا يتصدر المجلس.

ج- أن يعجل بتقديم الطعام للضيف؛ لأن في تعجيله إكراماً له.

د- ألا يبادر برفع الطعام قبل أن تُرفع الأيدي عنه، ويفرغ الجميع من الأكل.

هـ- أن يقدم لضيفه قدر الكفاية؛ إذ التقليل نقص في المروءة، والزيادة مراعاة.

و- حسن استقبال الضيف بالتبسم، وطلاقة الوجه والبشر.

ز- أن يخدم صاحب البيت ضيوفه بنفسه، إلا لعذر مرض أو كبر سن.

(١) أخرجه الترمذي، (٢٣٩٥).

ح- أن يتأدَّبَ الضيفُ بآداب الاستئذان والزيارة، وشكر صاحب البيت.

ط- أن يُشَيِّعَ المضيفُ الضيفَ بالخروج معه إلى خارج المنزل.

٧- آداب السفر:

السفر من لوازم حياة الإنسان وضرورياتها التي لا غنى عنها؛ ومن هنا كانت عناية الإسلام بالسفر وأحكامه وآدابه عنايةً كبيرةً، ومن هذه الآداب:

أ- النية الصالحة؛ لأن المسلم يكتب له في سفره ما كان يكتب له من الأجر قبل سفره، فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبدُ أو سافر كُتِبَ له مثلُ ما كان يعملُ مقيمًا صحيحًا»^(١).

ب- أن يكونَ السفر في طاعة الله، وأن يستخيرَ اللهَ قبله، ويستشيرَ الناسَ.

ج- أن يردَّ المظالم والودائع إلى أصحابها إذا سافر وظنَّ الهلاكَ.

د- عدم سفر المرأة من غير محرم، واختيار الرفقة الصالحة.

هـ- أن يستخلفَ على أهل بيته مَنْ يقوم على أمورهم، وأن يستأذِنَ والديه.

و- أن يودِّعَ أهله وإخوانه وأصدقاءه.

ز- ألا يسافر وحده، وأن يخرجَ في رفقةٍ - ثلاثة فأكثر - وأن يؤمِّروا أحدهم.

ح- التزوُّدُ بالنفقة الحلال، وتركُ النفقة الكافية لأهله.

ط- دعاء السفر: «اللهم إنا نسألكَ في سفرنا هذا البرَّ والتقوى، ومن العملِ ما

ترضى، اللهم هَوِّنْ علينا سفرنا هذا، واطوِ عَنَّا بُعْدَهُ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري، (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه مسلم، (١٣٤٢).

ي- أن يخبر أهله برجوعه، فإذا رجع لا يطرق أهله ليلاً؛ فيفجأهم بقدومه.
ك- قال ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مِنْزَلاً، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»^(١).

٨- آداب النوم:

النوم من النعم التي امتنَّ الله بها على عباده، وفي قوله: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

لأن سكون العبد ساعاتٍ بالليل بعد حركة النهار الدائبة مما يساعد على حياة الجسم، وبقاء نمائه ونشاطه، وعلى المسلم أن ينوي التعبد لله عز وجل بالنوم، بدلاً من أن يخسر كلَّ هذا الكمِّ من ساعاتٍ دون فائدة، وقد كان ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: إني لأحتسبُ نومتي - أي: أرجو الثواب عليها - كما أحتسب قومتي - أي: كما ألتبسُ أجرَ قيام الليل.

وهذه آداب تتعلق بالنوم:

أ- استحضار نيَّةٍ صالحة عند النوم، بنية إراحة بدنه وتجديد نشاطه للعبادة.

ب- أن لا يؤخَّرَ نومه بعد صلاة العشاء إلا لضرورة.

ج- أن يجتهد في ألا ينامَ إلا على وضوء، وأن ينامَ على شقه الأيمن.

د- أن يأتيَ بأذكار النوم كآية الكرسي، وخواتيم البقرة... الخ

هـ- أن يجتهد في أن لا ينامَ وحده، وأن يحذر الشبع قبل النوم.

(١) أخرجه مسلم، (٢٧٠٨).

- و- أن ينام وليس في قلبه غلٌّ ولا حسدٌ لأحد من المسلمين.
- ز- غسل الفرج والوضوء عند النوم على جنابة.
- ح- أن يحرص عند نومه على قراءة سورة السجدة، والمملك، والإسراء.
- ط- صلاة الوتر قبل النوم، واستحضار نية قيام الليل كل ليلة.
- ي- نفخ الفراش بثيابه، والتسمية قبل النوم.
- ك- محاسبة النفس قبل النوم، وتذكُّر نومة القبر الطويلة.
- ل- إغلاق باب البيت بإحكام، وتغطية الإناء والسقاء، وإطفاء السراج.
- م- إذا رأى في منامه خيراً ذكره، وإذا رأى شراً تغل عن شماله، واستعاذ بالله من الشيطان، ولا يذكر ذلك لأحد.
- ن- الاكتفاء بالنوم على قدر الحاجة، وعدم الإفراط فيه.
- س- إذا استيقظ من الليل، ذكر الله وكبر ودعا؛ فإنه يستجاب له.
- ع- إذا استيقظ من نومه أتى بأذكار الاستيقاظ من النوم، ويتوضأ ويصلي.

٩- آداب الفطرة:

خصالُ الفطرة هي الآداب التي نصَّ النبي ﷺ عليها، وذكر أنها من الفطرة، وهي من سنة الأنبياء، قال ﷺ: «عشرٌ من الفطرة: قصُّ الشاربِ، وإعفاءُ اللحية، والسواكُ، واستنشاقُ الماءِ، وقصُّ الأظفارِ، وغسلُ البراجِمِ، ونتفُ الإبطِ، وحلقُ العانةِ، وانتقاصُ الماءِ^(١)»، قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة^(٢).

وهذه الآداب هي:

(١) يعني: الاستنجاء.

(٢) أخرجه مسلم، (٢٦١).

- أ- الحَتَانُ: وهو واجب للذكور والإناث.
- ب- نَتْفُ الإِبْطِ: وهو الشعر النابت تحت الإبطين، ويسنُّ نتفه، أو حَلَقَه.
- ج- تَقْلِيمُ الأَظْفَرِ، ويستحب أن يبدأ باليمنى، ثم اليسرى.
- د- ألا يترك الشارب والأظافر وشعر الإبط والعانة أكثر من أربعين ليلةً.
- هـ- إعفاء اللحية.
- و- السواك والمضمضة.
- ز- غسل البراجم، والبراجم هي: عُقْدُ الأصابع ومفاصلها كلها.
- ح- حَلَقُ العانة، والعانة هي: الشعر النابت في الفرج.

١٠ - آداب الزيارة:

- التزاور بين المسلمين له أثر كبير في تقوية العلاقات بينهم، وتأليف القلوب وزيادة المحبة والألفة والترابط، وكذلك فإن له فضلاً كبيراً إذا كانت الزيارة في الله، أو لصللة الأرحام، أو لعيادة المريض، ومن آدابها:
- أ- استحضر النية الصالحة عند الزيارة.
- ب- عدم الإكثار من الزيارة لدرجة الإفراط إلا إذا رضي المَزُورُ بذلك.
- ج- تحرِّي الأوقات المناسبة للزيارة.
- د- لزوم آداب الاستئذان - ثلاثاً - والتعريف بالنفس عند القدوم.
- هـ- أن لا يطلق بصره في نواحي البيت، أن يجلس حيث أُذِنَ له.
- و- ألا يرفع صوته في بيت المَزُورِ.
- ز- ألا يحاول التسمُّع أو التجسس على أهل البيت.
- ح- ألا ينصرف إلا بعد إذن صاحب البيت.

ط- أن يشكر أهل البيت على استضافتهم له، وأن يدعو لهم.

١١ - آداب السلام:

السلام من الطاعات المشروعة، ومن الآداب المسنونة التي جاء الترغيب فيها في القرآن والسنة بمشروعيتها واستحبابها والحث عليها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١). وقال- أيضًا:- «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَذْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ: أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٢)، ومن آداب السلام:

- أ- أن يبدأ المرء من لقيه بالسلام؛ فإنه من حق المسلم على أخيه المسلم.
- ب- الحرص على تحية الإسلام، وهي: (السلام عليكم)، ولا يستعمل سواها.
- ج- وجوب ردِّ السلام لمن ألقى عليه، بتحية بأحسن منها، أو بمثلها.
- د- الحذر من التشبه بغير المسلمين في تحيتهم.
- هـ- عدم بدء أهل الكتاب وغير المسلمين بالسلام، وردُّ تحيتهم بقول: (وعليكم) دون قول: (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته).
- و- يسلم الصغير على الكبير، والقليل على الكثير، والراكب على الماشي، والماشي على القاعد.

(١) أخرجه أحمد، (٢٣٧٨٤)، والترمذي، (٢٤٨٥)، وابن ماجه، (١٣٣٤)، وقال الترمذي: صحيح.

(٢) أخرجه مسلم، (٥٤).

- ز- التصافح مع السلام عند اللقاء والمقابلة.
- ح- عدم السلام عند قضاء الحاجة.
- ط- إعادة السلام- ثلاثاً- إذا لم يسمع.
- ي- إذا مرَّ على مجلسٍ فيه مسلم وغير مسلم سلَّم عليهم؛ تعظيماً للإسلام.
- ك- التسليم إذا مرَّ على الصبيان؛ لفعله ﷺ ذلك.
- ل- استحباب تبليغ السلام من شخصٍ لآخر.
- م- تعميم السلام على مَنْ يعرف، ومَنْ لا يعرف.
- ن- استحباب السلام عند دخول البيت، ولو كان خالياً، وكذا عند الخروج.
- س- السلام على أهل القبور بما ورد: «السلامُ على أهل الديارِ من المؤمنين والمسلمين، ويرحمُ اللهُ المستقدمينَ منا والمستأخرينَ، وإنا- إن شاء الله- بكم للاحقون»^(١).

١٢ - آداب التداوي:

- لا يخلو المسلم من داء يصيبه، صَغُرَ ذلك الداء أم عَظُم، وذلك بقدر الله تعالى وقد جعل الله لكل داءٍ دواءً، وقد كان النبي ﷺ يتداوى بالقرآن وبغيره، وأرشد إلى التداوي بعدد من الأدوية، وللتداوي آداب، منها:
- أ- استحضار النية الصالحة بالتداوي؛ لأجل طاعة الله - تعالى.
- ب- اعتقاد أن الشفاء بيد الله وحده، وأن الأدوية مجردُ أسبابٍ.
- ج- استشارة أهل الطبِّ والتَّخَصُّصِ مَّنْ عُرِفَ بتقوى الله - تعالى.

(١) أخرجه مسلم، (٩٧٤).

د- اجتناب الأدوية المحرمة؛ فالله ما جعل شفاء الناس فيما حرم عليهم.

ه- استعمال الأدوية الوارد فضلها في القرآن والسنة المطهرة، ومنها:

- العسل. - الحجامه. - الحناء.

- الرقية الشرعية. - الحبة السوداء.

و- أخذ تدابير التوقي من الأمراض قبل وقوعها، ويتجنب مواضع العلل.

١٣ - آداب البيوت:

إنَّ حالَ رسولِ الله ﷺ هو أكمل الأحوال، وطريقه خير الطرق، ولما علم ﷺ أن الدنيا دار سفر لا دار إقامة، اتخذ مساكنَ بحسب الحاجة تستر عن العيون، وتقي مضرة الحر والبرد، والمطر والرياح، وتحفظ ما وضع فيها من دابة وغيرها، ولم يزخرفها ولم يُشَيِّدها، فكانت مساكن متوسطة حسنة، طيبة الرائحة بريجه ﷺ، وكذلك كان أصحابه ﷺ، وقد علَّمنا ﷺ آداب البيوت، ومنها:

أ- صلاة ركعتين قبل الخروج من البيت؛ لفعله ﷺ ذلك.

ب- ذكرُ الله عند الخروج من البيت: «بسم الله، توكلتُ على الله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزلَّ، أو نضلَّ، أو نُظلمَ، أو نُظلمَ، أو نجهلَ، أو يُجهَلَ علينا»^(١).

ج- طرُق الباب بلطف عند دخول المنزل.

د- التسليم على أهل البيت عند الدخول، ففيه إيناس لهم.

ه- دعاء الدخول: «بسم الله وَلَجْنَا، وبسم الله خَرَجْنَا، وعلى الله ربُّنا توكلُّنا، ثم

(١) أخرجه أحمد، (٢٦٦١٦)، والنسائي، (٧٨٦٨)، وابن ماجه، (٣٨٨٤)، والترمذي، (٣٤٢٧)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ليسلم على أهله»^(١).

- و- إذا دخل بيته بدأ بالسواك، اقتداءً بالنبي ﷺ.
- ز- إشعار أهل البيت بالدخول- إذا لم ينتبهوا- بالنحنحة، أو بطرق الأرض برجليه، حتى لا يرتاعوا، أو يظنوا أنه يتخونهم.
- ح- خدمة الأهل ومعاونتهم في تنظيف البيت، وإعداد الطعام، ونحوه.
- ط- احتساب النفقة على الأهل والأولاد؛ فهذه من أعظم النفقات أجرًا.
- ي- تعاهد الزوجة والأولاد، وتفقد أحوالهم وأمور دينهم.
- ك- صلاة النوافل في البيوت اقتداءً برسول الله ﷺ، وتذكيرًا لأهله.
- ل- تجنب المنكرات في البيوت والنهي عنها، فالرجل مسئول عن رعيته.
- م- عدم ترك النار في البيت حين النوم، أو المصباح إلا لضرورة.
- ن- غلق الأبواب بالليل جيّدًا، وكف الصبيان عن النزول من البيت ليلاً.

١٤ - آداب الذكر:

ذكر الله تعالى من أفضل الأعمال والقربات، ومن أجلها عند الله تعالى وأعظمها ثوابًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

وقال ﷺ في السبعة الذين يظلمهم الله في ظلّه: «... ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»^(٢).

ومن الآداب التي ينبغي مراعاتها فيما يتعلق بالذكر، ما يلي:

(١) أخرجه أبو داود، (٥٠٩٦)، والبيهقي في الدعوات الكبير، (٤٨٠).

(٢) أخرجه مسلم، (٢٦١).

- أ- الإكثار من ذكر الله تعالى على كل حال، والإخلاص فيه.
- ب- الجمع بين الذكر باللسان واليد والقلب، فاللسان ينطق، واليد تعقد العد، والقلب يخشع ويستحضر كل لفظ.
- ج- البكاء ولين القلب مع الذكر والاستغفار.
- د- خفض الصوت بالذكر تجنباً للرياء.
- هـ- اجتناب الأذكار المبتدعة.
- و- الحرص على الأذكار التي ورد ذكر فضلها وعظم ثوابها.
- ز- الإكثار من قراءة القرآن فهو أفضل الذكر.

١٥ - آداب عيادة المريض:

عيادة المريض من حقوق المسلم على أخيه المسلم، كما قال ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست... وإذا مرض فعده»^(١)، وفي الحديث - أيضاً -: «من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله ناداه مناد أن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأَت من الجنة منزلاً»^(٢).

- وينبغي لمن عاد مريضاً أن يتأدب ببعض الآداب، والتي منها:
- أ- النية الصالحة بأن ينوي بعيادته التماس الأجر والثواب، وأداء حق أخيه.
- ب- أن لا يتأخر في الذهاب لزيارته.
- ج- العيادة ولو لمن به مرض بسيط، وفي وقت لا يشق عليه.
- د- القعود عند رأس المريض، والدعاء له: «أسأل الله العظيم رب العرش العظيم

(١) أخرجه مسلم، (٢١٦٢).

(٢) أخرجه أحمد، (٨٣٢٥)، والترمذي، (٢٠٠٨)، وابن ماجه، (١٤٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد، (٣٤٥).

أَنْ يَشْفِيكَ - سَبْعَ مَرَّاتٍ»^(١).

هـ- تبشير المريض بثواب المرض، وتحسين ظنه بالله، ورقيته.

و- عدم التطويل في الجلوس عند المريض رحمةً به.

١٦ - آداب الجنائز:

لقد كتب الله الموت على كل مخلوق، وهو عبرة لمن يعتبر، وكفى به واعظاً لمن اتَّعَظَ، وعلى المسلم أن يعلم أنه مهما طال عمره فلا بدَّ من لقاء ربِّه، فالأنبياء - وخاتمهم محمد ﷺ - قد كتب الله عليهم الموت، وما خُلِّدَ أحد منهم، وهم خير البشر، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿[الأنبياء: ٣٤ - ٣٥].

وهناك آداب إسلامية تتعلق بالموت، وهذه الآداب تدلُّ على شمولية الإسلام لجميع أحوال الإنسان، وفيها بركة عظيمة، وأجر كبير، ومن هذه الآداب:

أ- آداب ما قبل الموت:

أ- جواز البكاء عند المريض مرض الموت، وتذكيره بالوصية والشهادة.

ب- تذكير الميت بحسن الظنِّ بالله، وتحذيره من الظلم في الوصية.

ج- تلقين المحتضر لا إله إلا الله.

ب- آداب عند الموت:

أ- الصبر عند الصدمة الأولى بخروج الروح.

ب- تغميض عيني الميت، وتعصيب فكِّه.

(١) أخرجه أحمد، (٢١٣٧)، وأبو داود، (٣١٠٦)، والترمذي، (٢٠٨٣).

- ج- ألا يقال عند الميت إلا الخير، من: ذكر واستغفار ودعاء وترحم عليه.
- د- جواز البكاء من غير نياحة، أو صوت، أو شق ثوب، أو لطم خد.
- هـ- جواز كشف وجه الميت وتقيله.

ج- آداب غسل الميت:

- أ- اختيار مُغْسِلٍ عالمٍ بكيفية الغسل الشرعي، أمينٍ على ما يراه حالة الغسل.
- ب- غسل الميت وترًا، وخلط الماء بالسدر والكافور، وتطيب الميت.
- ج- تمشيط شعر الميت، وعمل صفائر للمرأة خلف ظهرها.
- د- اغتسال المغسّل، وتوضؤ الحامل للجنّازة.
- هـ- عدم تغسيل الشهيد، وتكفينه في ثيابه، والمحرم كذلك.
- و- تكثير عدد المصلين على الجنّازة.
- ز- نهي النائحات من النساء أن يتبعن الجنّازة.
- ح- أن يقتصر حمل الجنّازة على الرجال، مع مراعاة الإسراع بها.
- ط- عدم الجلوس إلا بعد وضع الجنّازة من على أعناق الرجال.
- ي- التعزية بالألفاظ الواردة عن رسول الله ﷺ.
- ك- حفر اللحد للميت، وتعميق القبر وتوسيعه.
- ل- الموعظة عند القبر، والانتظار مع الجنّازة حتى تُدفن.
- م- عدم الخوض والوقوع في عرض الميت، أو ذكره بسوء.
- ن- عدم الجزم للميت بشيء من جنة أو نار، فالعلم عند الله.
- س- صنع الطعام لأهل الميت، ولا يسن لأهل الميت أن يصنعوا طعامًا.
- ع- زيارة القبور للاعطاء والاعتبار.

- ف- اجتناب النساء لزيارة القبور إذا خشي منهن الجزع والنياحة.
ص- عدم الجلوس على القبر أو تجصيصه، أو البناء والكتابة عليه.
ق- الاحتراس من وطء القبور بالأقدام والنعال.
ر- عدم إحداث المرأة فوق ثلاثٍ إلا على الزوج أربعة أشهرٍ وعشرًا.

١٧- الآداب مع الجار:

أمر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بالإحسان إلى الجار، وقرن الإحسان إليه بالإحسان إلى الوالدين، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦]، وفي الحديث الشريف أن رسول الله **ﷺ** قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(١).
فالإحسان المطلوب إلى الجار: أن يعامل المسلم جاره بالهدية والسلام وطلاقة الوجه عند لقائه، وتفقد حاله ومعاونته فيما يحتاج إليه، فإذا استعانه أعانه، وإذا استقرضه أقرضه، وإذا افتقر عاد عليه، وإذا مرض عاده، وإذا أصابه خير هنأه، وإذا أصابته مصيبة عزاه، وإذا مات أتبع جنازته، ولا يستطيل عليه بالبيان، فيحجب عنه الريح إلا بإذنه، وعليه أن يكف أسباب الأذى - على اختلاف أنواعها: حسيّة كانت أو معنويّة - عن جاره.

(١) أخرجه البخاري، (٦٠١٦)، ومسلم، (٤٦).



الفصل الحادي عشر ..

المقدّسات الإسلامية



المقدّسات الإسلامية

مقدسات المسلمين كثيرة أهمها: المساجد، وأكثر المساجد فضلاً، وأشهرها ذكرًا، وأعلاها قدرًا ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى. ولو لم يرد في فضلها إلا قوله ﷺ: «لا تُشدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى»^(١) - لكفى بذلك شرفاً وفخراً. وللمساجد الثلاثة ثلاثٌ خصائصٌ مشتركةٌ:

أولها: أنها مساجد عمّرها ورفعَ قواعدَها الأنبياءُ، فالمسجد الحرام رفعَ قواعدُه إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام، والمسجد النبوي بناه نبينا محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، والمسجد الأقصى بناه يعقوب عليه السلام، وهو أولى قبليّ المسلمين. ثانيها: مضاعفة الثواب على الصلاة في هذه المساجد الثلاثة.

ثالثها: لا تشدُّ الرحالُ إلا إلى هذه المساجد الثلاثة دون غيرها من سائر المساجد.

أولاً: الكعبة والمسجد الحرام:

الكعبة هي البيت الحرام، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ

(١) أخرجه البخاري، (١١٨٩)، ومسلم، (١٣٩٧).

الكعبة أول بيت وُضع للعبادة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وفي الحديث عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن أولِ مسجدٍ وُضِعَ على الأرض؟ فقال: المسجدُ الحرام، قلتُ: ثم أي؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم بينهما؟ قال: أربعون عامًا، وَأَيْنَمَا أَذْرَكْتِكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ»^(١).

والكعبة بناءٌ مربع يبلغ ارتفاعها خمسة عشر مترًا، وفي ضلعها الشرقي يقع البابُ مرتفعًا عن الأرض بنحو مترين.

أركان الكعبة الأربعة هي الركن الأسود، والركن الشامي، والركن اليماني، والركن العراقي.

وفي أعلى الجدار الشمالي يوجد الميزابُ، وهو من الذهب، ويطل على حجرِ إسماعيل. ومن أسماء الكعبة في القرآن: البيت، والبيت العتيق، والبيت المعمور، والبيت المحرم، والبيت الحرام.

وقد اختلفَ في أول مَنْ بناها، فقليل: الملائكة، وقيل: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وباتفاق فإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو من جدّد بناءها، وأن الله تعالى بوّأه وأرسله وأرشده إلى مكانها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

(١) أخرجه البخاري، (٣٣٦٦)، ومسلم، (٥٢٠).

وقد أُعيد بناؤها في عهده **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قبل البعثة، ثم أُعيد البناء على عهد عبد الله بن الزبير **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، حيث نقض الكعبة وبناها على قواعد إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وأدخل فيها الحجر على ما أشار إليه النبي **ﷺ** وجعل لها باين حسبما أخبرته خالته عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، ووسَّع المسجد سنة ٦٦ هـ.

ثم أُعيد بناؤها على حالتها الأولى، فأخرج منها الحجر ورفعوا بناء بابها الشرقي وسدوا الباب الغربي، كما هي عليه الآن، وكان ذلك سنة ٧٣ هـ. وما عدا هذا فكان ترميمًا أو توسعةً للمسجد الحرام.

فضائل المسجد الحرام:

- ١ - أول مسجد وُضع في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].
- ٢ - قبلة المسلمين في الأرض، قال تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].
- ٣ - المسجد واقع في أرض الحرم، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، لَا يُنْفَرُ صَيْدُهَا، وَلَا يُعْصَدُ شَوْكُهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا، وَلَا تَحِلُّ لِقَطْعَتِهَا إِلَّا لِمَنْشِدٍ»^(١).
- ٤ - لا يدخله الكفار، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ

(١) أخرجه البخاري، (٤٣١٤).

نَحَسُّ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴿التوبة: ٢٨﴾، وفي

الحديث: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»^(١).

٥ - لا يدخلها الدَّجَالُ، ولا الطاعونُ، وفي الحديث: «ليس من بلدٍ إلا سيطُوهُ الدَّجَالُ إِلَّا مَكَّةَ، والمدينةَ، ليس له من نقابها نقبٌ إلا عليه الملائكةُ صافينَ يحرسونها، ثم ترجفُ المدينةُ بأهلها ثلاثَ رجفاتٍ، فيُخرجُ اللهُ كلَّ كافرٍ ومنافقٍ»^(٢)، وفي الحديث الآخر: «المدينةُ ومكةُ محفوفتانِ بالملائكةِ على كلِّ نقبٍ منها ملكٌ لا يدخلُها الدَّجَالُ، ولا الطاعونُ»^(٣).

٦ - الصلاة فيه يضاعف ثوابها بمائة ألف صلاة، ففي الحديث عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي أفضلُ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه إلا المسجدَ الحرامَ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ من مائةِ ألفِ صلاةٍ فيما سواه»^(٤).

٧ - إليه يحج المسلمون كلَّ عامٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحج: ٩٦-٩٧].

(١) أخرجه البخاري، (٣٠٥٣)، ومسلم، (١٦٣٧).

(٢) أخرجه البخاري، (١٨٨١)، ومسلم، (٢٩٤٣).

(٣) أخرجه أحمد، (١٠٢٦٥).

(٤) أخرجه أحمد، (١٥٢٧١)، وابن ماجه، (١٤٠٦).

٨- أعظم المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال، قال ﷺ: «لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى»^(١).

٩- حرمة استقبال الكعبة أو استدبارها عند قضاء الحاجة؛ لحديث: «إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ببول ولا غائط، ولكن شرفوا أو غربوا، قال أبو أيوب: فقدمنا الشام، فوجدنا مراحيض قد بُنيت قبل القبلة، فننحرف عنها ونستغفر الله - تعالى»^(٢).

ثانيًا: المسجد النبوي:

بُني مسجد النبي ﷺ في ربيع الأول من العام الأول للهجرة، وكان طوله سبعين ذراعًا، وعرضه ستين ذراعًا، أي: نحو ٣٥ مترًا طولًا، ٣٠ مترًا عرضًا^(٣). ولما كثر المسلمون قام النبي ﷺ بتوسيعته في السنة السابعة من الهجرة بعد عودته من خيبر، فزاد في طوله عشرين ذراعًا وفي عرضه كذلك، وكان عثمان هو الذي اشترى تلك البقعة التي أضافها النبي ﷺ، كما في سنن الترمذي^(٤).

ثم جرت توسعته في عهد عمر رضي الله عنه، ثم في عهد عثمان ٢٩هـ، ثم توسعته في عهد الوليد بن عبد الملك من سنة ٨٨-٩١هـ، وفي هذه التوسعة أدخل حجرات النبي ﷺ مع معارضة من التابعين لهذا العمل، ثم تابعت التوسعات في

(١) أخرجه البخاري، (١١٨٩)، ومسلم، (١٣٩٧).

(٢) أخرجه البخاري، (٣٩٤)، ومسلم، (٢٦٤).

(٣) المساجد الثلاثة في الإسلام، إدارة الدعوة، وزارة الأوقاف بقطر، (ص ٣٢).

(٤) أخرجه أحمد، (٥٥٥)، والترمذي، (٣٧٠٣)، والنسائي، (٣٦٠٧).

عهد المهدي العباسي، والأشرف قايتباي المملوكي، والسلطان عبد المجيد العثماني، وأربع توسعاتٍ في عهد الدولة السعودية.

فضائل المسجد النبوي:

- ١- إليه تُشَدُّ الرحالُ، وقد تقدَّم الحديثُ في ذلك.
- ٢- الصلاة فيه مضاعفة الثواب، وقد تقدم الحديث في ذلك.
- ٣- لا يدخله الطاعون، ولا الدجال، وقد تقدم الحديث في ذلك.
- ٤- ما بين بيته ﷺ ومنبره روضةٌ من رياض الجنة، قال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»^(١).
- ٥- للمدينة حرمٌ والمسجد واقع في الحرم، عن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَحَرَّمَتْ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَتُدَّهَا بِمَثَلِي مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(٢).
- ٦- الإيمان ينحسر إليها آخِرَ الزمان، ففي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ، كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»^(٣).

ثالثاً: المسجد الأقصى :

يعرف المسجد الأقصى ببيت المقدس، وسُمِّيَ بالأقصى لبعده عن المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

(١) أخرجه البخاري، (١١٩٦)، ومسلم، (١٣٩١).

(٢) أخرجه البخاري، (٢١٢٩)، ومسلم، (١٣٦٠).

(٣) أخرجه البخاري، (١٨٧٦)، ومسلم، (١٤٧).

الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ [الإسراء: ١].

ويمتد الأقصى على مساحةٍ مربعةٍ كبيرةٍ تبلغ ١٤٤ كم^٢، تضمُّ الساحاتِ المكشوفةَ ونحوًا من مائتي مبنًى تاريخي؛ بين مساجد، وقباب، وسُبلٍ، وأبواب، ومدارس، وبوَّاتك، ومصاطب، وآبار، وغيرها^(١) وقد بُني المسجدُ بعد المسجد الحرام بأربعين سنةً، كما تقدَّم، سواء أكان مَنْ بناه آدم أم غيره.

وعلى عهده ﷺ لم يكن موجودًا إلا المسجدُ المحاطُ بسورٍ له أبواب، وأما المسجد الأقصى القائم اليوم فقد بُني في عهد عبد الملك بن مروان، وأتمَّه الوليدُ ابن عبد الملك، واستغرق البناء قرابة ثلاثين عامًا من ٦٦هـ - ٩٦هـ.

والمسجد الذي تُصَلَّى فيه الجمعة اليوم، والذي يقع في الجهة القبليَّة من ساحة القدس يُسميه الناس اليومَ بالمسجد الأقصى، والصخرةُ تمثل أعلى بقعةٍ في المسجد الأقصى، وهي غيرُ معلَّقةٍ، وحائطُ البراق جزءٌ من الحائط الغربي للمسجد.

وقد بنى عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصلًى هناك، وصار بعضُ الناس يسمي المصلًى الذي بناه عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأقصى، والصلاةُ فيه أفضلُ من سائر المساجد^(٢) ولا يوجد بيت المقدس مكان يُقصدُ للعبادة سوى المسجد الأقصى.

فضائل المسجد الأقصى:

١ - إليه تشدُّ الرحال، وقد تقدَّم الحديثُ في ذلك.

(١) المساجد الثلاثة في الإسلام، (ص ٤٣).

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى، لابن تيمية، (٢/ ٥٧ - ٥٨).

- ٢- هو ثاني مسجد وُضع في الأرض، وقد تقدم الحديث في ذلك.
- ٣- تُضاعف الصلاة فيه، عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل: مسجد رسول الله ﷺ، أو مسجد بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلّي»^(١)، وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة»^(٢).
- ٤- مسرى نبينا ﷺ، وأولى القبلتين، فالإسراء كان من المسجد الأول إلى المسجد الثاني وُضعاً في الأرض، وكان من ثاني القبلتين إلى أولى القبلتين، وقد صلى النبي ﷺ والصحابة إليه نحواً من ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صُرف إلى القبلة^(٣).
- وهو أرض المحشر والمنشر، ففي الحديث: «الشام أرض المحشر والمنشر»^(٤) ويُقصدُ بالشام بيت المقدس.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (٦٩٨٣)، والحاكم، (٥٥٤/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٣٨٤٩)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، انظر: السلسلة الصحيحة، (٢٩٠٢).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٣٨٤٥).

(٣) أخرجه البخاري، (٤٠، ٣٩٩، ٤٤٩٢)، ومسلم، (٥٢٥).

(٤) أخرجه أبو الحسن بن شجاع الربيعي في فضائل الشام - عن أبي ذر، كما في كنز العمال، (٢٧٣/١٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٣٧٢٦).



الفصل الثاني عشر ..

دولة الإسلام



دولة الإسلام

الإسلام دين ودولة، وجماعة وإمارة، ومصحف وسيف، والحكم عُروة من أعظم عرى الإسلام! وما مات نبينا ﷺ إلا بعد أن أقام للإسلام دولته، ووحد له سلطانه في الأرض! وبشر أصحابه بشارة الصدق فقال ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»^(١).

لقد قامت دولة الإسلام الأولى في عهد نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام على دعائم قوية، وأركان ثابتة، فالأمة بالتمكين موعودة، والله تعالى جعل لها الأرض موروثه، ونبينا ﷺ حاكم مطاع، ولها سلطة وسيادة واستخلاف، وقد دخل الناس في دين الله أفواجا!

والدولة الإسلامية ضرورة دينية شرعية، وعقلية مصلحة، على وجوبها انعقد الاتفاق، ولقد اعتنى الصحابة رضي الله عنهم باختيار الخليفة وانتخابه من بينهم قبل أن يفرغوا من دفن نبيهم ﷺ، إذ لا قيام للدين بلا دولة تحوطه من جميع جوانبه، ولا سلطة تحفظه وتحرسه، ولا دولة ولا جماعة بلا إمامة وطاعة، قال

(١) أخرجه مسلم، (٢٨٨٩).

شيخ الإسلام: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها»^(١).

والدولة تكتسب صفة الإسلامية بقيام نظمها وأحكامها وقيمها على مرجعية نصوصها النقلية وقواعدها الأصولية، ومقاصدها الشرعية، والدولة الإسلامية ليست دولة ثيوقراطية، وإنما يسوسها بشر ليسوا بمعصومين، ولا يملكون تفويضاً إلهياً بالحكم المطلق، وتصرفات الحكام منها ما يكون منصوفاً على أدلته، ومنها ما هو اجتهادي بناء على المصلحة، ويقبل التغيير والتبدل تبعاً لتغير الصور وتعدد الأحوال، وقد نبه النبي ﷺ أمته إلى أحوال دولته التي تكون عبر مراحل التاريخ المختلفة فقال: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاصياً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»^(٢).

(١) السياسة الشرعية، لابن تيمية، (ص ١٦١).

(٢) أخرجه أحمد، (١٨٤٠٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٥).

أولاً: الدول الإسلامية الكبرى المتعاقبة

١- الخلافة الراشدة: (١١-٤١ هـ).

وهي دولة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكانت للأربعة الخلفاء المبشرين بالجنة. زكّاها النبي ﷺ بالغيب، وزكّى خلفاءها فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»^(١).

وقال فيها ﷺ: «الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون بعد ذلك الملك»^(٢). وقد قال العلماء: لم يكن في الثلاثين بعده ﷺ إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن^(٣). وقد كانت تلك الخلافة على منهاج النبوة كما وصف نبينا ﷺ، على أن عهد الخليفين أبي بكر وعمر كان أفضل من عهد من بعدهما، إذ بقتل أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقعت الفتن.

وامتدت الخلافة الراشدة من عام ١١ هـ إلى عام ٤١ هـ، وانتهت بتنازل الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- الخلافة الأموية: (٤١-١٣٢ هـ):

وتبدأ من عهد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ٤١ هـ، وتمتد حتى عام ١٣٢ هـ، وتنتهي بمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

(١) أخرجه أحمد، (١٧١٤٤)، وأبو داود، (٤٦٠٧)، والترمذي، (٢٦٧٦)، وابن ماجه، (٤٢)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد، (١٨٤٠٧)، أبو داود، (٤٦٤٦)، والترمذي، (٢٢٢٦)، والنسائي، (٨١٥٥)، وحسنه الترمذي.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي، (ص ٧٣).

وقد قال ﷺ: «لا يزال الإسلام عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة»^(١).
وقال ﷺ أيضاً: «لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلهم تجتمع عليه الأمة»^(٢).

فإذا كان الأربعة الراشدون مع الحسن بن علي رضي الله عنهما خمسةً فالباقي من بني أمية، ممن اجتمع عليهم الخلق، وهم معاوية رضي الله عنه ويزيد بن معاوية، ثم اجتمعوا على عبد الملك بن مروان بعد مقتل ابن الزبير رضي الله عنه، ثم اجتمعوا على أولاد عبد الملك الأربعة: الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وتخلل بين سليمان ويزيد عمر بن عبد العزيز، والثاني عشر الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

٣- الخلافة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦ هـ):

وأول خلفائها أبو العباس السفاح وهو من ذرية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وآخر خلفائها المستعصم بالله، قتله التتار في اجتياحهم لبغداد، وقد روي في الحديث قوله ﷺ: «اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة، لا تغادر ذنباً، اللهم احفظه في ولده»^(٣).

وبقتل التتار للمستعصم انقطعت الخلافة ثلاثة سنوات ونصف، حتى أقيمت بمصر ولم تنتظم دولة الإسلام بأقطارها المتعددة، وقامت دول متعددة في

(١) أخرجه مسلم، (١٨٢١).

(٢) أخرجه أبو داود، (٤٢٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١/ ٧٢٠)، دون قوله: «كلهم تجتمع عليه الأمة».

(٣) أخرجه الترمذي، (٣٧٦٢)، وقال: حسن غريب.

بلدان متباعدة من أقطار العالم الإسلامي .

٤ - الخلافة العثمانية: (٧٠٠ - ١٣٤٢هـ):

أسس الدولة العثمانية عثمانُ بن أرطغرل، وعهد بالحكم من بعده لابنه السلطان أورخان الأول فوسّعها وضم إليها أقطارًا، ومرت الدولة بأطوار ثلاثة، وامتدت لستة قرون متتالية حتى أعلن سقوطها رسميًا على يد مصطفى كمال أتاتورك عام ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م.

وبسقوط الخلافة العثمانية لم توجد دولة جامعة لأقطار المسلمين الواسعة، وحلت محلها دول قُطرية صغيرة وفقًا لاتفاقية سايكس - بيكو السريّة عام ١٩١٥-١٩١٦م.

وقد ترافق مع بناء الدول الإقليمية والقطرية تنحية للشريعة الإسلامية، وتقوية للقومية العربية، وحكم بالقوانين الوضعية، وهو ما يعتبر نازلة غير مسبوقة في تاريخ الدولة الإسلامية، مع تنكيسٍ لرايات الجهاد، وسقوطٍ في التبعية لأعداء الشريعة الإسلامية !

ثانيًا: خصائص دولة الإسلام

لقد قام النظام السياسي الإسلامي عبر الدول الإسلامية المتعاقبة على خصائص ومبادئ حاكمة يستدل عليها بأنواع من الأدلة الشرعية النقلية والعقلية، وهي مبادئ وسمات ظاهرة في كل الدول الإسلامية على تفاوت بينها أحيانًا في الالتزام بتلك المبادئ، والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

١- السيادة للشريعة المطهرة:

فالوحي المطهر هو السلطة العليا والجهة السيادية صاحبة التشريع والقانون الإلهي الملزم ومتى ردت الدولة حكم الشريعة ونقضته لم تكن لتحمل صفة الإسلامية.

٢- السلطان للأمة:

فهي صاحبة الحق في تولية حكامها، وهي من تعزلهم عند الاقتضاء، وبين ذلك هي تراقبهم، فليس لأحد أن يفتات عليها، أو يغتصب حقها، وكما تعطي الصلاحيات فهي تسحبها أيضًا! وفقًا للآلية التي تراها ارتكائنًا على مبدأ الشورى.

٣- إقامة العدل:

فالعدل قاعدة الحكم وعروته الوثقى، والسياسة العادلة عين الشريعة، وهو يشمل العدل في القضاء والخصومات، والهبات والأعطيات والاستحقاقات ويعم جميع رعايا الدولة ومواطنيها من غير تمييز، وهو يقتضي مساواة تارة، وإعطاء الحق لصاحبه تارة أخرى.

٤- الشورى ضرورة:

الشورى دعامة الحكم العظمى وضمانة دفع الاستبداد الكبرى، وهي روح سارية في النظام الإسلامي بدءًا من اختيار حاكمه ومرورًا بكل القرارات على

مختلف المستويات في الدولة، والشورى تستلزم حرية الرأي، وعنهما توجد التعددية السياسية في إطار المشروعية والمرجعية، وتتوج الشورى في شأن الحاكم بالبيعة.

٥- ضمان الحقوق والحريات:

دولة الإسلام هي دولة الحقوق الإنسانية والحرية الفردية، سواء في ذلك الحقوق السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو القضائية، أو حقوق الأقلية، والحرية الدينية والفكرية، والشخصية - وذلك كله - تحت قيد النظام العام لدولة الإسلام ومرجعيتها.

٦- صيانة وحدة الأمة والدولة:

أمة المسلمين واحدة، ودولتهم واحدة، معتصمة بأسباب الوحدة، ومجتنبية لأسباب الفرقة، وتتخذ الدولة التدابير المشروعة لحماية الدولة من الانقسام ومنازعة الأمر أهلّه بلا موجب شرعي، ونظر شورى، وتؤكد الأخوة الإيمانية، وتعمق الروابط الإسلامية بين مكونات الشعب المسلم في المشارق والمغرب.

٧- إقامة الجهاد نصرةً للحق وتحريراً للخلق:

الجهاد ضرورة لرد العدوان عن النفس والأرض والعرض، وهو لأجل الدفع ونصرة المستضعفين، كما هو للفتح وإزالة العقبات التي تحول دون تحرير الخلق من الرق لغير الواحد الديان!

٨- طاعة الحكام ومسئوليتهم:

كما ثبت للأمة حقوق على حكامها فقد ثبت للأئمة حقوق على أمتهم، فطاعتهم في المعروف واجبة، وعدم منازعتهم أو منابذتهم لازمة، ونصيحتهم وإعانتهم والصبر عليهم من أوجب حقوقهم على أمتهم، ثم الأئمة مأمورون بأن يتصرفوا وفقاً لمصلحة

أمتهم، فيحموا عقيدتها، وقيموا شريعتها، ويحافظوا على وحدة أرضها ودولتها، ويسيروا بالعدل في حفظ أموالها وتوزيعها وكفاية رعيته وصيانة كرامتهم. ورعاية حقوق العباد أوجب من إقامة الحدود، مع المحافظة على النظام السياسي الإسلامي ورعاية معاملة والقيام بمسئوليته.

٩- تولية الأكفاء الأمناء:

اختيار أهل الكفاية والعلم بالسياسة لوظائف الدولة مع الأمانة وحسن الديانة، فإن تعذر اجتماع القوة والأمانة فالواجب في كل ولاية الأصح لها وبحسبها، فالأعظم قوة يقدم في إمارة الحرب، والأعظم أمانة وديانة يقدم في ولاية المال، وكل شيء بحسبه.

١٠- المرونة والسعة:

النظام السياسي الإسلامي ثوابته محدودة وقواعده معدودة، وفيه مساحات بعد ذلك اجتهادية، تشمل الإجراءات والأطر التنفيذية، وهي متطورة عبر القرون والتجارب، لأنها اجتهادية غير توقيفية، والممايزة بين الخطاب التفصيلي الجزئي، والكلي المقاصدي القيمي العام من الأهمية بمكان ليتسنى تفريق بين ما يحمل طابع التشريع الملزم وما يحمل طابع التراتيب والإجراءات الاجتهادية غير الملزمة؛ دفعا للجمود تارة، وللتحلل من الثوابت أخرى.

١١- إقامة الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فدعوة العبيد إلى عقيدة التوحيد وظيفية عقدية دعوية للدولة، وحفظ الدين بإقامة واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم ما تعنى به في حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، وحمل الكافة عليه.

ثالثاً: نقد الدولة الإسلامية تاريخياً وواقعياً:

١- مثلت دولة الراشدين بعد دولة النبي ﷺ أنموذجاً بشرياً راقياً بلغ غاية الكمال، لاسيما في مرحلة الخلفيتين الوزيرين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وتجلّى في عهد الراشدين النظام السياسي الإسلامي مشرقاً بكل جوانب التميز، فانتقال السلطة مضى بشكل شوري سلمي في نحو ثلاثين سنة، والالتزام بخطاب الوحي والانضباط به كان مثار الاقتداء والاهتداء، مع العناية بجوانب التجديد والاجتهاد، والفصل بين السلطات، وتخصيص مجلس للشورى في المستجدات، وتنظيم أجهزة الدولة إدارياً ورقابياً ووضع نظام للتعامل مع الخلاف الفكري والسياسي وغير ذلك.

٢- مثّل انتقال الحكم بشكل وراثي عبر حكم العائلات انحرافاً عن سنن الراشدين، ومنهج الحكم الإسلامي، وقد تفاوت التزام تلك العائلات بمنهج الحكم في الإسلام، بحيث كلما ابتعدت الشُّقَّة عن زمن خير القرون زادت الانحرافات غالباً، وقد بدأت بالخلل السياسي الذي قد يستدعي أنواعاً أخرى من الخلل أو يصاحبها، مع استمرار الحكم والتحاكم إلى الشرع المطهر في الجملة.

٣- بازدياد الشُّقَّة بين السلطان والقرآن تزداد المظالم وتتعدد المفاسد، ومن الخطأ المنهجي النظر إلى تاريخ الدولة الإسلامية في عصورها بنظرة القداسة والعصمة، كما أن من الظلم اعتبارها مجموعة ممارسات منحرفة يجب تجاوزها جملةً، أو الحط عليها جملةً!

٤- تركزت السلبات والانحرافات السياسية عبر عصور الدولة الإسلامية في دائرة مصادرة حق الأمة في اختيار إمامها، ومشاورتها بالرأي والمشورة في الشأن العام، وتقلص دورها في الرقابة على بيت المال، ومواجهة الظلم

والانحرافات، وهذا ظاهر بدرجات متفاوتة بدءًا من الأمويين وانتهاء بالعثمانيين، ومن المهم تقرير أن الأمة بعلمائها وفقهائها ورجالاتها قاموا بما أوجب الله عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوسائل الاحتساب المتاحة المشروعة، وقل أن سَلِمَ عالم كبير أو داعية مصلح من أذى ناله بسبب ذلك.

٥- تحت قاعدة «يغتفر في الوسائل ما لا يغتفر في المقاصد» استعيرت وسائل ومؤسسات ونظم من حضارات فارس والروم بشكل خاص وجرى إدماجها في بوتقة الحضارة الإسلامية حتى صارت جزءًا منها، وهنا من ينظر لهذا على أنه سلبية من جانب تَحْمُلُ تلك النظم بثقافات أصحابها، ومنهم من يرى ذلك إيجابيًا في دلالته على قدرة الحضارة الإسلامية على التفاعل مع الآخر واستيعاب النافع من التراث الإنساني الاجتهادي.

٦- بسقوط الخلافة العثمانية وتنحية الشريعة الإسلامية، وتنكيس رايات الوحدة الجامعة انتقلت الدولة في تاريخ الأمة الإسلامية إلى مرحلة ما يسميه البعض بالحكم بالخطاب المبدل! حيث جرى استبدال الشريعة لأول مرة في تاريخ المسلمين! وهي نازلة استدعت من علماء ودعاة الإسلام الاستنفار لمواجهة بكل سبيل علمي وعملي ممكن؛ إذ لا مقارنة بين نظام إسلامي منحرف وبين أنظمة علمانية من حيث الشرعية أو المشروعية.

٧- لم يكتف العلماء بالإنكار والإفتاء في هذه النازلة الخطيرة -بل الأخطر- في تاريخ الدولة الإسلامية، بل أسسوا ولأول مرة الجماعات الساعية للتمكين وإقامة سلطان الشريعة بين العباد وفي ربوع البلاد.

وهي إلى يوم الناس هذا ما تزال بين شد وجذب ونجاح وإخفاق لإنجاز ذلك الواجب الشرعي، وقد تعددت التجارب والنماذج في هذا السبيل.



الفصل الثالث عشر ..

حضارة الإسلام



حضارة الإسلام

يمكن تعريف الحضارة بشكل عام بأنها: الرقي والتمدن في مجالات الحياة المختلفة، على قاعدة العقائد والمبادئ، وفي إطار الأخلاق والقيم، فهي: مدى ما وصلت إليه أمة في نواحي نشاطها الفكري والعقلي؛ من عمران وعلوم ومعارف وفنون، والترقي بها في مدارج حتى تصل إلى الهدف الذي تنشده بما يتواءم ويتفق مع أحوالها، وإمكانياتها المختلفة^(١).

وحين يضاف إلى الحضارة مفردة الإسلام؛ فإنها تعني: المبادئ الإسلامية التي تضمّنها الدين الإسلامي لتنظيم هذا العالم وإصلاحه، وقيادته إلى الخير والرقي، والسعادة في الدنيا والآخرة.

وإذا كان فجر الحضارة الإنسانية قد بزغ في الشرق الأدنى منذ قرابة أربعة آلاف وخمسمائة عام؛ فإن الحضارة الإسلامية وقد جاءت - مسبوقة بغيرها - تمثل قمة الانسجام الحضاري والتراكم الثقافي المعرفي الإنساني؛ ذلك أن حضارة الإسلام هي حضارة العلم والقراءة والكتابة، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وقال سبحانه: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

وهي حضارة الدين والدنيا والإحسان معاً، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا

(١) الحضارة الإسلامية وأثرها في الغرب، إسماعيل باغي، (ص ٤٣).

ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [القصص: ٧٧].

وهي حضارة التعارف والتواصل العالمي، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهي حضارة التسامح والعدل والبر، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهي حضارة واقعية متوازنة تجمع بين القول والعمل، والروح والمادة، وهو ما شهد به الغربيون، يقول الفيلسوف الغربي (ديوي): «إن العقل لا يصبح ذا دلالة إلا عندما ينصب على المواقف العملية في الحياة، وهذا الجانب من الحضارة الإسلامية جعلها واقعية، جمعت بين القول والعمل، وحققت في نفس الوقت السمو الروحي، ومطالب الحياة المادية»^(١).

أولاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية:

لما كانت الحضارة مفهوماً يشمل كل جهد ببناء يقوم به الإنسان لتحسين حياته وأدائه مادياً ومعنوياً فقد عُنيت الحضارة الإسلامية بإثراء الحياة بأسرها، وفي جميع مناحيها بالنافع المثمر، والمفيد الإيجابي من عطائها الحضاري المتوضي بالإيمان. ولقد قامت الحضارة الإسلامية، وامتدت لقرون متطاولة؛ لتكون نبراس حضارات عاصرتها ولحققتها، فبينما كانت أوروبا تغرق في جهل دامس في قرونها

(١) فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، عز الدين فراج، (ص ١٩).

الوُسْطى كانت الخلافةُ الإسلامية حاضرةَ العلم، والفكر، والفنون البشرية، والإبداعات الإنسانية في شتى المجالات العلمية والعملية على حدٍّ سواء، وقد انتقلت الكثيرُ من العلوم والفنون إلى أوروبا، وترجمت الكتب العلمية العربية إلى اللاتينية؛ لتكون مادة الانطلاق للنهضة والحضارة الأوروبية الحديثة، والتي بدأت في القرن السادس عشر الميلادي، والعاشر الهجري.

وما من شكٍّ أنَّ أعظمَ ما قدَّمته الحضارةُ الإسلامية للحضارة الغربية يقوم على ركيزتين أساسيتين:

الأولى: كان المسلمون هم الواسطة بين حضارات بشرية - كانت سائدة - وبين الحضارة الغربية المعاصرة، ومما ميَّز الحضارة الإسلامية قدرةً فائقةً على استيعاب الحضارات الأخرى وغربلتها من تأثيراتها الضارَّة، فلم يتأثروا بوثنية الرومان والإغريق، ولم يقبلوا قوانينهم التي رسخت للظلم واستعباد البشر! فكانوا واسطةً حضاريةً راقية لنقل الحضارة وتطويرها في إبداع ناقد وتفكير فاحص، ضمن إطار من الأحكام الشرعية، والأخلاق النبوية.

وبهذا شهد الباحثون الغربيون فقالوا: «لقد طوَّر العربُ بتجارهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادةٍ خام عن الإغريق، وشكَّلوه تشكيلاً جديداً»^(١).

الثانية: أنشأ المسلمون أوَّلَ طريقة للبحث العلمي القائم على التجربة، وهي أعظمُ هدية قدَّمها المسلمون للحضارة الإنسانية عامَّةً، وللغربية خاصَّةً! فقدَّموا «أثمن هدية، وهي: طريق البحث العلمي الصحيح التي مهَّدت أمام الغربِ طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسليطه عليها اليوم»^(٢).

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، (ص ٤٠١).

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، (ص ٤٠٢).

لقد أصَّل العالم المسلم جابر بن حيان لهذا العلم التجريبي بقوله: «قد عملتُه بيدي، وبعقلي من قبل، وبحثتُ عنه حتى صَحَّ، وامتحنُته فما كذب»، وقال: «إننا نذكر في هذه الكتب خواصَّ ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحناه وجربناه، فما صحَّ أوردناه، وما بطل رفضناه»^(١).

وإذا كان رَكْبُ الحضارة الإسلامية قد تأخَّرَ أو تخلَّفَ بسببٍ من تغييبِ دينهم وغيبَتهم عنه؛ فإن المنصفين من الغربيين قد رثى لتلك الخسارة الكبرى، فقال جوستاف لوبون: «لم يكن انحطاطُ المسلمين وزوال دولتهم وركود ريجهم - وهم حملةُ رسالةِ الأنبياء، وهم للعالم البشري كالعافية للجسم الإنساني - انحطاطُ شعبٍ، أو عنصرٍ، أو قوميةٍ، فما أهونَ خطبُهُ! وما أخفَّ وقعُهُ! ولكن كان انحطاطُ رسالةٍ هي للمجتمع البشري كالروح، وانهايارَ دعامةٍ قام عليها نظامُ الدين والدنيا»^(٢).

ثانياً: قنوات التواصل الحضارية بين الإسلام والغرب:

يقول د. كويلر بونج أستاذ العلاقات الأجنبية في جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية: «كُلُّ الشواهدِ تؤكدُ أنَّ العلمَ الغربيَّ مَدِينٌ بوجودِهِ إلى الثقافة العربية الإسلامية، كما أن المنهجَ العلميَّ الحديثَ القائمَ على البحث والملاحظة والتجربة - والذي أخذ به علماء أوروبا - إنما كان نتاجَ اتصالِ العلماء الأوروبيين بالعالم الإسلامي»^(٣).

وقد عبَّرت الحضارةُ الإسلامية إلى أوروبا عبرَ قنواتٍ ومعاييرٍ متعدِّدةٍ، من أهمها:

(١) الخواص الكبير، لجابر بن حيان، المقالة الأولى، (ص ٢٣٢).

(٢) نقلاً عن: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، (ص ١٤٢).

(٣) أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، أحمد الملا، (ص ٩).

١ - الحروب الصليبية:

تلك الحروب التي شنها الغربيون لاستنزاف ثروات بلاد الشام التي تفيض لبناً وعسلاً، فما كان من المسلمين إلا أن أخرجوهم بعد قرنين من الزمان محمّلين بكثيرٍ من مصطلحاتٍ وكلماتٍ عربيةٍ دخلت إلى لغاتهم الأوروبية، وتطور في فنون الحرب، وبناء القلاع والحصون، واستعمال المنجنيق، وتصنيع أنواع خاصة من السيوف، كما انتقلت إلى أوروبا مع أولئك الغزاة أنواع من النباتات والأشجار الجديدة، وعقاقير وأدوية وأصباغ، وأهم من ذلك كله انتقال العادات الراقية وبعض النظم الإسلامية^(١).

٢ - الفتح الإسلامي لصقلية:

فتح المسلمون صقلية عام ٢٨٩هـ، فانتقلت إليها الثقافة والحضارة الإسلامية، وبرزت صناعة المنسوجات العربية، وأدخلت أساليب متقدمة في الزراعة والرّي وإنشاء الحدائق! وتعلّم الإيطاليون في جامعة أنشأها المسلمون في (سالرنو)، وانتشرت ونشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية.

٣ - الأندلس:

قامت الدولة الأموية بالأندلس بواجبٍ عظيم في نقل الحضارة العربية الإسلامية، واستيعاب الحضارة الأوروبية التي كانت في ذلك الوقت، وانتشرت مصانع الحرير والصوف والكتان، وازدهرت الصناعات المعدنية، ونالت العلوم

(١) الحضارة الإسلامية وأثرها في الغرب، (ص ٥٢).

والفنون حظَّها من الاهتمام، واجتذبت جامعة قرطبة الأساتذة والدارسين^(١).
يقول (ستانوود): «لقد احتاج المسيحيون إلى مسلمي الأندلس؛ ليعلموهم
تربية دود القز، ونسج الحرير، وليعلموهم فنون صناعات الخزف، وتكنولوجيا
صناعات المعادن... واحتاجوا إلى النجارين وعمال البناء- من مسلمي الأندلس-؛
ليتعلموا منهم فنون البناء»^(٢).

ثالثاً: إسهامات المسلمين الحضارية في العلوم والفنون:

لقد تعددت منجزات المسلمين الحضارية عبر قرونٍ تعاقبت ودولٍ إسلامية
تتابعت، وحفر المسلمون اسم الحضارة الإسلامية بحروف من ضياءٍ علميٍّ
ومعرفيٍّ عمَّ الدنيا بأسرها، وفيما يلي مجالات ونماذج من إسهامات حضارية
وعلمية شهد لها القاصي والداني:

١ - الجامعات والمراكز العلمية:

سجل المسلمون أوَّل جامعة علمية لهم بفاس المغرب عام ٢٤٥هـ بجامع
القيروان، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ (دلفان): «إن جامعة القرويين تُعتبر أوَّل
مدرسة في الدنيا»، ويؤكد ذلك (بندلي)- من أكاديمية موسكو- فيقول: «إن أقدم
جامعة في العالم ليست في أوروبا- كما كان يُظنُّ- بل في إفريقيا، وفي مدينة فاس
عاصمة بلاد المغرب»^(٣).

كما أن أوَّل مدرسة للطب في أوروبا أنشأها المسلمون في (سالرنو) بإيطاليا.

(١) الثقافة الإسلامية، مجموعة من الدكاترة بالسعودية، (ص ١٢٠).

(٢) الحضارة الإسلامية وأثرها في الغرب، (ص ٥٢).

(٣) المسلمون والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل، (ص ٣٦).

وأول مرصد فلكي عرفته أوروبا كان المرصد الذي أنشأه المسلمون في أشبيلية^(١).

٢- المكتبات:

كانت مكتبة بيت الحكمة ببغداد- التي أمر بإنشائها هارون الرشيد- أوّل مكتبة عامّة وأكاديمية في البلاد الإسلامية، ثم تتابع الخلفاء على رعايتها وإمدادها بالكتب، حتى وصفها (ول ديورانت): بأنها مجمع علمي، ومرصد فلكي، ومكتبة عامة. وقد اعتبر بعض الدراسين للتاريخ أن أوّل جامعة بالمعنى الحديث في العالم هي دار الحكمة التي مثلت مؤسسة جمعت بين مهامّ المكتبة الأكاديمية العلمية ومكتب الترجمة^(٢).

ثم وُجدت دار العلم، أو دار الحكمة بالقاهرة في عهد العزيز بالله الفاطميّ عام ٣٩٥هـ وبجوارها مكتبة قرطبة التي أنشأها المستنصر بالله، وامتدّ تأثيرها لتشمل الحركة الثقافية في سائر بلاد الأندلس^(٣).

٣- مكتشفات وابتكارات علماء المسلمين:

أ- مكتشفات علم الكيمياء:

لجابر بن حيان (١٩٧هـ) عدد من الاكتشافات العلمية والمركّبات لکیمیائیة المهمة، منها: اكتشاف الصودا الكاوية، وحمض النيتريك، وحمض الهيدروكلوريك، وهو أوّل من حضّر كربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم، ومركبات الزئبق، وحمض الخليك، كما طور علم الكيمياء أبو الريحان البيروني (٩٧٣هـ) وترجمت كتبه لعدد من اللغات.

(١) المسلمون والعلم الحديث، (ص ٣٧).

(٢) المكتبات في العصور الإسلامية، منصور سرحان، نقلاً عن قصة الحضارة، (ص ٥٧).

(٣) المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، ربحي مصطفى عليان، (ص ١٦٠).

ب- مكتشفات علم الفيزياء:

يُعتبر الحسن بن الهيثم رائد علم البصريات، ومؤسس علم الضوء الحديث، وهو أوّل مَنْ كَبَّرَ العدسات، وأوّل مَنْ رسم العينَ رسمًا تشريحيًّا دقيقًا، وأوّل مَنْ قال بأن للضوء سرعةً محدودةً، وجاء من بعده أبو الفتح الخازن ٣٤٩هـ الذي مهّد الطريقَ لجاليليو ليبتكر مقياس الحرارة (الثرموتر).

ج- مكتشفات علم الرياضيات:

يُعتبر الخوارزمي (٢٣٢هـ) واضعَ علم الجبر، وعلم الخوارزميات الرياضيّة، ولا تزال حلولُهُ للمعادلات الجبرية مستخدمةً إلى الآن، وبعده يأتي أبو بكر الكرخي (٤٢٠هـ) صاحب نظرية مجموع مربعات الأعداد الطبيعية، ثم جمشيد الكاشي (٨٤٠هـ)، وهو أوّل مَنْ أدخل الصفرَ والكسورَ العشريّةَ في العمليات الحسابية، وله كتابٌ بعنوان: مفتاح الحساب. وبعده بهاء الدين العاملي (١٠٣٠هـ) صاحب القانون الخاص بجمع الأعداد الفردية والزوجية.

د- مكتشفات علم الفلك:

كان اختراع الاسطرلاب على يد أبي إسحق إبراهيم بن حبيب (١٨٠هـ) فتحًا في مجال الفلك، وتعيين مواقيت الصلوات، والملاحة البحرية، فيُعتبر بذلك مؤسسَ علم الفلك، وهو أوّل مَنْ وضع مجموعةً من الجداول الفلكية القائمة على استخدام التقويم الهجريّ، ومن بعده أبو الحسن الصدفي المشهور بابن يونس المصري (٣٤١هـ) وهو مخترعُ رَقَاصِ الساعة، وإليه يعود الفلكيون في حساب جاذبية القمر.

هـ- مكتشفات علم الطب:

يُعتبر الرَّازِي (٣١٢هـ) أَوَّلَ مَنْ اكْتَشَفَ الكحول، واستخدمه لتطهير الجروح، ومواضع العمليات الجراحية، ويُعدُّ كتابه: (الحاوي) المرجع الرئيس للطب في أوروبا لمدة أربعة قرونٍ متتالية، وهو أَوَّلُ مَنْ مَيَّزَ بين الجدري والحصبة، وفصل بين طب الأطفال وطب النساء، وترك ٥٦ كتابًا ورسالةً في الطب من تأليفه، كما يُعتبر ابن سينا (٤٢٨هـ) أَوَّلَ مَنْ شَخَّصَ مَرَضَ التهاب العصب الخامس، وفرَّق بين أنواع شلل الوجه المختلفة، وجاء بنظرية تعقيم وتطهير الجروح باستخدام اللصقات الساخنة مع الكحول المركز، وكان رائدًا في الطب النفسي، وترك كتابه (القانون) في الطب؛ لِيُدْرَسَ في جامعتي: فيينا، وفرانكفورت لمدة ثلاثة قرونٍ، وليصفه وليم أوسلر: بأنه أشهر كتاب طبي في التاريخ.

وأما ابن النفيس (٦٧٨هـ) فهو مكتشف الدَّورَتين الدمويتين: الصغرى، والكبرى، وله بحوث غاية في الإتقان في التشريح، ووظائف الأعضاء، وكان رئيس الأطباء في عهد الظاهر بيبرس.

وترك مسوِّدة «الشامل في الصناعة الطبية في ثلاثمائة مجلدة، بيَّض منها ثمانين، ثم وافته المنية».

وأخيرًا؛ فإن أبا القاسم الزهراوي (٤٠٣هـ) سبق الأطباء بأوليات كثيرة سجَّلها لنفسه، فهو أَوَّلُ مَنْ شَرَحَ مَرَضَ نَزْفِ الدَّمِ وسيولته المسمَّى: (هيموفيليا)، وأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ عن علاج عاهات الفم الخلقية، وأَوَّلُ مَنْ اسْتَعْمَلَ آلَةً خَاصَّةً لاسْتِئْصَالِ اللُّوزَتَيْنِ، والثَّالِثُ، وابتكر آلَةً خَاصَّةً لاسْتِخْرَاجِ الجَنِينِ المَيِّتِ، وأَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَ القُطْنَ الطَّبِيَّ فِي الاسْتِعْمَالِ، وأَوَّلُ مَنْ اسْتَعْمَلَ الخِيوطَ الطَّبِيَّةَ المُسْتَعْمَلَةَ الآنَ فِي العِلْمِيَّاتِ الجِرَاحِيَّةِ، وأَوَّلُ مَنْ اسْتَعْمَلَ الخِيَاطَةَ التَّجْمِيلِيَّةَ تَحْتَ الجِلْدِ، وأَوَّلُ مَنْ ابْتَكَرَ القُسْطَرَةَ البُولِيَّةَ، وأَوَّلُ مَنْ صَنَعَ الدَّوَاءَ عَلَى شَكْلِ أَقْرَاصِ

بكبسها في قالبٍ من العاج، أو الأبنوس، وترك ٢٥٠ صورة للآلات الجراحية التي استعملها في عملياته، وأول من اخترع منظار المهبل المستخدم في الفحص النسائي، إلى قائمة طويلة من الإنجازات الطبية المتنوعة!

وبعد؛ فإن قائمة أخرى من إنجازات المسلمين الحضارية المعاصرة يمكن رصدُها مع إثبات الفارق الكبير لصالح الغرب اليوم، على أن عودة الحضارة الإسلامية لسابق مجدها وسالف عزّها يمكن أن تناله أيدي بني الإسلام اليوم، إذا ما اعتزُّوا بالإسلام وصدقوا في الانتساب إليه، وأخذوا بأسباب الإصلاح الحقيقي للتعليم، والاقتصاد، والسياسة، والعسكرية، وحصلوا أسباب القوة في كل ميدان، مع التمسك - أولاً وآخرًا - بقوة الإيمان، وتلافوا أسباب الضعف والهوان، وتجردوا من التبعية والإمعية!

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٩].

يقول مرمادوك بكشوك: «المسلمون يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشره بها سابقاً بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول.. لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم»^(١)، وبعد تلکم الشهادة الصادقة فقد وجب على أهل الإسلام أن يبادروا الأخذ بأسباب حضارتهم، والعودة إلى سالف عهدهم وسابق عزهم!

كنا جبالا في الجبال وربما سرنا على موج البحار بحارًا

(١) الرسول ﷺ في عيون غريبة منصفة، الحسيني معدي، (ص ٧١-٧٢).



الفصل الرابع عشر ..

عطاء الإسلام للبشرية المعذبة



عطاء الإسلام للبشرية المعذبة

إن عطاء الإسلام للبشرية لا يُترجمُ عنه مثلُ وصفِ حال المسلمين في ظل تفيئهم لظلال الإسلام ديناً ودولةً، عقيدةً وشرعةً، وهذا يتمثل أعظم تمثُّلٍ في دولة الخلافة الراشدة، ثم ما بعدها من دول الإسلام.

وإن مقارنة ما بلغه المسلمون من حضارة مبدعة في مجال الروح والبدن والرقى المادي والسمو الديني يؤكد باقتدار أن الإسلام ولا شك حضارة الأُمس والغدا! ولا جدال اليوم أن الغرب بلغ في الرقي المادي درجاتٍ عاليةً مكَّنته من الثورة الصناعية، والتقنية، والمعلوماتية، فبلغ الفضاء، وغاص في الماء، لكنه لم يفلح في أن يربط الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة! فلم يحقق لنفسه سكينته، ولم يورثه التقدم المدني طمأنينةً، بل قامت الحروب طاحنةً، واستمرت النزاعات مزمنةً، وتوتر الإنسان في كل مكان، وتلوث أجواء الفضاء ومصادر الماء والغذاء!.

وجنت الحضارة المادية الغربية على الإنسان، فقوّضت كثيراً من خصائصه، وتعدّدت على مقوماته بالتشويه والهدم، فتحوّل الإنسان في ظلها إلى ترسٍ في آلةٍ صماء، أو إلى رقمٍ عدديٍّ في بيانٍ إحصاء!.

وسرُّ تلك المعاناة وذلك الشقاء: أن المادية الغربية لم تهتد إلى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فعاشت جسداً لا روحَ له، فدمّرت الجانب المعنوي في الإنسان.

يقول جون ديوي: «إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة... فهي حضارة تدمر نفسها بنفسها»^(١).

ويقول كولن ولسون: «لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها وجعلتهم يسلمونها قياد أنفسهم، يبيعها المصاييح الجديدة لهم مقابل المصاييح القديمة، لقد أغرتهم فباعوا أرواحهم وأخذوا بدلاً منها (السينما)، و(الراديو) وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك الصفقة الجديدة إقفاراً روحياً»^(٢). وعلى هذا المعنى أكد جارودي مراراً، فأفاد بأن الحضارة الأمريكية تقوم على تأليه الدولار، ووحداية السوق، بدل تأليه الله ووحدايته، كما هو بادٍ في كثير من محاضراته وكتبه، ككتاب: أمريكا طليعة الانحطاط!^(٣).

وكما عجزت الفلسفات اليونانية القديمة عن أن تُسعد الإنسان بهدايته إلى برّ الأمان، وإيجاد حالة من السكينة والطمأنينة تسكن الروح، ويطمئن إليها القلب، فقد عجزت الفلسفات الغربية والشرقية المعاصرة، وتناقض أصحابها فعادوا مخذولين، ورجعوا متحيرين، ومناقضين لفطرتهم، وما هو مركز في أرواحهم، لم تشف لهم علة ولم تنق لهم غلة، فتعبوا ولم يُغنوا! وحاموا ولم يردوا!! وإذا كان الوحي هو النجاة، والتوحيد هو المخلص الوحيد من التيه في هذه

(١) إنسانية الإنسان، دوبو، (ص ٤٣).

(٢) سقوط الحضارة، لكولن ولسون، وانظر: حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا، ليوسف القرضاوي، (ص ١٢).

(٣) نشر دار الشروق بالقاهرة ١٩٩٩م.

الحياة، فقد عجزت الملل والنحل عن الإجابة عن أسئلة الفطرة إلا الإسلام. وقد تاهت الأديان الوضعية والمحرفة في هداية الإنسان، وتبنت الشرائع التي حرّفت أصحابها من العقائد ما أُدخل عليها من الوثنية، وشوه صفاء التوحيد؛ حتى إن معتنقي المسيحية اليوم لا يعتنقونها عقيدةً ولا شريعةً ولا سلوكًا وأخلاقًا! ولا يرتبطون بها إلا في الأحاد من الأيام، وبنسب لا تزيد عن ٥٪ بالمائة من تعداد أهلها.

وعجز المسيحية اليوم لا يزيد عنه إلا عجز اليهودية التي لا هم لها في هداية العالم، وإنما في استعباده، ولا سعي لها في تغييره إلا بما يزيد من فسادِه وإنحلالِه!. فلم يبقَ إلا حضارة الإسلام الرائدة، والتي تجتمع فيها عناصر الهداية للبدن والروح، والقلب والقالب، وهو إسلامٌ يُشيع السلام في نفس الإنسان أولاً، ثم في العالم، يتبنى الرفق والرحمة، ويُشيع الخير والبر، ويأمر بالتعارف، وينهى عن التناكر، ويدعو للتسامح، وينهى عن التقاتل والتدابير والتباغض، يجمع القلوب على حقائق الوحي، ويوظف الأبدان بما يعود بالخير على بني الإنسان. العقيدة في الإسلام لا تتناقض مع فطرة الإنسان، والعبادة تدعو إلى عمارة الأكوان وإصلاح الأديان، والعقل في ظل الإسلام كائن مكرّم غير مهانٍ، يهتدي بنور الوحي، ويسير في ظلّه ولا يعانده، ولا يناقضه.

والإيمان كما يُستمد من الوحي يُستمد كذلك من العلم، ويرتبط بالعمل، والدعوة إلى كل ذلك ضمانه من القصور والانحراف، والدنيا تُطلب لأجل الانتفاع والتزوّد منها في رحلة الآخرة، والقوة تُعدّ نصرةً للحق، وللمنع من التعدي على جنابه، والأخلاق ملازمةٌ للإنسان في كل أحواله وأحيان، محققة

لرُقيّه ومؤكّدة لقيمه.

والدولة في مجتمع الإسلام تسير في هديه، وتعمل بأحكامه، وترعى قيمه وآدابه، وتحفظ ثوابته، وتجتهد في تحقيق مقاصده، وتحقق لرعاياها أمناً وسلاماً وكفاية ورعاية.

والقانون في الإسلام يقوم برسالة العدل والتحكيم بين الناس بمقتضى التشريع الإلهي المحقق للمصالح والمؤيد بالرحمة والإحسان، والحامي لحقوق الإنسان!.

وميزان الوسطية والاعتدال هو روح الإسلام، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]، فلا غرو أن آتت الوسطية أكلها واجتنتى الخلق ثمارها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فسَادَ الإسلامُ ومَلَكٌ، وانتظَمَ أمرُهُ فَعَدَلُ، وآمنَ الناسُ فازدهَرَ، وازدهرت معه شتى العلوم والمعارف والصناعات، وقامت في ظل رسالته الدول، وترعرعت الحضارات، فلا تسل عن امتداد رقعته في دولته، ولا عن تقدم أهله في اقتصادهم ووفرة ما بأيديهم، أما عن الطمأنينة فقد كان وما يزال مجتمع الإسلام أقل المجتمعات في نسب الانتحار، والأمراض النفسية.

إحصائيات عن الشقاء الغربي:

على حين ارتفعت معدلات الانتحار في ألمانيا لدرجة بلغ فيها متوسط عدد محاولات الانتحار في أنحاء البلاد محاولة واحدة كل ٤ دقائق؛ حيث إن ٦٠٪ من

الشباب فكروا في محاولة الانتحار، ومتوسط ضحايا الانتحار قتل واحد كل ٤٧ دقيقة. وتعتبر اليابان واحدة من أكثر الدول الصناعية التي تشهد حالات انتحار؛ إذ انتحر في العام ٢٠٠٦ م قرابة ٣٢ ألف ياباني ويابانية.

وفي الولايات المتحدة كشفت إحصائية نشرتها صحيفة (USA TODAY) في مارس ٢٠٠٥ م عن أن حالات الانتحار وصلت إلى ٢٩٠٠٠ حالة سنوياً في أمريكا. وصدق الله الحكيم الرحيم إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

وعن ترابط المجتمع بأسره وعائلاته في مجتمعات المسلمين فحدث ولا حرج. وقد شهدت أمريكا في عام واحد ما يقرب من ٤٠٠٠٠ حالة اغتصاب بالقوة، وفي عام واحد ١٠٠٠٠ حالة اغتصاب للأطفال تحت ١٢ سنة، ٢٠٪ منها تم بواسطة الآباء. وأعلن مركز مكافحة الأمراض والوقاية الأمريكي: أن ٣٦٪ من المواليد في أمريكا جاءوا من علاقات غير شرعية بعيداً عن الزواج، وهي أعلى نسبة في تاريخ أمريكا منذ نشأتها.

وأعلن مكتب الإحصاء الحكومي في فرنسا: أن عدد الأطفال الذين وُلدوا خارج نطاق الزواج في ٢٠٠٦ م تجاوز عدد الأطفال الذين وُلدوا لأبوين متزوجين، وذلك لأول مرة في تاريخ البلاد.

وذكر المكتب: أن من بين ٨٣٠ ألف مولود في فرنسا عام ٢٠٠٦ م ولد ٥٠.٥٪ لأبوين غير متزوجين مقابل ٤٨.٤٪ في عام ٢٠٠٥ م، وأقل من ٤٠٪ قبل ١٠ سنوات.

وأعلن المركز القومي للإدمان وتعاطي المواد المخدرة التابع للجامعة

كولومبيا الأمريكية أن نسبة من يشربون الكحول من الطلبة ما بين عام ١٩٩٣م، وحتى عام ٢٠٠٥م وصلت إلى ٧٠٪، وأن ٩٧ ألف حالة اغتصاب أو هجوم جنسي قد حدثت نتيجة استخدام الكحول، أو المخدرات في جامعات أمريكا، وذلك من عام ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٥م فقط.

وأوردت إحدى الدراسات الصادرة في واشنطن والتي أعدها مركز الضحايا الوطني، ومركز الأبحاث ومعالجة ضحايا الاغتصاب أن ثمان وسبعين امرأة يتعرضن للاغتصاب كل ساعة، وتضيف الدراسة أن ١٣٪ من النساء في أمريكا تعرّضن للاغتصاب على الأقل مرة واحدة في حياتهن.

وكشف تقرير نشرته محطة (CNN) الإخبارية الأمريكية في الأول من يناير ٢٠٠٢م عن انتشار ظاهرة تجارة الرقيق من النساء حول العالم لاستخدامهن في الأعمال الجنسية المحرّمة، وقد أكّد هذا التقرير أن هناك مائة وعشرين ألف امرأة من أوروبا الشرقية وروسيا والدول الفقيرة حولها يتم تهجيرهنّ إلى أوروبا الغربية لهذا الغرض الدنيء، وأكثر من ١٥ ألف امرأة يتم إرسالهن إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأغلبهن من المكسيك.

وتباع النساء القادمات من دول شرق آسيا في أمريكا بستة عشر ألف دولارٍ للواحدة؛ ليتمّ استخدامهن بعد ذلك في بيوت الدعارة والحانات.

وفي مجال انخفاض الجرائم وشيوع الأمن لا تخطئ عين المنصف سلامة المجتمعات الإسلامية وسلامتها بالمقارنة بالدول غير المسلمة.

في دراسة أجريت لمدة ثلاث سنواتٍ احتلت أمريكا المركز الأول في معدل الجرائم؛ فقد ارتكبت ١٢ مليون جريمة في ثلاث سنواتٍ فقط، ويليهما في الترتيب بريطانيا، ثم ألمانيا، ثم روسيا، وتأتي أول دولة عربية في الترتيب الثالث والثلاثين

بمعدّل ٣٠٠٠٠٠ جريمة.

وقُتِلَ بين عامي ١٩٧٩ و ١٩٩١ م خمسون ألفَ أمريكيٍّ، ثَقُلَ أعمارهم عن ١٩ سنة، (٩٠٠٠ منهم أقلُّ من ١٤ سنة) بالرصاص، والحوادث، والجرائم المختلفة. وفي أمريكا يوجد أكبرُ عددٍ من السجناء في العالم كلّهُ (٢ مليون سجين)، ثلاثة أرباعهم من السود!

وأعلن المدعى العام الروسي (يوري تشايبكا): أن عددَ الجرائم في بلاده لعام ٢٠٠٦ م وصل إلى حوالي ٨.٣ مليون جريمة، ما زال نصفها دونَ حلٍّ. وأشار إلى أنه سُجِّلَتْ زيادةٌ في نسبة الجرائم التي لم يَصِلِ التحقيقُ فيها إلى نتيجة؛ لتصل إلى ٥٠٪^(١).

وأخيرًا؛ فإن الالتزام بالإسلام ضرورة شرعية، وتاريخية، وواقعية، لا يحققها إلا أبناءه الكرام الذين ينتسبون إليه بحق الإسلام. وما تنفع الخيلُ الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام!

فلا بدّ من تهيؤ أبناءه لحمل رسالته، والقيام بأمانته، وليس يفيد إسلام بلا مسلمين، ولا سيف بلا بطل مجاهد!.

والمجتمعات الإسلامية تنتظر عودةً صادقةً لتمثّل عقيدته، وشرعيته، وعبادته، ودعوته، وأخلاقه لتحصل القيادة والريادة من فورها، وتتجدد بطولات حطين، ويعود صلاح الدين! ﴿وَمَا ذَلِك عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

(١) الشريعة لماذا، د محمد يسري (ص ٢٠٦-٢٠٧).



الفصل الخامس عشر

لماذا الحرب على الإسلام؟!



لماذا الحرب على الإسلام؟!

يخطئ من يظن أن الحرب على الإسلام هي وليدة أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ألفين وواحد بعد الميلاد، وذلك أنه منذ فجر التاريخ الإسلامي والسَّهام تُصَوَّب إلى نبيِّ الإسلام ورسالته، ومحكمات عقيدته وشريعته، وخلافته ورمز دولته، تُبذل في هذا السبيل الجهود الهائلة، وتنفق الأموال الطائلة، وتُجرَّد الحملات الصليبية الثمانية، عبر قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠هـ)، تؤازرها الموجة التترية الوثنية العاتية - بدعوة صليبية حاقدة - وتتبعها هجمة بربرية على الحضارة الإسلامية الأندلسية؛ فحقبة استعمارية انتقصت الوطن الإسلامي من أطرافه الآسيوية، ثم أردفت بحملة فرنسية (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) إلى قلب الوطن الإسلامي والمنطقة العربية.

وتميز التحدي الاستعماري الغربي الحديث في هذه المرة بغزو فكريٍّ صاحب احتلال البلاد ونهب الثروات، ثم آل الأمر بعد الحرب العالمية الثانية (١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م) إلى غزوة غربية حديثة تجلب بخيلها ورجلها، وتقتل بقضها وقضيضها، وتُغري بغواية التغريب للعقل، والاحتلال الفكري للشرق بتبعية في الثقافة، بل وتنصير في الدين، ويقدم هذا مغلفاً بغلاف من العولة لتبرّر وتكرّس هيمنة الغرب المستعمر على العالم بأسره.

ثم إن التاريخ يشهد أن تلك التحديات الصليبية والموجات الاستعمارية قد تكسّرت على أرض الإسلام، حتى تحول الشرق المسلم إلى مقبرة لموجات وإمبراطوريات الغزاة الغربيين.

والمسلمون اليوم يقفون في وجه حملة غربية عالمية، تهتك كلّ حرمة، وتحارب كلّ فضيلة، تُقدّم الإسلام لشعوبها على أنه الخطر المقبل الذي سيُهْلِكُ الحرث والنسل، ويدمر منجزات الحضارة الحديثة ويُغرق البشرية في طوفان من الدماء والأشلاء.

وفي سبيل هذه المواجهة تُستباح ما تَفَتَّقَتْ عنه قريحة الشيطان من بغي وإجرام، وتُنتهك حرمة رسل الله عامة، وحرمة نبيّنا ﷺ خاصة، وتُنقل أحاديث الإفك الظالم، وأخبارُ البهتان الظاهر، وتُروّج مقالاتُ الحقد الصليبي الصهيوني الأعمى، بل وتُعقد التحالفات الدولية لحرب الدول الإسلامية بشكل جماعي يذكر بالحروب العالمية؛ لكن المفاجأة هنا هي في كون كثير من تلك الدول المحاربة هي معدودة في الدول الإسلامية !!

وهو أمرٌ يستوجب وقفةً متأنية مع هذه المستجدّات؛ محاولةً لفهمها وتجميع عناصرها السابقة والمعاصرة، وربطها في محاولة لإدراك الظاهرة حتى يتم التفاعل معها، والتعامل مع مظاهرها بشكل صحيح.

أولاً: صورة الإسلام ونبيه في العقلية الغربية:

يذهب كثير من الباحثين إلى أن تاريخ العداء يبدأ من العصور الوسطى الأوروبية، إلّا أنّ هذه الفرضية تدحضها وقائع كثيرة، بل وتصريحات عديدة لغربيين.

يقول الكاتب والقائد الإنجليزي جلوب (١٨٩٧م - ١٩٨٦م): «إن تاريخ

مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»^(١).

أي: إلى تاريخ ظهور الإسلام وبزوغ فجره على المعمورة؛ حيث أزال النور الإسلامي ظلمات عشرة قرونٍ تطاول فيها الغربُ الإغريقيُّ والرومانيُّ النصرانيُّ على الشرق، فاحتلَّ أرضه، ونهب ثروته، وقهر ثقافته، فكان الفتح الإسلاميُّ تحريرًا للإنسان من الفتنة في الدين، وتحرُّرًا للأوطان من ذلك العدوان.

ولقد رأى الغرب في هذه الديانة الوليدة عدوًّا عقائديًّا وحضاريًّا، يقدم محبة الله تعالى على محبة الإنسان، ويجعل التوحيد فكرةً يتمحور حولها الإنسان، وذلك في مقابلة فكرة تقديس الإنسان وعبادته، والتي قامت عليها أديانهم المحرفة، فلم تكن قضية الإسلام منازعةً على ثروات أو منافسةً على زعامات.

وإن نظرة إلى المناهج التي تشكل عقلية الناشئ في الغرب عن الإسلام تُنبئُ بحجم الخلل والكيد المنظم والتشويه المتعمد للصورة في تلك المناهج الدراسية. وفي دراسة أعدها د. مايكل سليمان أستاذ العلوم السياسية بجامعة (كنساس) بأمريكا بعنوان: تأثير المقررات الدراسية في الثانوية على تكوين المخيلة الأمريكية لشعوب الشرق الأوسط، ومن خلال استطلاع إحصائي لآراء الأساتذة والطلاب في المدارس الثانوية في ست ولايات أمريكية، انتهى الباحث إلى أن هذه الشريحة يُعبّرون عن آراء تعميمية سلبية عدائية عن الإسلام والمسلمين، وقلما يُعبّرون عن آراء إيجابية.

وقد نقل في دراسته قول بعضهم في تعريفهم للإسلام: «إنه دين زائف»، أو «إنه الإيمان الذي يُعوِّق التفكير الخلاق»، أو «إنه الدين الذي يسبب تحلُّفًا في نمو نهضة أتباعه». أما تصور الطلاب للمسلمين فهو أنهم: «قوم يحبون الحروب بطبيعتهم»، أو: «قوم

(١) مقال بجريدة الشرق الأوسط، لجمال شاهين، عدد، (٩٩١٣) في ١٨ ذي الحجة ١٤٢٦هـ.

متدينون مخدوعون من رجال الدين»، أو: «أنهم أصحاب الدين العجيب غريب الأطوار». وكثير من أولئك يربطون بين الإسلام والحروب الصليبية، ومنهم من يربط بينه وبين تنظيمات الأمريكان السود في أمريكا من أتباع (إليجا محمد)، ظانين أنهم يمثلون الإسلام الحق.

وكما أشارت الدراسة إلى أن عددًا من الأساتذة كان يحمل انطباعًا جيدًا عن الإسلام وأهله، إلا أن إلمامهم بالإسلام ليس كافيًا.

وفي دراسات حديثة عن المناهج الدراسية في المراحل الابتدائية إلى الثانوية في أمريكا، ظهر بوضوح أن تحسنًا كبيرًا قد طرأ على مناهج الدراسات التاريخية، وأن تصحيحات كثيرة قد طرأت على المناهج بما يتفق مع عدد من الحقائق، مع حرص على توخي الدقة واللياقة قدر الإمكان.

وفي دراسات أخرى عُنيَتْ بالمناهج الدراسية الأوروبية في ذات المراحل، ظهر أن المناهج في انجلترا تميل إلى تجاهل المسلمين، وتبخس معطياتهم الحضارية، وأن تحسنًا ملحوظًا قد بدا في المناهج الفرنسية، في حين أن المناهج الدراسية الألمانية لا تزال مشبعةً بنزعة عدائية شديدة تجاه الإسلام وأهله، بتأثير التراث الاستشراقي الذي خلفه أمثال: (جوزيف شاخنت) و(أوغست فيشر)، ولوحظ الاستخفاف بالإسلام وتاريخه وثقافته في المناهج البلجيكية، وأما المناهج في كندا فإن سياستها الصارمة في هذا الأمر هو الحيادية التامة، فهي تطبق علمانية لا تبيح لمؤلفي الكتب المدرسية أن يتهجموا فيها على أي دين، بما في ذلك الإسلام^(١).

فإذا كانت الصورة عن الإسلام على النحو الذي ظهر، فلا شك أن ممثله الأول ﷺ سيناله القسط الأكبر من التجني والتشويه.

(١) يراجع: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، د. محمد وقيع الله، (ص ٦٩-١٦٥).

ولا تزال ذاكرة التاريخ تحفظ أن يوحنا الدمشقيّ (٦٧٦م - ٧٤٩م) (٥٥- ١٣١هـ) قدّم كتابه الذي أسماه (المهرطقة)، يهاجم فيه النبيّ ﷺ وسيرته، زاعماً أن القرآن من وضع بحيرا الراهب وبمساعدة من النبيّ ﷺ الذي أخذ عن ورقة بن نوفل - وكان قسّاً يترجم الأنجيل المحرّفة إلى العربية.

وفي سياق العصور الوسطى ذكر بيدرو باسكال: «أن المصادر الإسلامية تفيد بأن راهباً مرتدّاً عن النصرانية يقال له بحيرا رأى محمداً، وقرّبه إليه، وعلمّه الدينَ المحرّف، وحذّر عمّه أبا طالب من أن يصيبه اليهودُ بسوءٍ، وسرعان ما تعلم محمد أمور الرّهينة، وانقطع للتنسّك بجبل في مكة، مهيناً نفسه لتزوير كتاب ديني يزعم أنه أوحى إليه»^(١).

وتكفي في هذا الصدد مطالعات سريعة لمحطات البثّ النصراني، والجامعات الأصولية المسيحية، ومواقع الإفك الإلكتروني، وما يشه أمثال: بات روبرتسون^(٢)، وفرانكلين جراهام^(٣)، وجيري فاينز^(٤)، وجيري فالويل^(٥)،

(١) N. Daniel, Islam and the West: The making of an image. Edinburgh university press, Edinburgh, ١٩٦٦, P.٢٣٥.

(٢) بات روبرتسون: قسيس إنجيلي معروف بتأييده المطلق لإسرائيل، يمتلك عدداً من المؤسسات الإعلامية، كما يمتلك محطة فضائية، وهي محطة «البث النصراني Christian Broadcasting»، والرجل يقف خلف إنشاء أقوى تحالف سياسي ديني في الحزب الجمهوري.

(٣) فرانكلين جراهام: هو ابن القسيس الأمريكي المشهور بيلي جراهام، حيث عمل قسيساً خاصاً للرؤساء الأمريكيين منذ عهد ريتشارد نيكسون، وحتى الرئيس السابق بيل كلينتون، وقد تولى فرانكلين مهام أبيه؛ حيث قام بالمراسم الدينية لتنصيب الرئيس جورج بوش، إضافةً إلى توليه كافة المسؤوليات الكنسية التي أنشأها أبوه.

(٤) جيري فاينز: راعي كنيسة في ولاية فلوريدا، وهو من أبرز المتحدثين الأمريكيين في المؤتمر السنوي للكنائس المعمدانية الجنوبية، وقد صدرت منه إهانات بالغة للنبي ﷺ بمحضر الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش.

(٥) جيري فالويل: قسيس إنجيلي معروف بولاية فرجينيا الأمريكية، يملك جامعة خاصة أصولية، وله برنامج إذاعي وتلفزيوني أسبوعي، يهاجم فيه النبي ﷺ، كما أنه يروّج من خلال موقعه الإلكتروني لكتاب: «فلتقدم إلى

وأخيرًا بابا الفاتيكان^(١)!!

ومن بعدُ جاءت تلك الرسوم المسيئة للنبي ﷺ من الدانمرك وتبعته على ذلك عدة دول، وأخيرًا فرنسا عبر مجلة يسارية حاكمة! ^(٢).

ثانيًا: أسباب الكراهية والتخوف من الإسلام:

لقد بان من خلال العرض السابق لصورة الإسلام ونبه في التراث الغربي القديم والمعاصر ومناهج التعليم أن أسباب هذا التطاؤل متعددة، ويمكن تصنيف هذه الأسباب إلى فئات محدّدة، ويمكن بسهولة فهم هذه الأسباب محرّرة في النقاط التالية:

١ - منع المسيحية من الانتشار والتوسع:

يبدأ ذلك من تحرير الشرق بالتوحيد الحقّ، يقول ليفي سترأوس: «إن وجود الإسلام قد لعب دورًا مزعجًا: لقد قطع إلى نصفين عالمًا كان يستعد للاتحاد، وتدخل بين الهلينية والشرق، وبين المسيحية والبوذية، لقد قام الإسلام بعملية أسلمة للغرب، ومنع المسيحية من أن تتعمّق» ^(٣).

معركة هرمجدون»، وهي معركة نهاية التاريخ في معتقدات الإنجيليين.

(١) بابا الفاتيكان بينديكت السادس عشر: هو أعلى رمز ديني في الغرب المسيحي، وقد اختار الرجل أن تكون مقدمة محاضراته - التي ألقاها في جمع من العلماء الألمان في جامعة ريجينسبرج هجومًا صريحًا على نبي الإسلام، حيث قال - : «أرني ماذا قدم محمد من جديد؟ وسوف لن نجد إلا أمورًا شيطانية وغير إنسانية»، وقد استقال البابا، بعدما قيل إنه قرأ عن الإسلام، وندم على ما كان منه، وزاد بعضهم أنه أسلم!! فאלله أعلم.

(٢) وهي «شارلي ابيدو» والتي تعرضت لهجمات انتقامية نظرًا لتكرار إساءتها للنبي ﷺ.

(٣) Levi- Strauss, Tristes Tropiques, pp (٤٣٧).

ويقول آخر: «لقد أمكن لمحمد أن يكون إمبراطوريةً سياسيةً ودينيةً على حساب موسى والمسيح»^(١).

ولو أن هؤلاء استمعوا إلى المنصفين من بني جلدتهم ما صدرت عنهم تلك المقولات.

يقول جوستاف لوبون: «سيرى القارئ- حيث يبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم- أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن الكريم، وأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم»، ويقول- أيضاً-: «لم ينتشر القرآن الكريم بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب»^(٢).

ويقول الكونت (هنري دي كاستري) في كتابه: الإسلام خواطرٌ وسوانحُ: «فلم يُكره أحدٌ عليه- أي: الإسلام- بالسيف ولا باللسان، بل دخل القلوبَ عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أُودِعَ في القرآن الكريم من مواهب التأثير، والأخذ بالألباب»^(٣).

٢- التقابل بين عقيدة التوحيد والتثليث:

فكما تقوم عقيدتهم على تقديس الإنسان واعتباره إلهاً أو ابنَ الإله، وجعله محورَ هذا الكون؛ فإن عقيدة التوحيد تقوم على ضدِّ ذلك كلّ، فهي لا تثبت ألوهيةً أحدٍ دون الله، ولا تقبل أن يخرج الإنسان عن طوره، ونبي الإسلام محمد

(١) أوروبا والإسلام.. صدام الثقافة والحداثة، هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م، (ص ١٣).

(٢) حضارة العرب، (ص ١٤٥-١٤٨).

(٣) نقلاً عن: الإسلام في قفص الاتهام، (ص ١١٠).

ﷺ هو عبدُ الله ورسوله ﷺ، كما أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عبدُ الله ورسوله، والمسئولية أمام الله في الآخرة فردية، ولا يحمل أحدٌ عن أحدٍ خطيئته يوم القيامة.

ويكفي في الرد على هذه العقيدة الباطلة أنه قام مجموعة من كبار المحاضرين وأساتذة اللاهوت في جامعات: (لندن، وبيرمينجهام، وأكسفورد) بإعداد دراسة كانت بعنوان: (أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح). يقول أحد الباحثين (دون كوبيت) - في خاتمة بحثه لهذه الدراسة -: «ومقياس التدين الصحيح بمفهومه الحقيقي يتطلب ألا تصبح دراسة شخصية المسيح نوعاً من مذهب عبادة الإنسان للإنسان؛ إذ يجب التركيز على الله، وليس على المسيح»^(١).

٣- قوة الإسلام الذاتية:

وهي قوة معنوية خارقة تملأ المسلم قدرةً وحماساً، وتُعينه على الانتصار على نفسه أولاً، وعلى أعدائه الخارجيين ثانياً، وهي قوة مادية عادلة يطالب الدين كلَّ مؤمنٍ بتحصيلها، يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ويقول ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضعيفِ»^(٢). والعجب أن يتَّخذَ بعضُ مفكري القرون الوسطى من هذا المعنى دليلاً يسوقه ضدَّ الإسلام يقول دانيال: «إن استعمال القوة كان تقريباً معتبراً بالإجماع كخاصية كبيرة وأساسية للدين الإسلامي، وبالتالي فهو دلالة بدهية على ضلال الإسلام»^(٣).

(١) أسطورة تجسّد الإله في السيد المسيح، جون هاك، ترجمة د. نبيل صبحي، (ص ١٧).

(٢) أخرجه مسلم، (٢٦٦٤).

(٣) N. Daniel, "Islam and the west" pp. (١٤٦).

والحق أن هناك وجودًا حقيقيًا لهذا الخوف من قوة الإسلام العقديّة والفكرية والسياسية والتشريعية على حدّ سواء، وهذا الخوف هو الذي يحرّك هذا الاتهام، يقول جولدزيهر: «إن الإسلام قد جعل الدينَ دنيويًا، لقد أراد أن يَبْنِيَ حكمًا لهذا العالم بوسائلِ هذا العالم»^(١).

وهذا برنارد لويس مستشار البيت الأبيض الأمريكي يقول: «إننا نواجه مزاجًا وتحركًا سيرفعان إلى حدّ كبيرٍ من وتيرة القضايا والسياسات التي تنتهجها الحكومات، وهذا ليس صدامَ حضاراتٍ، قد يكون هذا هو ردّ الفعلِ اللّاعقلاني، بل التاريخي لخصمٍ قديمٍ على تراثنا اليهوديِّ المسيحيِّ، وحاضرنا العلمانيِّ، وانتشارهما على نطاق عالميٍّ»^(٢).



(١) نقلًا عن: لماذا يكرهونه؟، (ص ٨٢).

(٢) الإسلام هو العدو الأول للإمبراطورية الأمريكية، جريدة الاتحاد، أبو ظبي ٩/٩/٢٠٠٣ م.



الفصل السادس عشر

الإسلام في عيون المنصفين



الإسلام في عيون المنصفين

هذه كلمات منصفة عن عدد من رجال الغرب السياسيين، والمفكرين، والمؤرخين، والمستشرقين تدلُّ على عمق تأثيرهم بالإسلام، وتقديرهم له.

أولاً: نبينا محمد ﷺ في عيون المنصفين:

إن من دلائل نبوته ﷺ الظاهرة، أنه لم يطلع أحد على بعض شمائله الكريمة، وأخلاقه العظيمة، إلا ويظهر إعجابه وانبهاره بشخصيته الفريدة ﷺ، ولذا تجد كتب المنصفين من غير المسلمين تزخر بالثناء العاطر على خير رسول وأكرم نبي ﷺ، والتي سطرها التاريخ على ألسنتهم لتكون دليلاً دامغاً وحجة بالغة على الناس إلى قيام الساعة، اعترف بذلك المستشرقون والمفكرون، واعترف بذلك الفلاسفة والمؤرخون، بل والشعراء والأدباء الغربيون، وهذه جملة من أقوالهم:

أقوال بعض المستشرقين :

• يقول المستشرق الأمريكي (واشنطن إيرفنج): « كانت تصرفات الرسول في أعقاب فتح مكة تدلُّ على أنه نبي مرسل، لا على أنه قائد مظفر؛ فقد أبدى رحمةً وشفقةً على مواطنيه، برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه تَوَجَّح نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو»^(١).

(١) واشنطن إيرفنج، حياة محمد، (ص ٧٢).

• ويقول المستشرق الفرنسي (جوستاف لوبون): «إنني لا أدعوا إلى بدعة مُحَدَّثَة، ولا إلى ضلالة مستهجنة، بل إلى دين عربي قد أوحاه الله إلى نبيه محمد، فكان أميناً على بثِّ دعوته بين قبائل تلهَّتْ بعبادة الأحجار والأصنام، وتلذَّذَتْ بثرَّهات الجاهلية، فجمع صفوفهم بعد أن كانت مبثرة، ووحدَ كلمتهم بعد أن كانت متفرقة، وَوَجَّهَ أنظارهم لعبادة الخالق، فكان خير البرية على الإطلاق حُبًّا ونسبًا وزعامة وَنُبُوَّة، هذا هو محمد الذي اعتنق شريعته أربعمئة مليون مسلم، منتشرين في أنحاء المعمورة، يُرَتِّلُونَ قرآنًا عربيًّا مبینًا»^(١).

ويقول أيضا: «فرسول كهذا جدير باتِّباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته؛ إذ إنها دعوة شريفة، قَوَّامُهَا معرفة الخالق، والحُصُّ على الخير، والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعوا إليه جميع النصارى»^(٢).

كما اعترف بذلك الفلاسفة؛ ومن هؤلاء:

• الفيلسوف والكاتب المسرحي الإنجليزي المشهور (جورج برناردشو)؛ حيث يقول: «قرأت حياة رسول الإسلام جيِّداً، مرات ومرات، فلم أجد فيها إلا الخُلُقَ كما ينبغي أن يكون، وكم ذا تمنيت أن يكون الإسلام هو سبيل العالم»^(٣).

• ويقول الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل الذي قيل عنه أنه أكبر عقل

(١) حضارة العرب، جوستاف لوبون، (ص ٦١).

(٢) حضارة العرب، جوستاف لوبون، (ص ٦٧).

(٣) الرسول في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدي، (ص ٧٠).

ولدت الأمة الإنجليزية بعد شكسبير: «لسنا نعدُّ محمدًا قطُّ رجلاً كاذباً متصنعاً، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بُغية، أو يطمع إلى درجة مُلك، أو سلطان، أو غير ذلك من الحقائق والصغائر، وما الرسالة التي أدّاها إلّا حقُّ صراح، وما كلمته إلّا صوت صادق صادر من العالم المجهول، كلا، ما محمد بالكاذب ولا الملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تَفَطَّرَ عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع»^(١).

كما اعترف بذلك المؤرخون؛ ومن هؤلاء:

• المؤرخ الإنجليزي (وليام موير)؛ فيقول في كتابه (حياة محمد): «امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما أدهش الألباب، لم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق الحسنة، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد»^(٢).

ويقول أيضاً: «ومهما يكن هناك من أمر فإن محمدًا أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، وخبيرٌ به مَنْ أَمَعُ النظر في تاريخه المجيد، وذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل ومفكري العالم»^(٣).

كما اعترف بذلك الشعراء، وأرباب اللغة؛ ومن هؤلاء:

• الشاعر الفرنسي الشهير (لامارتين)؛ حيث يقول: «أترون أن محمدًا كان صاحب خداع وتدليس، وصاحب باطل وكذب؟! كلا، بعدما وعينا تاريخه، ودرسنا حياته، فإنَّ الخداع والتدليس والباطل والإفك.. كل تلك الصفات هي

(١) توماس كارليل، الأبطال، (ص ٥٨-٦٠).

(٢) وليام موير، حياة محمد، (ص ٣١).

(٣) وليام موير، حياة محمد، (ص ٢٠).

ألصق بمن وصف محمدًا بها»^(١).

ثانيًا: لم ينتشر الإسلام بحد السيف:

• يقول جورج سيل - في سياق أن الإسلام إنما انتشر بقوته الذاتية وسلطانه على القلوب -: «لقد صادفت شريعة محمد ﷺ ترحيبًا لا مثيل له في العالم... وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما يخذعون انخداعًا عظيمًا»^(٢).

• وعن نفس المعنى يقول هنري دي كاسترو الفرنسي: «ينتشر الإسلام بمجرد الاختلاط والمعاشرة وحُبِّ التقليد، بدون أدنى إكراه، ولا تعيين رسل أو مبشرين، ويتعذر بيان اللحظة التي يصير فيها الشخص مسلمًا حقيقيًا؛ لأن الإسلام يأتيه تدريجيًا»^(٣).

ثالثًا: للقرآن على القلوب سلطان:

ويقول مونتجمري وات - مؤكِّدًا على أن للقرآن سلطانًا على القلوب -: «إن القرآن يحظى بقبولٍ واسعٍ - بصرف النظر عن لغته -؛ لأنه يتناول القضايا الإنسانية».

رابعًا: تفوق الشريعة الإسلامية على الشرائع السابقة:

• ويقول مونتجمري وات عن الشريعة الإسلامية: «إن الشريعة الإسلامية هي جملة الأوامر الإلهية التي تنتظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها».

ويقول أيضًا متحدثًا عن الفرق بين الإسلام والمسيحية واليهودية: «ونقول - عن

(١) لامارتين، السفر إلى الشرق، (ص ٨٤).

(٢) نقلًا عن الفاتيكان والإسلام، د. محمد عمارة، (ص ٦٩).

(٣) الإسلام خواطر وسوانح، هنري دي كاسترو، (ص ٥).

(٤) الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، مونتجيري وات، (١٩١، ٢٢٦، ٣٢٣).

حق-: إنه- بالفعل - كان يفوقهما، أو أنه- فعلاً- كان متفوقاً عليهما، أو أرقى منهما». • ويقول ليو توليستوي- متحدّثاً عن انتشار الشريعة وامتداد سلطانها-: «ستعم الشريعة الإسلامية كلّ البسيطة؛ لائتلافها مع العقل، وامتزاجها بالحكمة والعدل»^(١).

خامساً: تسامح الفاتحين المسلمين لا نظير له في العالمين!

• يقول المؤرخ والمفكر توماس أرنولد- عن العقيدة الإسلامية، وما تتميز به تجاه غير المسلمين-: «إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى»^(٢).

• ويقول ألفريد بتلر- ذاكراً ابتهاج الناس بمجيء الإسلام إلى بلادهم من خلال مقارنة منصفة بين ما كان عليه المصريون قبل الفتح الإسلامي من حقوق وحرّيات وما آل إليه أمرهم بعده-: «ما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه، فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم، وهوت بهم إلى حماقة البيزنطيين، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهدٍ من السلام والاطمئنان، كانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا، واضطهاد أهل الدين، فأصبحوا- أي: بعد الفتح الإسلام- وقد فُكَّ قيْدُهُمْ في أمور الدنيا، وأُرخي من عنانهم، وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفّسٍ حرٍّ وأمرٍ طليقٍ»^(٣).

(١) حكم النبي محمد ﷺ، (ص ١٠).

(٢) الدعوة إلى الإسلام، (ص ١٠٢).

(٣) نقلاً عن محاضرات في الفتح الإسلامي لمصر، د. محمد سليم العواد، (ص ٩٣).

• وتعتقد المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه مقارنةً منصفةً كذلك بين ما كان عليه الفاتحون الإسلاميون من رحمة وعدل وإنصاف، وما كان عليه النصارى في تعاملهم مع المسلمين في الأندلس، فتقول: «وبينما عاشت النصرانية في ظل الحكم الإسلامي قرونًا طويلاً في الأندلس وصقلية، وفي البلقان، فإن انتصار النصرانية على الإسلام في الأندلس عام ١٤٩٢م لم يعنِ سوى طرد المسلمين واليهود واضطهادهم وإكراههم على التنصّر، والحرق العلني في احتفالات رسمية تحفُّها الطقوس والشعائر الكنسية لكل من اعتنق الإسلام أو اليهودية»^(١) «فلم يلجأوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر»^(٢).

• وقال جيروم وجان تاور- عن فضيلة التسامح لدى المسلمين-: «إن فضيلة التسامح كان أزهى السمات الخلقية في العرب، ونذر أن تتوافر لغيرهم في جميع الأزمان»^(٣).

سادساً: الإسلام نصير المرأة:

وفي جانب الحقوق- وبخاصة حقوق المرأة- أكد منصفو الغرب على فضل الإسلام وسبقه في هذا الجانب:

• يقول مارسيل بوازار: «أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد ﷺ أنها حاميةٌ حمى حقوق المرأة»^(٤).

(١) نقلاً عن بينات الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، (ص ٢٣٣).

(٢) الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس، محمد الغيتي، (ص ٧٤-٧٥).

(٣) الله ليس كذلك، زيجريد هونكه، (ص ٤٥).

(٤) إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار، (ص ١٤٠).

• وقالت ماكلوسكي: «في ظل الإسلام استعادت المرأة حريتها، واكتسبت مكانة مرموقة، فالإسلام يعتبر النساء شقائق مساوين للرجال، وكلاهما يكمل الآخر»^(١).

سابعاً: حلول إسلامية لمعضلات اقتصادية:

• يقول ليودروش - ذاكرًا جانب التفوق الاقتصادي والاجتماعي للشريعة الإسلامية -: «لقد وَجَدْتُ في الإسلام حَلَّ المشكلتين الاجتماعيتين اللتين تَشْغَلَانِ العالمَ؛ الأولى في قول القرآن: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية. والثانية: فرضُ الزكاة على كلِّ ذي مالٍ، وتحويلُ الفقراءِ حقَّ أَخْذِهَا غَضَبًا إذا امتنع الأغنياءُ عن دفعِها طَوْعًا، وهذا دواءُ الفوضوية»^(٢).

• وكتب بوفيس فانسون رئيس تحرير مجلة (تشالينجز) بتاريخ ٥/١٠/٢٠٠٨م في افتتاحية المجلة موضوعًا بعنوان: (البابا أو القرآن) تساءل فيه عن أخلاقيات الرأسمالية، ودور المسيحية كديانة، والكنيسة الكاثوليكية بالذات في تكريس هذا المنزع، والتساهل في تبرير الفائدة، مشيرًا إلى أن هذا السلوك الاقتصادي السيئ أودى بالبشرية إلى الهاوية.

• وتساءل الكاتب - بأسلوب يقترب من التهكم - عن موقف الكنيسة، مستسمحًا البابا (بنديكيت السادس عشر) قائلًا: «أظن أننا في هذه الأزمة أحوجُّ إلى قراءة القرآن بدلًا من الإنجيل؛ لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا؛ لأنه لو حاول

(١) رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل، (٩/٦٢).

(٢) فقه الزكاة، ليوسف القرضاوي، (٢/١١٨٥).

القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطَبَّقُوها ما حَلَّ بنا ما حَلَّ من كوارث وأزماتٍ، وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأنَّ النقودَ لا تلد النقودَ!».

• ودعا رولان لاسكين رئيس تحرير صحيفة (لوجورنال دي فينانس) إلى ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي لوضع حدٍّ لهذه الأزمة التي تَهْزُ أسواق العالم من جَرَّاء التلاعب بقواعد التعامل، والإفراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة.

• وعَرَضَ لاسكين - في مقاله الذي جاء بعنوان: (هل تَأَهَّلْتُ وول ستريت لاعتناق مبادئ الشريعة الإسلامية؟!) - للمخاطر التي تُحْدِقُ بالرأسمالية وأشار إلى ضرورة الإسراع في البحث عن خيارات بديلة لإنقاذ الوضع، وقَدَّمَ سلسلة من المقترحات المثيرة في مقدمتها: تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية برغم تعارضها مع التقاليد الغربية ومعتقداتها الدينية.

• وأشارت لوريتا نابليوني الباحثة الإيطالية في كتاب لها صدر مؤخرًا بعنوان: (اقتصاد ابن آوى) إلى أهمية التمويل الإسلامي ودوره في إنقاذ الاقتصاد الغربي، واعتبرت نابليوني أن «مسئولية الوضع الطارئ في الاقتصاد العالمي - والذي نعيشه اليوم - ناتجة عن الفساد المستشري والمضاربات التي تتحكم بالسوق، والتي أدَّت إلى مضاعفة الآثار الاقتصادية».

وأضافت لوريتا نابليوني أن «التوازن في الأسواق المالية يمكن التوصل إليه بفضل التمويل الإسلامي بعد تحطيم التصنيف الغربي الذي يُشَبِّه الاقتصاد

الإسلامي بالإرهاب».

ورأت لوريتا نابليون أن «التمويل الإسلامي هو القطاع الأكثر ديناميكية في عالم المال الكوني».

وأوضحت أن «المصارف الإسلامية يمكن أن تصبح البديل المناسب للبنوك الغربية؛ فمع انهيار البورصات في هذه الأيام، وأزمة القروض في الولايات المتحدة؛ فإن النظام المصرفي التقليدي بدأ يُظهرُ تصدُّعًا، ويحتاج إلى حلول جذرية عميقة»^(١).

ثامنًا: حضارة الإسلام هي حضارة الإنسان:

إن مؤرخي الحضارة الإنسانية يُقرُّون للإسلام العظيم بحضارة علمية وأخلاقية راقية، عبَّروا عنها في مجالات ومناسبات عديدة، ومن ذلك:

• قول جوستاف لوبون: «فرسولٌ كهذا جديرٌ باتباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته؛ إذ إنها دعوة شريفة، قوامها معرفة الخالق، والحُصُّ على الخير، والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى»^(٢).

• قال لورنس براون: «أما البلاشفة (الشيوعيون) فحلفاء لنا، وأما الشعوب الصفراء فهناك دول ديمقراطية كبرى تقاومها، ولكن الخطر الحقيقي

(١) نقلا عن مقال: هل يتخذ الاقتصاد الإسلامي العالم من السقوط للهاوية؟ لإسماعيل شلبي، والذي نشره

موقع: محيط شبكة الاعلام العربية، <http://moheet.com>

(٢) حضارة العرب، جوستاف لوبون، (ص ٦٧).

كامن في نظام الإسلام وفي قوته وقدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته؛ إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار»^(١).

• وقال برنارد شو: «إنني دائماً أحترم الدين الإسلامي غاية الاحترام؛ لما فيه من القوة والحيوية فهو - وحده - الذي يظهر لي أنه يملك القوة المهولة، ويتمشى مع مصلحة البشر في كل زمان»^(٢).

• وقال مكسيم رودنسون - الكاتب الماركسي في كتابه: (الإسلام والرأسمالية): «القرآن كتاب مقدس تحتل فيه العقلانية مكاناً جديداً كبيراً؛ فإله لا ينفك فيه يناقش ويُقيم البراهين... والقرآن ما ينفك يقدم البراهين العقلية على القدرة الإلهية، ففي خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتوالد الحيوان، ودوران الكواكب والأفلاك، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية تنوعاً رائعاً التطابق مع حاجات البشر: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وفعل (عقل) يتكرر في القرآن حوالي خمسين مرة، ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكاري - كأنه لازمة -: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، والكفار أولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد ﷺ يوصفون بأنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنهم قاصرون عن أي جهد عقلي يهز تقاليدهم الموروثة، وهم بهذا كالعجاوات والأنعام، بل أكثر عجمة؛ لذلك يكره الله هؤلاء الناس الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر في أسس تفكيرهم»^(٣).

(١) الحل الإسلامي فريضة وضرورة، د. يوسف القرضاوي، ص، (١٤٥) نقلاً عن: التبشير والاستعمار، مصطفى الخالدي، ص، (١٨٤).

(٢) لورانس بروان نقلاً عن التبشير والاستعمار، (ص ١٨٤).

(٣) الإسلام والرأسمالية، لمكسيم رودنسون، (ص ١٣٤).

• وقال جورج سارتون - وهو أبرز مؤرخي العلم -: «إن الحقيقة القائلة بأن مهد المدنية الغربية كان على ضفاف النيل والفرات ودجلة لم تكن تُفهم - حقّ الفهم - قبل عصرنا الحاضر... بل نحن اليوم نستطيع أن نجزم - بلا تردد - بأن العلوم الغربية قد وُلدت في بلاد العرب»^(١).

• ويؤكد هذا المعنى جوستاف لوبون، فيقول: «العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها - مدة خمسة قرون - موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدّوا أوربا مادةً وعقلًا وأخلاقا، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقههم قومٌ في الإبداع الفني»^(٢).

تاسعًا: دعوة المنصفين للإسلام:

الحضارة الإسلامية - كما رأينا في كتابات المنصفين - هي نقطة الالتقاء الوحيدة بين العلم والدين في تاريخ العلوم، ومن ثم جاءت دعوتهم لبني قومهم صريحة للإسلام!

• قال جوستاف لوبون: «إن العرب هم الذين علّموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين»^(٣).

• ويقول دوغلاس آرثر: «لو أحسن عرضُ الإسلام على الناس لأمكن به

(١) الإسلام في عيون غربية، (ص ٢٢٣).

(٢) العلم وبناء الأمم، د. راغب السرجاني، (ص ١٨٢).

(٣) حضارة العرب، (ص ٢٦).

حلّ كافة المشكلات، ولأمكن تلبية الحاجات الاجتماعية والروحية والسياسية للذين يعيشون في ظل الرأسمالية والشيوعية على السواء، فقد فشل هذان النظامان في حلّ مشكلات الإنسان، أمّا الإسلام فسوف يقدم السلام للأشقياء، والأمل والهدى للحيارى والضالّين»^(١).

• وما أصدق ما قاله جوته الألماني: «إذا كان هذا هو الإسلام، أفلا نكون جميعًا مسلمين»^(٢).

ولئن كان جوته لم يسلم فقد قدمنا نماذج من نور لمشاهير مرموقين في كافة العلوم والفنون قد استجابوا لنداء العقل والفطرة، فدخلوا في دين الإسلام، منهم من قضى نحبه في الدعوة إليه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً!



(١) قالوا عن الإسلام، (ص ٤٤٣).

(٢) قالوا عن الإسلام، (ص ٤٥٠).



الفصل السابع عشر

شبهات حول الإسلام



شبهات حول الإسلام

كثيرة تلك الأسئلة التي تثار حول الإسلام، وأكثر منها الشبهات، لكن الافتراءات تبدو الأكثر والأشهر، وسوف نعرض هنا لعدد من الشبهات في عدة موضوعات؛ لنجيب عنها باختصار.

أولاً: الإسلام دين لا تسامح فيه، يميل إلى العنف والقتل والإرهاب باسم الجهاد؛ فهل هذه الرؤية عن الإسلام صحيحة، كما يشاع ويدّعى؟
الجواب:

يأتي الجواب في هذه النقاط المحددة التي يمكن اختصارها فيما يلي:

أ- الإسلام دين التسامح:

قال نبي الإسلام ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَةِ السَّمْحَةِ»^(١)، فالتسامح الإسلامي ينشأ عن تعاليم الإسلام وشرائعه السمحة؛ فمن التسامح: الإقرار باختلاف الناس، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، والتسامح في الشرائع والأحكام أكثر من أن يُذكر، وأشهر من أن يُحصَر.

(١) أخرجه أحمد، (٢٢٢٩١).

والتسامح في التعامل والممارسة قد شهدت به الأمم التي خالطها المسلمون، أو التي دخلت تحت سلطان المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فلم يعرف التاريخ أمة سوت رعاياها المخالفين لها في دينها برعاياها الأصليين في شأن قوانين العدالة، ونوال حظوظ الحياة بقاعدة: (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) مع تحويلهم البقاء على رؤسومهم وعاداتهم مثل أمة المسلمين^(١).

ومن شهد بهذا توماس أرنولد؛ حيث قال: «إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح، وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى»^(٢).

وهذا جوستاف لوبون يقول: «الإسلام من أكثر الأديان ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهديبا للنفوس، وحملا على العدل والإحسان والتسامح»^(٣).
وصدق د. لويس يونج في قوله: «إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها، من الحضارة الإسلامية، منها: نظرة العرب المتسامحة، وعدم تمييزهم فروق الدين والعرق واللون»^(٤).

فلم يعرف الإسلام الإكراه أو العنف الذي يدعيه بعض المغرضين، فلا إكراه على دخول الإسلام إيذاء، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومن آمن مكرها لم ينتفع بهذا الإيمان في الآخرة.

إن حقيقة التسامح وعدم العنف نطق بها بطريق بيت المقدس في القرن

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، (ص ٢١٩).

(٢) الدعوة إلى الإسلام، (ص ١٠٢).

(٣) حضارة العرب، (ص ١٢٦).

(٤) قالوا عن الإسلام، (ص ٣٢٦).

التاسع، وهو يكتب إلى بطريرك القسطنطينية، فيقول - عن المسلمين -: «إنهم يمتازون بالعدل، ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أيَّ عنفٍ»^(١).

ونفس هذه الشهادة كتبها جماعة من المختصين في اللاهوت والكتاب المقدس عما نال المصريين من عدل وتسامح، فقالوا: «حظي اليهود والأقباط من العرب أفضل من معاملة الرومان، أو رجال الكنيسة اليونانية، وبعد الفتح العربي استراحت الكنيسة من الاضطهاد؛ فازدهرت، وربحت كثيرًا من النفوس حتى بين غير المسيحيين»^(٢).

ولا مزايدة بعد قول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: «فما يدعيه بعضهم من اتهامهم - أي: المسلمين - بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال تُكذِّبها آلاف من الأدلة القاطعة في تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة»^(٣).

يقول أندرو باترسون: «إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء، بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني: السلام، لا العنف»^(٤).

إن هذا الدين يقول فيه نبيه - مخبرًا عن ربه -: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفِيقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى غَيْرِهِ»^(٥)، وسيرته

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، (ص ٣٦٤).

(٢) دائرة المعارف الكتابية، إعداد: جماعة من اللاهوتيين، مادة: إسكندر، (ص ٦).

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، (ص ٣٥٧).

(٤) لا سكوت بعد اليوم، بول فندلي، (ص ٩١).

(٥) أخرجه البخاري، (٦٩٢٧)، ومسلم، (٢٥٩٣).

تزخر بمشاهد الرفق والبعد عن العنف؛ ولهذا دخل الناس في دينه محبةً واختياراً. حتى شهد المستشرق الإنجليزي (توماس أرنولد) بهذا، فقال: «نستطيع أن نحكم- بحق- أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين شاهد على هذا التسامح»^(١).

ويقول- أيضاً:- «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهادٍ منظمٍ قُصِدَ منه استئصال الدين المسيحي»^(٢). وأما الجهاد في الإسلام فقد فرضه الله وفق أسباب شرعية ومبررات واقعية ليس من بينها حُبُّ الإرهاب، وسفكُ الدماء، أو ترويعُ الآمنين، أو قهرُ الناس على الدخول في الدين.

إن القتال كرهٌ للنفس البشرية، وبهذا يُقرُّ الإسلام، بل ويمتنُّ على الناس أحياناً بقوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، ويؤكد القرآن على معنى مهمٍّ، وهو: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، فليس للجهاد غاية من البغي أو التسلط أو الفساد، وإنما كما قال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣).

(١) الدعوة إلى الإسلام، (ص ٩٨-٩٩).

(٢) الدعوة إلى الإسلام، (ص ٩٩).

(٣) أخرجه البخاري، (١٢٣)، ومسلم، (١٩٠٤).

إن مقصودَ الجهادِ الأعظمَ هو دفعُ العدوانِ عن الإسلامِ وأهله، ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].
والفتنة التي هي الشركُ أعظمُ ضرراً من القتل، قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ومقصودُ الجهادِ الآخرُ هو ردُّ العدوانِ عن الأوطانِ والحرَماتِ، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، وقد قال ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شهيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ، أَوْ دُونَ دِمِهِ، أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شهيدٌ»^(١).

ب- الجهادُ محكومٌ بضوابطَ عديدةٍ، منها:

- ١- القبولُ بالهدنةِ والسلمِ إذا طلبَ العدوُّ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأفقال: ٦١].
- ٢- الامتناعُ عن قتلِ المدنيين والنساءِ والأطفالِ والشيوخِ، وفي الحديث: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»^(٢).
- وفي الحديث - أيضاً -: «... لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًّا، وَلَا طِفْلًا، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغُلُّوا»^(٣).

(١) أخرجه أحمد، (١٦٥٢)، وأبو داود، (٤٧٧٢)، والترمذي، (١٤٢١)، والنسائي، (٤٠٩٥)، وابن ماجه،

(٢٥٨٠)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري، (٣٠١٥)، ومسلم، (١٧٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود، (٢٦١٤)، والبيهقي في الكبرى، (١٥٣/٩).

ومنع الإسلام من قتل الرهبان، وقد أوصى بذلك أبو بكر رضي الله عنه^(١).

٣- الامتناع عن التمثيل بالجثث، وجعل أسرى الحرب بدون أحكام، وترك ذلك للأمر.

وقد أنصف تيجي زودريك حين قال: «الإسلام أذن لرسوله بالجهاد لرفع الظلم والاضطهاد، ولإزالة العقبات التي تقف في وجه الدعوة للإسلام، تلك الدعوة التي لا تُكره أحدًا على الدخول في هذا الدين، وإنما تدعو الناس إليه وتترك لهم الحرية الكاملة للاختيار... إن الإسلام هو دين السلام؛ السلام مع الله، والسلام مع الناس جميعًا»^(٢).

والخلاصة ما قاله جوستاف لوبون: «الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينًا سمحًا مثل دينهم»^(٣).

ويكفي أن نقرر أن حروب الإسلام في عهد نبينا صلى الله عليه وسلم كان عدد القتلى فيها (١٠١٨) منهم (٢١٩) شهيدًا، (٧٥٩) من الكفار^(٤) وجميعهم عسكريون، أما قتلى الحرب العالمية الثانية فلم يقل عن خمسين مليونًا، وأغلبهم من المدنيين. ومن أعجب ما يردُّ به في هذا الشأن: أن الحروب الصليبية التي أنشأتها أوروبا المسيحية على العالم الإسلامي لم تكن من جرائمها هزيمة لها فحسب، بل إن عددًا كبيرًا من تلك الحملات دخل في الإسلام الذي جاء ليقاتله.

(١) تعرف على الإسلام، (ص ٨٢-٨٤).

(٢) قالوا عن الإسلام، (ص ٢٤٦).

(٣) قالوا عن الإسلام، (ص ٢٤٥).

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (ص ٢٩٠).

«فقد أسلم في الحرب الصليبية الأولى ممن أسلم (رينود) أمير طوائف الجرمان واللمبارديين، وأسلم معه خلق كثير منهم».

وأسلم في الحرب الصليبية الثانية خلق كثير، كما يروي السير توماس عن راهب دير سانت دينيس، وكان قسيساً في المعبد الخصوصي للملك لويس السابع، ورافقه في هذه الغزوة طائفة كبيرة، وحكى عما جرى من رحمة المسلمين بالصليبيين ومواساتهم لهم وإحسانهم، حتى أنه قال: «كان الفرق عظيمًا لدرجة حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين، ومن غير أن يُكرهوا أو يُقهرُوا! لقد فرُّوا من إخوتهم في الدين الذين أساءوا إليهم فلحق ثلاثة آلاف بالجيش الإسلامي، بعد أن رجع عنهم، ودخلوا في دينه! لقد ارتدوا عن المسيحية من غير أن يُجبرَ واحد منهم على ترك دينه!»^(١).

وأما ما ناله صلاح الدين من إعجاب الأمراء والجند بشهامته وعدالته ورحمته فقد كان سبباً مباشراً في دخولهم الإسلام.

لكل تلك الحقائق قال المستشرق جولد زيهير - وهو معروف بطعنه في عدد من الشرائع الإسلامية -: «وروح التسامح في الإسلام قديماً، تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضاً كان لها أصلها في القرآن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولقد جاءت الأخبار عن السنين العشر الأولى للإسلام بمثلٍ للتسامح الديني للخلفاء إزاء الأديان القديمة، وكثيراً ما كانوا يُوصون في

(١) الرسالة الخالدة، لعبد الرحمن عزام، (ص ٣١٣-٣١٥).

وصاياهم للفاتحين بالتحاليم الحكيمه»^(١).

ثانيًا: ألا يُعتبرُ تشريعُ تعددِ الزوجاتِ وفرضِ الحجابِ وعدمِ المساواةِ بين الرجل والمرأة في الميراثِ والشهادةِ نوعًا من التمييز والظلم للمرأة؟!

الجواب:

قد سبق الحديث عن حقوق المرأة في الإسلام، بما يُظهرُ كرامَتَها وعظيم منزلتها في الإسلام، وقد أعلن النبي ﷺ مساواة المرأة للرجل في أكثر الحقوق وتمييزها عنه بحقوق تُناسبُ وظيفتها وتكوينها، وتمييزه عنها بحقوق تخصه وتُناسبُ وظيفته وتكوينه؛ فهذا هو عدل الإسلام الذي يُعطي كلَّ أحدٍ حقه ومستحقه، وهو عدلٌ شهد به غيرُ المسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

تقول الصحفية الإنجليزية روزماري: «إن الإسلام قد كَرَّمَ المرأةَ وأعطاهَا حقوقها كإنسانة، وكامرأة، وعلى عكس ما يَظُنُّ الناسُ من أن المرأة الغربية حصلت على حقوقها... فالمرأة الغربية لا تستطيع - مثلاً - أن تمارس إنسانيتها الكاملة وحقوقها مثل المرأة المسلمة، فقد أصبح واجبًا على المرأة في الغرب أن تعمل خارج بيتها لكسب العيش، أما المرأة المسلمة فلها حقُّ الاختيار، ومن حقها: أن يقومَ الرجل بكسبِ القوتِ لها، ولبقية أفراد الأسرة، فحين جعل الله للرجال القوامة على النساء كان المقصود أن الرجل عليه أن يعمل؛ ليكسب قوته وقوت عائلته، فالمرأة في الإسلام لها دور أهم وأكبر من مجرد وظيفة، وهي الإنجاب وتربية الأبناء، ومع ذلك فقد أعطى الإسلام للمرأة الحق في العمل إذا

(١) العقيدة والشرعية في الإسلام، جولدزير، (ص ٤٦).

رغبت هي في ذلك، وإذا اقتضت ظروفها ذلك»^(١).

وما من شك أن ما ذكرته روزماري موثق بالإحصاءات الرسمية التي تقول - مثلاً -: إن في أمريكا ٧٩٪ من الأزواج يضربون زوجاتهم ضرباً مبرحاً يؤدّي - في غالب الأحوال - إلى عاهة، وإن ١٧٪ من تلك الحالات تستدعي الدخول إلى العناية المركزة، وأن زوجة كل ١٨ ثانية يضربها زوجها، وإن امرأة من كل امرأتين تتعرض للظلم والعدوان من زوجها^(٢).

وأن العجائز الفقراء هم من النساء، وأن ٨٥٪ من هؤلاء يعيشن وحيدات، وأن معدل الاغتصاب للنساء بلغ حالة كل ست ثوانٍ، وأن عدد من عمّلن بالبغاء من عام ١٩٨٠ - ١٩٩٠ قارب المليون^(٣).

وأما ما يتعلّق بتعدد الزوجات فهو ليس تشريع الإسلام بالأصالة؛ فقد جاء الإسلام وهو في الجاهلية بلا عددٍ ولا حدٍّ، ففَنَنَهُ وضبطَهُ.

وليس تعدد الزوجات شريعة الجاهلية في واقع الأمر، بل هو شريعة العهد القديم الذي منه: أن سليمان النبي **عليه السلام** كان له ألف زوجة^(٤) فهو واقع عاشهُ الأنبياء وأُمُّهُمْ قبل الإسلام، بل تنسج الكتب اليهودية حول زوجات الأنبياء

(١) قالوا عن الإسلام، (ص ٤٣٦).

(٢) المرأة في الحضارة الإسلامية، لعلّي جمعة، (ص ٨٩-٩٠)، نقلاً عن د. جون بيريه أستاذ علم النفس في جامعة كارولينا، وتقارير وكالة FPI وصحيفة Family Talien.

(٣) تقرير: قانون المرأة السنوي، الصادر عن الدراسات الدولية حول المرأة بمديرية، نقلاً عن: المرأة في الحضارة الإسلامية، السابق، (ص ٥٤).

(٤) العهد القديم، سفر الملوك، (١١/٤).

أساطير وأكاذيب لا تجوز في حقهم بحال!

أما في الإسلام فقد ضُبطَ ذلك بما يحفظ للمرأة حقها، ولا يظلمها مع وجود من يشاركها وقتها مع زوجها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]، ثم إن الإسلام حين أباح ذلك قيده بقيود من لم يتمكن من التقيد بها لم يكن التعدد في حقه مشروعاً، قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا نَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، ثم إن التعدد قد يكون لحاجات بشرية معتبرة كالإنجاب، أو العقم في حال المريضة، وهو خير من تطلق العقيم، أو المريضة، أو الوقوع في الحرام، واستبدال ذلك بتعدد العشيقات والخيلات! (١).

وإذا كانت الإحصائيات تشير إلى أن عدد الإناث في أمريكا يزيد على عدد الذكور بأربعة ملايين امرأة، فهل يقبل مجتمع ما بأن يتحوّل هذا العدد إلى ممارسة البغاء، أم يتحوّل إلى زواج مستقرّ مباح في ظلّ التعدد؛ إنه تشريع يُقيم التوازن في المجتمع، ويُلبي الحاجات البشرية، والظروف الطارئة التي تنشأ بعد الحروب حين يقلّ عدد الرجال!.

وعلى كلّ منصف أن يعتبر هذا التشريع إعجازاً إلهياً للقضاء على مشكلات الأسر والمجتمعات.

يقول جوستاف لوبون: «إنّ مبدأ تعدد الزوجات الشرقيّ نظامٌ طيّبٌ يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقوم به، ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تراها في أوروبا. ويقول - أيضاً -: إن تعدد الزوجات المشروع

(١) يراجع: أضواء البيان، للشنقيطي، (٣/ ٣٧٧)، والتفسير، للشيخ أحمد شاكر، (٣/ ١٠٢).

عند الشرقيين أحسنُ من تعدُّد الزوجات الرِّيائي عند الأوروبيين، وما يتبعه من مواكب أولادٍ غير شرعيين»^(١).

ويقول مونتجمري وات: «إن الفكرة الرائدة في القرآن هي: أنه إذا تبنى المسلمون تعدد الزوجات؛ فإن الفتيات في سنِّ الزواج يُمكنُهن الزواج بصورة حسنة»^(٢).

وأما فرض الحجاب فهو فرض العفاف والطهر، وتشريع التكريم والرحمة بالمرأة أن تُبتذل، كما تبتذل في مجتمعات لا تعرف الحجاب، على أن حجاب المرأة معروف في اليهودية، ومن بعدها المسيحية، وسائر الأديان الإلهية، أما العلمانية التي لا دين لها فهي التي لا تعرف إلا تعرِّي المرأة وتحويلها إلى سلعةٍ تنتهبها كلُّ العيون وتمتدُّ إليها الأيدي في حيوانية وبهيمية.

ويكفي أن البيوت لا تستقرُّ مع تبرج النساء وفتنتهن للرجال، ويكفي أن الزنا والشذوذ وسائر الأمراض الجنسية لا تُعرف إلا في مجتمعات التعرِّي وفساد العلاقات بين الرجال والنساء.

على أن الحجاب ليس حجاب القماش فقط، وإنما هو حجاب الأخلاق الفاضلة والتربية المتدينة، وحسن الصلة بالله، وهذا ما يرى متوفراً بحمد الله في الإسلام الذي يرفع المرأة - أمًّا وبتًا وزوجًا - ويحميها، ويصونها من كلِّ سوءٍ. وأمَّا ما ذُكر من أن المرأة على النصف من شهادة الرجل؛ فإنه ينبغي أن يدرس

(١) قالوا عن الإسلام، (ص ٤٣١).

(٢) قالوا عن الإسلام، (ص ٤٣٨)، نقلاً عن كتاب محمد في المدينة.

الإسلام بأحكامه من غير اجتزاء لحالة وجعلها هي الأصل والقاعدة، فالإسلام له تقنيات إلهية محكمة، لم تؤثر عن البشر، وإنما نزل بها الوحي من ربّ البشر.

لقد حكمت الشريعة واكتفت بشهادة المرأة الواحدة في المواضع التي لا يطلع عليها إلا النساء غالباً، وهي مواضع تتعلق بالشرف والعفة، وهي أهم من البيع والشراء. ومواضع الحمل والحيض والرّضاع وغيرها أولى من المعاملات.

وأما ما كان من معاملات الأسواق والأموال التي يغلب فيها وجود الرجال ويكثر فيها الجدال والأخذ والردّ فهذه طلبت فيها شهادة امرأتين لحكمة ظاهرة ولعلّة بينة، وهي: ﴿أَنْ تَصْلَ أَحَدَهُمَا فَتَذَكَّرَ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] ذلك أنها كثيراً ما تنشغل عن تلك التفاصيل، ولا تهتم بتلك المشكلات.

ومثل هذا يقال في الإرث؛ فإن المرأة في حالات كثيرة من الإرث تأخذ أكثر من الرجل، وفي حالات أخرى تأخذ مثل الرجل، وفي حالات أخرى تأخذ أقل من الرجل نصفه أو أكثر أو أقل!

فلماذا يضيّق الفهم عن تشريع الإسلام الذي فيه الحكمة والعدل والرحمة بالأنام. قد تأخذ الزوجة في بعض الأحوال أكثر من الواحد من أبنائها إذا تعدّدوا وكثّروا، وقد تأخذ البنت أكثر من بعض عصبتها الذكور، وقد تأخذ الأم أكثر من نصيب بعض إخوة الميت من الذكور - أيضاً -! فلماذا إذن لا نرى في أحوال المرأة في الإرث سوى: ﴿لِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

والأصل أن الإله المشرّع يضع كل أمر موضعه بالعدل فمن يتولى الإنفاق على المرأة حقّه أن يأخذ أكثر منها، ومن يتولى دفع الصداق، وإعداد مسكن الزوجية حقّه أن يأخذ أكثر منها، ومن تكلف الإنفاق على أولاده جميعاً هو من يأخذ أكثر ممن لا

تُكَلَّفُ بالنفقة.

مرةً أخرى لا مجال في الإسلام للتمييز ضد المرأة، وإنما هو العدل والرحمة بها، والإحسان والتكريم والحفاظ على طبيعتها وفطرتها ووظيفتها التي خُلِقَتْ لأجلها.

وكما يقول مارسيل يوازار: «لقد أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد ﷺ أنها حاميةٌ حمى حقوق المرأة»^(١).

ثالثاً: يعاب النظام الإسلامي للعقوبات بوحشية وعنف وتعطيل لمنافع الإنسان بقطع أعضائه، أو بإزهاق روحه، فكيف يتفق هذا مع الرحمة التي يُنادي بها الإسلام؟!

الجواب:

تُخْتَصَرُ الإجابة عن هذا الاعتراض في النقاط التالية:

١- إن الإسلام بشريعته السمحة نظام شامل متكامل، لا يُنْظَرُ إلى جزء منه بدون النظر إلى سائر أجزائه، فكما هو رحمة ورأفة، هو عدلٌ وضبطٌ وإحكام، والنظر لحق المجني عليه قبل النظر للمجاني، وقبل الاتهام يجب التأمل في عواقب ومآلات تلك الأحكام التي تُتَّهَمُ بالشدة أو القسوة، والمقارنة بينها وبين الأحكام الأخرى التي يقال عنها غير متشددة، وحال الجرائم في المجتمعين وكثرتها ونوعيتها.

إنَّ رَجْمَ الزَّانِي - مثلاً - إذا كان محصناً لم يقع إلى اليوم في تاريخ المسلمين إلا إذا شهد إنسان على نفسه، وأقرَّ بالزنا مراراً أمام القاضي، بما لا يحتمل لبساً، والزاني مندوبٌ لأن يسترَ على نفسه إذا أخطأ ويتوب إلى الله.

(١) قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، (ص ٤١٠).

إنَّ حالات تطبيق حدِّ السرقة والقذف في عهد الإسلام الأول لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة، إنه عدد قليل جدًّا كنسبة الملح الذي يضاف إلى الطعام، وهذا بالمقارنة بنسبة الجرائم التي كانت تُرتكب في الجاهلية، أو بالمقارنة بالجرائم في عهد الدولة الرومانية، أو الفارسية آنذاك!

٢- الإسلام يحيط الجرائم بسياج من الضوابط التشريعية التي تحُول دون وقوعها، وتمنع من تيسر أسبابها؛ فلأجل خطورة الزنا جرَّم إطلاق البصر، ومخالطة الأجنبية، ومصافحتها والسفر معها، وأوجب الشارع حجابها، ونهاها عن أمور كثيرة في سلوكها ومشيتها وكلامها، وذلك كله منعًا وحيلولةً دون وقوع ما لا يحلُّ من الكبائر، ثم حكم بقيود تشريعية مشددة لإثبات تلك الجريمة بواسطة الشهود الأربعة، وفي حال السرقة منع من إقامة الحدِّ حال المجاعة، ولم يحدد من جاع فسرَق ليأكل، وأمَرَت الشريعة بتحقيق حدِّ الكفاية لكل رعايا الدولة، وطالبت بشروط لتحقيق الحدِّ في المسروق وقيمتِه، وحرزه وغير ذلك، كما يمتنع الحدُّ في حال كون السارق جزءًا من المسروق منه كابنه، وأن توجد شبهةٌ استحقاق لهذا المال، فإن قامت اندفع الحدُّ، وغير ذلك من تفاصيل شرعية.

٣- وبالرغم من كل ما سبق فإن الإسلام قد وضع في طريق تطبيق الحدود وإقامتها حاجزين كبيرين:

الأول: استحباب التعافي والعفو في الحدود قبل رفعها إلى القضاء، ففي الحديث: «تَعَاَفُوا الْحدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ»^(١).

(١) أخرجه أبو داود، (٤٣٧٦)، والنسائي، (٤٨٨٥)، والبيهقي في الكبرى، (٥٧٥ / ٨)، والحاكم، (٤ / ٤٢٤)، وصححه.

وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤].

فاستثنى من حدِّ الحُرابة مَنْ تاب وظَهَرَتْ أماراتُ توبته واستقامته قبل أن يُؤْخَذُوا ويُرفَعُوا إلى الحاكم.

الثاني: قاعدة: (ادْرءُوا الحدودَ بالشُّبُهَاتِ) وهي قاعدة نبوية منصوصة، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ادْرءُوا الحدودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ...»^(١)، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لِأَنَّ أُعْطِلَ الحدودَ بالشُّبُهَاتِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُقِيمَهَا فِي الشُّبُهَاتِ»^(٢).

وهذا معنى القاعدة القانونية المعاصرة أَنَّ الشَّكَّ يُفَسِّرُ فِي صَالِحِ الْمُتَّهَمِ، فلا يوقع القاضي عقوبةً إلا والتهمة مطابقةً للواقع سالمةً من كلِّ معارضةٍ وشبهةٍ.

٤- إذا أُقِيمَتِ العقوبةُ والحدُّ لم يكن من حقِّ أحدٍ أَنْ يُعَيِّرَ الجاني، وَلَا أَنْ يمتنهن كرامته، لا في أثناء الحدِّ، ولا بعده.

وقد قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا لَعَنَ الغامديةَ التي رُجِمَتْ -: «مهلاً يا خالد! فو الذي نفسي بيده لقد تابَتْ توبةً لو تابها صاحبُ مكسٍ لَغُفِرَ له. ثم أَمَرَ بها فَصَلَّى عليها، وَدُفِنَتْ»^(٣).

وإقامة الحد في الدنيا يُكْفِّرُ الذَّنْبَ فِي الْآخِرَةِ مع التوبة؛ فإن الحدودَ جَوَابُ زَوَاجِرٍ، تَجْبِرُ كَسْرَ المعصيةِ وتُسْقِطُ عقوبةَ الذَّنْبِ فِي الْآخِرَةِ، وهي زَوَاجِرُ تَرَدُّعٍ

(١) أخرجه الترمذي، (١٤٢٤)، والحاكم، (٤٢٦/٤)، وصححه، والبيهقي في الكبرى، (٤١٣/٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، (٢٨٤٩٣).

(٣) أخرجه مسلم، (١٦٩٥).

مرتكبها عن العود إليها، وتزجر عن أمثالها.

٥- إذا كان قد بقي في نفس أحد أن في الحدود قسوة أو شدة فهي قسوة لطلب

السلامة للمجتمع؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي

الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فأصحاب العقول يدركون أن

استئصال الداء من جسد المريض يحتاج إلى مبضع حاد وإلا هلك الجسد كله.

فعين الرحمة بالمجموع أن تقام الحدود الرادعة.

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا، وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ - أَحْيَانًا - عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

ثم لينظر إلى المجتمعات التي تُطبق الإسلام بحدوده كم نسب جرائم القتل

والاغتصاب والزنا والسرقة وغيرها وما حجم تلك الجرائم في المجتمعات

الأخرى إن من يُقتل حدًا أو قصاصًا هنا يقابله آلاف يُقتلون هناك ظلمًا، ومن

يُجلد حدًا هنا يقابله آلاف آخرون تُنتهك أعراضهم وتُستباح.

٦- بالنظر إلى عقوبة السجن الشائعة التي يسجن فيها المتهم لسنين طويلة تُعطله

عن العمل من جهة، وتسوء معها نظرتة للمجتمع من جهة أخرى، ويتعامل

مع المجرمين في بيئة غير صحيّة يتعلّم فيها الإجرام ويتمكّن، بحيث تقول

الإحصاءات: إن من دَخَلَ إلى السجن عاد إليه غالبًا بعد خروجه، إن

الإحصائيات الأمريكية تؤكّد وقوع الجرائم كلّ بضعة دقائق بمختلف

أشكالها وأنواعها، كلّ هذا مع كثرة السجون، وتنوّع العقوبات السالبة للحريات،

وأخيرًا قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

رابعاً: لماذا تبدو من المسلمين مجافاةً للعلم وللعقل وللابتكار؟ وهل يرجع هذا إلى دينهم؟ إن أوروبا استطاعت أن تحقق تطوراً مادياً كبيراً حين استطاعت التَّحرُّرَ من قيود وهيمنة الدين والكنيسة؛ فلماذا لا يعمل المسلمون ذلك - أيضاً؟!

الجواب:

إن أول ما أنزل الله في كتابه على رسوله ﷺ: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، والإسلام هو دين العلم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وطلبه فريضة وتعليمه عبادة. والإسلام يُكْرِمُ كُلَّ عِلْمٍ نافعٍ ويُثني على أهله، وكلُّ حقيقةٍ علميةٍ صائبةٍ فإن القرآن لا يعارضها، بل الحقائق العلمية تشهد للقرآن والسنة بالصحة، فمع اتِّساعِ علوم الطبيعة، وما استجدَّ من العلوم العصرية لم يأتِ علمٌ صحيحٌ ينقض شيئاً مما جاء في القرآن والسنة الصحيحة، مع أن الذي جاء بتلك الحقائق نبينا محمدٌ الأميُّ ﷺ^(١). وقد نشأ علم متكامل في إعجاز القرآن والسنة العلميِّ، وبيان تلك الموافقات العجيبة التي تشهد للإسلام وكتابه القرآن وسنة نبيه العدنان ﷺ.

وقد تواتر إسلام الكثيرين بعد الاطلاع على تلك الموافقات والإعجاز، ثم إن التاريخ الإسلامي شاهدٌ بتفوق المسلمين حضارياً وتقنياً في عصور كانت أوروبا في حالك الظلمات، كان هذا بفضل ذلك الدين القيم الذي عاش به الناس

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، لعبد الرحمن السعدي، (ص ٣٥٠).

حياتهم، وقطعوا به طريقهم إلى ربهم، وإلى عمارة الأرض.
ولهذا لا تزال ذاكرة التاريخ تحفظ أسماء علماء مسلمين صنعوا الحضارة
وشاركوا في كافة الميادين.

ولأن الشهادة إذا جاءت هنا من غير المسلمين تكتسب مصداقية خاصة؛
فإننا ننقل عن د. ستانلي لين بول قوله: «لم يحدث في تاريخ المدينة حركة أكثر روعة
من ذلك الشغف الفجائي بالثقافة الذي حدث في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فكان
كل مسلم من الخليفة إلى الصانع، يبدو كأنه اعتراه فجأة شوق إلى العلم وطمأ إلى
السفر، وكان ذلك خير ما قدمه الإسلام من جميع الجهات»^(١).

لقد تربع المسلمون يوم أن تمسكوا بدينهم على عرش الحضارة الناصعة
والمدينة المهتدية ونور الرسالة حتى قال المؤرخ جولييفيه كستلو- في كتابه (قانون
التاريخ)-: «إن التقدم العربي بعد وفاة الرسول ﷺ كان عظيمًا، جرى على أسرع
ما يكون، وكان الزمان مستعدًا لانتشار الإسلام، فنشأت المدينة الإسلامية نشأة
باهرة، قامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ظهر واضحًا في الفنون
والإعراب والشعر والعلوم، وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون على مشعل
النور العقلي، وتمثلوا جميع المعارف البشرية، فأصبحوا سادة الفكر، مبدعين
ومخترعين لا بالمعنى المعروف، بل بما أحرزوه من أساليب العلم التي استخدموها
بقريحة وقادة للغاية، وكانت المدينة العربية قصيرة العمر، إلا أنها باهرة الأثر،

(١) قالوا عن الإسلام، (ص ٣٩٦).

وليس لنا إلا إبداء الأسف على اضمحلالها^(١).

وتصفح إنجازات المسلمين في شتى علوم الطب والهندسة والفلك والجغرافيا وغيرها تؤكد ذلك بجلال.

فالدين الإسلامي كان داعماً للعلم التجريبي، بخلاف الدين الكنسي الذي تبنى نظريات علمية غير صحيحة واعتقدها جزءاً من الدين، يُعاقب كل من لم يعتنقه، ويتهّم بالهرطقة الدينية، كما فعل بجاليليو، وكوبرنيكوس وغيرهم.

إن المسألة في حق المسلمين هي بالعكس حين تركوا دينهم ضَعُفَتْ شوكتهم، وحين تنكبوا طريق إسلامهم تَغَلَّبَ أعداؤهم عليهم وسبقوهم - مادياً - سبقاً كبيراً.

وصارت الفجوة الزمنية في كل مجال عملي أو تقني تقدر بعشرات السنين بين المسلمين والغربيين.

كما أسهم الاستعمار - بجميع أشكاله: عسكرية، وسياسية، وثقافية، وفكرية - في تحويل الشرق لمعرض للسلع الغربية، وسوق رائجة تتنافس فيها سلع المستعمر فحسب!

فلو عاد المسلمون - الذين قال الله لهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

[آل عمران: ١١٠] - إلى صحيح دينهم، وراجعوا كتاب ربهم وسنة نبيهم لحصل لهم ما حصل لأسلافهم من السيادة والقيادة والريادة، ولعادت قيم المجتمع الإسلامي - من العدل، والمساواة، والإيمان، والإخاء، والإتقان، والإحسان -

(١) قالوا عن الإسلام، (ص ٣٨٩).

تعمل من جديد!

ذلك أن الأمر كما قال الهندي كوفي لال جابا- في كتابه (رسول الصحراء)-: «الإسلام في وسعه تكبير كافة حاجات الإنسان في العصر الحاضر، فليس هناك أي دين كالإسلام يستطيع أن يُقدِّم أنجح الحلول للمشكلات والقضايا المعاصرة؛ فمثلاً: أشدُّ ما يحتاج إليه العالمُ اليوم: الإخوةُ والمساواة، وهذه جميعُ الفضائل لا تجتمع إلا في الإسلام؛ لأن الإسلام لا يُفاضلُ بين الناسِ إلا على أساس العمل والبذل»^(١).



(١) قالوا عن الإسلام، (ص ٤٥٠).



الفصل الثامن عشر

الأقليات الإسلامية



الأقليات الإسلامية

يُقصد بالأقليات الإسلامية كُلُّ مجموعة بشرية تعيش بين مجموعة أكبر منها، وتختلف عنها في كونها تنتمي إلى الإسلام، وتحاول بكل جهدها الحفاظ عليه^(١). وقد نشأت تلك الأقليات الإسلامية وَوُجِدَت خارج أرض الإسلام لأسباب متعددة، من أهمها:

- ١ - اعتناق الإسلام، وهذا - بحمد الله تعالى - لا يزيده الزمان إلا زيادةً في مختلف الأصقاع والأمصار؛ بحيث صار أكثر الأديان دخولاً فيه في الدنيا بأسرها هو الإسلام.
- ٢ - هجرة بعض المسلمين إلى أرض غير مسلمة، وسواء كانت تلك الأسباب سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، كما هو حال كثير من المسلمين في أوروبا وأمريكا إلى اليوم.
- ٣ - احتلال أرض المسلمين، كما هو الحال في فلسطين، حيث يُهَجَّر أهلها وَيَحُلُّ محلَّهم شراذمُ اليهود من أنحاء العالم؛ فيتحول أصحاب البلاد الأصليون إلى أقلية.

(١) الأقليات الإسلامية في العالم اليوم، لعلّي الكتاني، (ص ٦).

وقد تجتمع هذه الأسباب أو بعضها معاً؛ لتوجد تلك الأقليات الإسلامية خارج أرضها، والتي غالباً ما تكون مستضعفة، ولو كانت كبيرة العدد نسبياً، فإذا كان عدد المسلمين بالهند يقترب من ٢٠٠ مليون مسلم؛ إلا أنهم ما يزالون يعتبرون أقلية؛ لأنهم يمثلون أقل من ربع السكان.

أولاً: تقسيم الأقليات الإسلامية:

يمكن تقسيم الأقليات الإسلامية على أساس نوعيٍّ من القوة والتمكُّن إلى أقسام ثلاثة، هي: أقليات مستضعفة، وأخرى مكافحة، وثالثة ممكنة.

١ - الأقليات المسلمة المستضعفة:

مثالها: المسلمون الصينيون، وأهل تركستان الشرقية البالغ تعدادهم ٧٠ مليوناً من سنين، والذين قد يبلغ تعدادهم في التقديرات الصحيحة إلى ١٠٠ مليون^(١). وهي أقليات تعاني اضطهاداً يبلغ درجات السحق والإبادة، ومثلهم مسلمو بورما، والروهينجا، وأفريقيا الوسطى وغيرها من بلاد أفريقيا وآسيا.

٢ - الأقليات المسلمة المكافحة:

مثالها: مسلمو الهند؛ فهم بسبب عددهم الكبير يستعصون على الإبادة والقمع والتنكيل، ويواجهون ألواناً من التمييز الطائفي والديني بكل أشكاله وألوانه. وقد نجحوا في فرض هويتهم وإظهار ديانتهم وشعائهم، وما يزالون في كفاح رهيب في كشمير؛ لتحريرها من يد الهندوس.

(١) معاملة غير المسلمين، ومعاملة الأقليات الإسلامية، لمحمد المختار السلامي، بحث مجلة الفقه الإسلامي، ع٦، (٤/٤٠٤).

ومثلهم مسلمو سريلانكا البالغ عددهم أكثر من مليون مسلم يمثلون قرابة ٨٪ من تعداد السكان هناك^(١).

٣- الأقليات الممكنة:

مثالها: مسلمو ماليزيا وموريشيوس وسنغافورة حيث يتمتع المسلمون بكامل الحرية في ممارسة الشعائر، والدعوة إلى دينهم، وإقامة المؤسسات والجامعات والأحزاب، بالإضافة إلى التحاكم في الأحوال الشخصية للشريعة الإسلامية^(٢). بشكل عام فإن تعداد الأقليات المسلمة في العالم اليوم يزيد عن أربعمئة مليون مسلم، يعيشون تحت ظروف متنوعة ومتفاوتة من الحاجة والقهر والاستضعاف. وهذا على أن نحو ثلث المسلمين يعتبرون أقليات حول العالم!

ثانيًا: مشكلات الأقليات الإسلامية:

١ - المشكلات الدينية:

عانت الأقليات في أفريقيا تحت حكم الأغلبية المسيحية، كما كانت في بعض دول آسيا كالفلين، وبعض دول أوروبا كقبرص والبوسنة. وقد مُورست ضد المسلمين هناك أبشع ممارسات التطهير الديني والتصفية الجسدية والمنع من ممارسة الشعائر الدينية. فعلى سبيل المثال: ارتكَبَ ضد مسلمي الفلبين في ثلاث سنوات ١٧٤٠ حادثة قتلٍ راح ضحيتها نحو مائة ألف مسلم، وشرَّد نحو من نصف مليون،

(١) فقه النوازل للأقليات المسلمة، لمحمد يسري، (١/٩٣).

(٢) مسئولية المسلمين المواطنين في دول غير إسلامية، راشد دويدار، (١/٢٢٠).

وأُحرقت مساجد ومدارس بالمئات ^(١).

وكما عانى المسلمون تحت الحكم النصراني عانوا أيضاً تحت الحكم الوثني في الهند وسيلان وبورما وتايلاند وكمبوديا وغيرها.

وقد آباد الهندوس عام (١٣٩٩هـ) وعام (١٤٠١هـ) وعام (١٤٢٢هـ) بضعة آلاف من المسلمين ودُفن الأحياء في قبور جماعية وهم موثقو الأيدي ^(٢) في عام ١٤٣٥هـ.

وفي بورما والروهينجا اليوم يُقتل المسلمون، ويُحرقون أحياءً، في تطهير ديني بغرض أمام سمع الدنيا وبصرها، وتعاون البوذيون مع الشيوعيين في تنفيذ تلك المجازر ^(٣).

وتحت الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي السابق قُتل عشرات الآلاف من المسلمين، وأُغلقت مدارسهم ومساجدهم، وأُحرقت مصاحفهم وكتبهم، ومنعوا من الأسماء الإسلامية وممارسة الصيام ^(٤).

وأخيراً فلا شك أن المجتمعات الأمريكية والأوروبية تمتعت فيها الأقليات المسلمة بقدر لا بأس به من الحرية، إذا ما قُورن بمجتمعات ودول أخرى، لكنه لا بد أن يُذكر أن حفظ الأمن قد تقلص في السنوات الأخيرة بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، وترتب على ذلك تجريد حملات حربية بربرية على أفغانستان والعراق.

(١) الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، سيد عبد المجيد بكر، (ص ٨٤٧).

(٢) الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، (ص ٢٢٧).

(٣) الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، (ص ١٨٩).

(٤) محنة الأقليات المسلمة في العالم، محمد عبد الله السنان، (ص ١٣٨-١٤٤).

٢- المشكلات الاجتماعية ومساائل الأحوال الشخصية:

فحجاب المرأة المسلمة على رأس ما يواجهها من مشكلات اجتماعية في أوروبا التي غدت تمنع غطاء الرأس في المدارس والجامعات للمسلمات، فضلاً عن تجريم غطاء الوجه، وفي يوليو ٢٠٠٩م امتدت يدُ الإجرام في ألمانيا لتنزع حجاب المسلمة من على رأسها فلما قُدم الجاني للمحاكمة قام بقتل المسلمة عياناً أمام الجميع داخل المحكمة!!^(١).

ولم يكن البوذيون بأحسنَ موقفاً من الأوروبيين، فقامت كلية للبنات في تايلاند بطرد اثنتي عشرة طالبة لارتدائهن الحجاب.

وفي البوسنة وقبل انفصالها عن الاتحاد اليوغوسلافي سُنت القوانين المبيحة لزواج المسلمة من غير المسلم الأمر الذي أخرج أطفالاً عديمي الهوية الإسلامية^(٢). وفي كل أوروبا وأمريكا في ظل العلمانية لا يمتنع تسجيل الزواج بين مسلمة وغير مسلم!

ومُنِع المسلمون في دولٍ عدةٍ من تسمية أولادهم بأسماء إسلامية، كما وقع ذلك لمسلمي بلغاريا عام (١٩٦١م) وفي الهند الهندوسية، وفي الجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفيتي.

وإذا كان ذلك قد وقع قهراً وقسراً، فقد وقع مثله بالترغيب والإيحاء وتقديم المزايا في البديل القريب، ومن خلال الدعوات بالاندماج في المجتمع^(٣).

(١) جريدة الرياض، ١٤ رجب ١٤٣٠هـ.

(٢) الأقليات المسلمة في العالم، محمد علي ضناوي، (ص ١٠٢).

(٣) الوسطية بين واجب المواطنة في أوروبا وحفظ الهوية الإسلامية، د. صهيب حسن، بحث في المؤتمر الدولي للوسطية ١٤٢٧هـ، (ص ٣٢٨).

كما جرى تهجير إجباري وتطهير عرقي للمسلمين الذين يمثلون السكان الأصليين للبلاد، كما كان حال المسلمين في ظل القياصرة الروس، ومن بعدهم البلاشقة الثوار الذين فَضَّلُوا الهجرة الإجبارية إلى مجاهل سيبيريا؛ ليقهّلوا نسبة المسلمين في أراضيهم ومناطقهم ذات الأبعاد الاستراتيجية المهمة^(١).

ولا ننسى في هذا الصدد التهجير الإجباري لمسلمي فلسطين بعد احتلال الضفة الغربية والقدس وغزة عام ١٩٦٧م.

فقد نجم عن الاحتلال اليهودي خروج أكثر من مليوني لاجئ فلسطيني إضافة إلى ١.٧ مليون داخل الأراضي المحتلة.

ولاتزال حملات مصادرة الأراضي، وهدم المنازل وملاحقة المواطنين، والضرب بالرصاص الحيّ على أشدّها في بلاد الأقصى اليوم.

وقد سجل العالم حرص هؤلاء المجرمين على طرد زعماء الأقليات الإسلامية والمتقنين، ونفيهم خارج بلادهم، تكرّر هذا في روسيا، ويوغوسلافيا، وفلسطين، والشيشان، وغيرها.

٣- المشكلات السياسية والاقتصادية:

التأمل في حال الأقلية المسلمة في أفريقيا يشهد بسياسة الإبعاد والعزل السياسي الإجباري، بل هناك عدد من الدول الإفريقية التي تبلغ فيها نسبة المسلمين ٨٠٪ يُعامَل مسلموها معاملة الأقلية، بينما تتحكم الأقلية النصرانية بالنفوذ والسلطان في نيجيريا ذات الأغلبية المسلمة التي تزيد عن ثمانين مليوناً من

(١) المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، محمود شاكر، (ص ٧-٩).

المسلمين في مقابل عشرين مليوناً من غيرهم يتولى رئاستهم بعضُ القساوسة كالكس (إزيكو) عام ١٩٦٠م، ويعقوب جون عام ١٩٦٧م. وفي السنغال تولّى حكمها من ١٩٦٠ - ١٩٨٠م كاثوليكي هو سينجور، في حين أن المسلمين يمثلون ٩٤٪ من تعداد السنغال! ^(١).

ومثل هذا يقال في كشمير المسلمة، والجمهوريات التي نالت استقلالاً بعد استعمار شيوعيّ امتد لعقود متتالية.

وما تزال أقليات مسلمة تحت الوصاية الروسية في بلغاريا وأوسيتيا الشمالية وأنجوشيا وغيرها وغيرها ^(٢) ومأساة الشيشان منذ عام ١٩٩١م إلى اليوم لا تزال ناطقةً ظاهرة للعيان ^(٣).

وأما التمييز في الأجور بسبب الدين فمعروف حتى في كندا، وفي بلد كالليونان يحرم المسلمون في ترافيا الغربية من استخراج تصاريح قيادة السيارات ^(٤)، وتعميد المباني الخاصة بهم، كما منعت الحكومة اليونانية المسلم من بيع أملاكه لمسلم آخر ^(٥).

ثالثاً: مقاصد شرعية في حياة الأقليات الإسلامية:

والأقليات الإسلامية التي تعيش خارج ديار الإسلام لحياتها مقاصد تحكمها

-
- (١) أوضاع الأقليات والجاليات الإسلامية، د. مجدي الداغري، (ص ١٠٨-١٠٩).
 - (٢) انهيار الاتحاد السوفيتي، د. إيمان يحيى، مجلة مستقبل العالم الإسلامي، (ص ١٢٢).
 - (٣) أوضاع الأقليات والجاليات الإسلامية، د. مجدي الدانمري، (ص ٢٥٩-٢٦١).
 - (٤) التمييز بين الأجور والوظائف وآفاق المستقبل للشباب المسلم في كندا، داود حسن حمداني، ضمن بحوث الأقليات المسلمة في العالم، (٣/ ١١٨٧-١١٨٩).
 - (٥) المسلمون في ترافيا الغربية، خالد آرن، ضمن بحوث الأقليات المسلمة، (٣/ ١٠٨٦-١٠٨٧).

الشريعة، وضوابط ترسمها الأحكام، وهي متعددة متنوعة نجتزئ أهمها:

١ - حفظ كيان الأقليات المسلمة:

إن حفظ الهوية الإسلامية للأقليات، ومنها من الذوبان في عقائد وأديان الأمم الأخرى من أهم المقاصد الشرعية، وهذا يتأتى بأمور كثيرة، منها: تقوية الصلات والعلاقات بين المسلمين هناك، وتحقيق مطالبهم الاجتماعية والدينية والسياسية على حدٍّ سواء.

وملاحقة المستجدات الفقهية والنوازل بساحتهم بالفتاوى الشرعية والوصايا الإيمانية.

٢ - إقامة الدين بين الأقليات المسلمة:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ينبغي على الأقليات المسلمة أن تتحاكم إلى القرآن والسنة - فيما بينها - وأن تحفظ عقيدتها، وشريعتها، وأنماط حياتها المستمدة من حضارتها الإسلامية، وعاداتها الشرقية؛ فإنه لا بدَّ منه، ولا غنى عنه، مع محاولة القضاء على الاضطراب في كثير من المواقف والأحكام المتعلقة بالأقليات.

٣ - تبليغ رسالة الإسلام والدعوة إليه:

من أعظم مقاصد الإسلام: تبليغ دعوته وإيصال رسالته، قال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وإذا تعطلَّ الجهاد بالسيف فلا يجب أن يتعطلَّ الجهاد باللسان، والإقامة في بلاد غير المسلمين فرصة سانحة

لنشر دعوته، والتبشير به، وفتح القلوب والبلاد بالهدى والنور، قال تعالى ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وإقامة الدين لا تتأتى على وجه الكمال إلا بالدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه، قال تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

٤ - التأكيد على الاجتماع وفقهه:

من أهم المقاصد في حياة الأقليات الإسلامية - خارج ديار الإسلام -: ترسيخُ فقه الجماعة والاجتماع في حياة المسلمين هناك، سواء فيما يتعلق بعباداتهم، أو معاملاتهم، أو علاقاتهم الداخلية أو الخارجية مع مجتمع الأكثرية، والأقلية المسلمة عليها أن تجتمع، وأن تلتزم، وأن تقوّي حضورها كمجموعة منظمة منسّقة، تتعامل مع المجتمع بشكل إيجابي، ولا تتأثر بسلبياته، فتحافظ على هويتها، وتتواصل مع محيطها بغير تأثيرات ضارة، أو مفسدة غالية. ومما لا جدال فيه أن المسلمين الذين يعيشون كأقليات قد غدوا أكثر جمعا، وأقوى شوكة، وأقدر على المطالبة بكثير من حقوقهم السلبية.

٥ - العناية بقضايا الأمة في الشرق:

يتعيّن على الأقليات المسلمة خارج الوطن الإسلامي أن ترتبط بقضايا أمّتها الإسلامية، وأن تعمل بجهدا سياسيّ والاقتصاديّ والحضاريّ لنصرة تلك القضايا العادلة في كلّ محفلٍ، وقد تبدّى هذا مؤخرا في موقف مسلمي العالم من

قضية كسر الحصار الظالم على غزة الأبية!

وما سَيَّرُهُ العالم من سفن الإغاثة الإنسانية وأسطول الحرية.

وهنا تتعين الإشارة إلى أقلية يهودية لا يزيد تعدادها في العالم عن ثلاثين مليوناً تلعب دوراً خطيراً في حركة العالم السياسية والاقتصادية، في حين أن الأقليات المسلمة تزيد على عشرة أضعاف تلك الأقلية لا تأثير لها يُذكر أو جهود تؤثر! وهو أمر يدعو إلى بذل كل جهد، واستفراغ كل وسع في تقوية الأقليات المسلمة.





الفصل التاسع عشر

انتصار الإسلام



انتصار الإسلام

الإسلام دين الحق، وهو بأمر الله ظاهر ومنصور، لكن الله في نصره سنن لا تزول ولا تحول، فمن أخذ بها فقد تحقق له الموعود الكريم بالنصر والتمكين.

وقد قال تعالى: ﴿إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وفي الحديث قال ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة في الدين، والنصر والتمكين في الأرض، فمن علم منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»^(١).

ولما تساءل المسلمون في أعقاب أُحُدٍ أتى هذا؟ أي: كيف وقع لنا هذا، ونحن أتباع نبيه ﷺ؟! قال الله لهم: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فمن عند أنفسنا وقع تعطيل الشريعة الإسلامية عن الحكم بين الخلق!

ومن عند أنفسنا ضُغِفَ تمسكنا بمحكّمات الإسلام وثوابته!

ومن عند أنفسنا أساء كثير من أبناء المسلمين إلى الإسلام بسولكياتهم المشينة!

ومن عند أنفسنا وقع التقصير في دعوة الناس إلى الإسلام النقي من كل شوب!

ومن عند أنفسنا خَفَتُ صوتُ الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمة اليوم!

(١) أخرجه أحمد في الزهد، (١/ ٨٢)، والحاكم، (٣٤٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٥/ ٣٣٤).

ونصرة الإسلام تبدأ من عند أنفسنا أيضاً، قال مالك بن دينار **رَحِمَهُ اللهُ**: «إن صدور المؤمنين تغلي بأعمال البرِّ، وإن صدور الفجار تغلي بأعمال الفجور، والله تعالى يرى همومكم، فانظروا ما همومكم - رحمكم الله»^(١).

فنصرة الإسلام همُّ كل مؤمن، وواجب كل مسلم، وفيما يلي معالم مهمة لا بد من القيام بها لنصرة الإسلام العظيم:

أولاً: تجديد الإيمان وإخلاص الدين:

لقد خاطب الله المؤمنين، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾** [النساء: ١٣٦] وهي دعوة لتجديد الإيمان، وقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾** [البقرة: ٢٠٨].

وحذّر الله تعالى من الإيمان المدخول المنقوص بشوائب الشرك والكفر - عياداً بالله - قال تعالى: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾** [يوسف: ١٠٦]، ولنذكر أن وعد الله بالتمكين إنما ينال الموحدين، قال تعالى: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾** [النور: ٥٥].

والله تعالى لا يقبل من الدين إلا ما كان خالصاً، قال تعالى: **﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾** [الزمر: ٣].

قال تعالى: **﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** [البينة: ٥].

(١) أخرجه أحمد في الزهد، رواية عبد الله، (١٩١٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء، (٣٧٠ / ٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٦٩٠٠).

ودعوة التوحيد هي دعوة الاجتماع والوحدة، والتآخي والألفة، فحق على كل مسلم أن يتعلم من التوحيد والإيمان ما تصحُّ به عقيدته، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

ثانياً: اليقين بأن المستقبل لهذا الدين:

عقيدة المؤمنين في كل زمان ومكان أن المستقبل لهذا الدين لأنه حق غالب:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ومهما بذل أعداؤه من جهد، أو أنفقوا من أموال وحشدوا من حشود فإن ذلك كله إلى زوال !

لقد تعددت ترجمات القرآن بالسنة الخلق أجمعين، وترجمت دواوين السنة المطهرة، وأقبل الباحثون الغربيون وعموم المثقفين على معرفة ما لدى المسلمين وتزايد عدد طلاب الجامعات الشرعية من غير الناطقين بالعربية، ليعودوا مبشرين بنور الله ودين الحق في الآفاق !

كما زاد عدد المنصفين الغربيين من كل التخصصات فمن الإعلاميين روبرت فيسك البريطاني، ومن الأكاديميين جون اسبوزيتو، وكارل إيرنست، ومايكل سيلز، وكلهم أمريكيون، ومن الرهبان كارين آرمسترونج، بل وبابا الفاتيكان المستقيل بندكيت السادس عشر والذي راجت أخبار حول إسلامه بعد هجومه على الإسلام ثم قراءته عنه!

وأخيراً فإن الأغلبية الساحقة من أهل تلك الديار ستتغير نظرتهم بمجرد أن تصحح معلوماتهم، لينقلبوا منصفين أو محايدين على الأقل.

ويبقى كل مسلم ينطلق من قول الحق: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

ثالثًا: التلقي عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ:

وهذا يشمل التلقي عن كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ وإجماع سلف الأمة الصالحين، وهذا يستلزم أن يكون التلقي عن الله ورسوله في كل شأن، وفي كل مسألة دقت أو جلت، صغرت أم كبرت، فتلقي العقيدة عن الله ورسوله ﷺ، وتلقي الشريعة عن الله ورسوله ﷺ، وتلقي الأخلاق عن الله ورسوله ﷺ، والسياسات ومناهج الحكم والقضاء عن الله ورسوله ﷺ.

ولا يكمل حتى يكون التلقي مقرونًا بالتسليم والتعظيم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

ولا يتم التلقي حتى يتحقق الاتباع لخير القرون، وأصحاب السابقة بالإيمان من أصحاب النبي العدنان، والرد إلى الأمر الأول الذي كان عليه الرعيل الأول.

رابعًا: العلم بالإسلام والتمسك بثوابته:

العلم بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا وعبادةً وجهادًا، وأحكامًا وآدابًا هو مبدأ النصر، والتمسك به حقيقة الانتصار، فإن ثوابت القرآن والسنة لا تتغير ولا تبدل، فلن تجد لكلمة الحق تبديلًا ولا تحويلًا، والمؤمنون الثابتون على الحق هم أحق الناس بالنصر في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

وأهل الانتصار حالهم كما قال الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وثوابُ العقيدة والشرِعة والأخلاق والآداب واحدةٌ في كل زمان ومكان، فمن أراد أن ينصرَ الإسلامَ فليُنصِرْهُ بالتمسُّكِ بقواعدهِ ومعاقدِهِ ومناهجِهِ، والسعيِ الجادِّ في تحكيمِ شريعتهِ نصًّا وروحًا.

خامسًا: إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد:

فالدعوة إلى الإسلام الصحيح أولويةُ الأولويات فهي أشرفُ الأعمال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَدَقًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، والدعوة إلى الله عملُ الأنبياء والمصلحين: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﴿[الأحزاب: ٤٥-٤٦]﴾.

والدعوة إلى الإسلام وظيفةُ الأفراد والهيئات والدول والمجتمعات. مع توجيه الدعوة إلى تربية الأمة على الإيجابية والمبادرة إلى الخير، وحماية الدين والمقدسات، والغيرة على الحرمات، ورعاية الجوانب السلوكية والحضارية لدى الأمة - أفرادًا وجماعاتٍ - والدعوة إلى تلك القيم الإسلامية العليا، والحرص على تقديم صور حضارية مشرِّفة للمجتمعات المسلمة والدعوة فيها، مع العناية بتجديد وسائل الدعوة والبلاغ، وتوجيه الخطاب المناسب لأمتي الدعوة والإجابة.

سادسًا: إشاعة الوعي والفهم الصحيح والبصيرة:

إن من أهم ما يُنصَرُ به الإسلامُ الوعي والإدراك الصحيح للواقع المعاصر اليوم، وما يتضمنه من فرص ومخاطر، ومن ثم استثمار هذا الوعي الواجب لنصرة الإسلام وفق خطة طموحة تعني بتصحيح صورة الإسلام خارج أرضه، وإعادة تشكيل العقل العالمي نحو الإسلام، والاهتمام بالعمل في الإعلام، وإنشاء منظمات ومؤسسات عالمية للدفاع عن الإسلام وأنبياء الله تعالى مع مدِّ جسور التواصل مع

المنصفين من غير المسلمين، والتعاون معهم لنصرة الإسلام، وبيان عدالته وإنصافه، وتبني الرد المباشر على الحملات الإعلامية التي تسعى لتشويه صورة الإسلام.

سابعاً: السعي لتملك أسباب القوة:

إن الدين الإسلامي هو دين القوة في أخذ تعاليمه، قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهو دين القوة في الإيمان والأبدان، وفي الحديث: «المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف»^(١).

ولا بدَّ للإسلام من قوةٍ ردِّعٍ تحميه، ولا تتأتى إلا بقوة في العلوم التقنية والعسكرية، وقوة في العلوم الاقتصادية والمالية، وقوة في العلوم الهندسية والطبية وغيرها.

فلا بدَّ من إعداد قوة الأبدان، والأذهان، مع قوة الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فلا بدَّ للحق من قوةٍ تحميه واجتماعٍ عليه يقويه وينميه، ولا يتأتى هذا حتى يخرج المسلمون من التبعية لغيرهم؛ فضلاً عن أعدائهم!

ثامناً: مقاومة المنحرفين من المنتسبين للإسلام:

فلا بدَّ من الأخذ على أيدي العلمانيين والمتغربين فكرياً، ومنعهم من تشويه صورة الإسلام، أو الكلام أو التصرف باسمه، وهذا لا يتأتى إلا بتقوية دور العلماء والمصلحين والأميرين بالمعروف من المحتسبين، وتشكيل روابطٍ ولجانٍ للعلماء العاملين تقوم بواجبها في بيان الحق، والردُّ على المنحرفين في الأدب والفكر والثقافة والإعلام.

(١) أخرجه مسلم، (٢٦٦٤).

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

تاسعاً: التأخي واستشعار وحدة الأمة الإسلامية:

أمة الإسلام واحدة، دينها واحد، وعقيدها واحدة، وقبلتها واحدة، ونبؤها واحد، وعباداتها واحدة، ولاثني عشر قرناً من الزمان دولتها واحدة، وربها يقول: ﴿وَلِئِنْ هَدَيْتُمْ أُمَّتَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، ويأمرها بالوحدة والاجتماع وينهاها عن الفرقة والشتات: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والأمة لا تنهض إلا بجهد وتعاون وعمل دؤوب، وسعي - نحو الخير - حثيث، وهذا يُحقق مقاصدها، ويُرهب أعداءها، ويحفظُ عليها حقوقها. ووحدة الأمة من أهم ما يُطلب للدفع عنها وصدِّ الهجمات المتتابعة عليها، فلا بدَّ من اجتماع وتآلف، ووحدة وتعاون وتسامح في الخلاف السائغ، وتحلُّ بالعدل والإنصاف عند التعامل مع المخالف.

وأخيراً؛ فإن كل مسلم يستطيع أن يخدم الإسلام، وأن ينصره في كل حركة وسكنة، ليس لنصرته حدٌّ ولا منتهى، ولا تتوقف في زمان أو مكان أبداً، والمقصود أن يتعلَّق قلبُ المسلم بالإسلام ونصرته قولاً وفعلًا وحالاً وقلبًا.

فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَنْصُرُ الْإِسْلَامَ بِدَعَائِهِ وَتَوْسُّلِهِ إِلَى اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصُرُ الْإِسْلَامَ بِبِكَائِهِ وَخَشْيَتِهِ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصُرُ الْإِسْلَامَ بِحُجَّتِهِ وَجِدَالِهِ، أَوْ بِسَيْفِهِ وَسَنَانِهِ، أَوْ بِدَعْوَتِهِ وَهَدَايَتِهِ، أَوْ بِبَالِهِ وَجَاهِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ نَصْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا^(١).

عاشراً: التفاؤل وإشاعة المبشرات:

إن الإسلام حق الله الذي لا يبطل أبداً، ونوره الذي لا يغيب أبداً، وأمة أمة ولود لا تعقم أبداً، فهي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره!

فمن يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ**

﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]. لا يمكن بحال أن ييأس!

ومن آمن بقوله **﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ﴾**: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في

طاعته»^(٢). لا يمكن بحال أن ييأس!

نحن الذين روى التاريخ قصتهم ونحن أعظم من في الأرض قد ظهرنا

فليس أمام أمة الإسلام إلا أن تتوكل على ربها وتطلب موعوده الصادق بحسن

الظن به، والاعتماد عليه: **﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**

[الحج: ٤٠].

املاً فؤادك من تفاؤله أشرق بوجه باسم الثغر

لا تنكسر فالحرْبُ قائمة بين الهدى وشراذم الكفر

واليأس يهزم نفس صاحبه قبل اللقاء ويعود بالحُسْر

(١) الفوائد، لابن القيم، (ص ٥٩).

(٢) أخرجه أحمد، (١٧٧٨٧)، وابن ماجه، (٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٠٥).



الفصل العشرون

مواقع وقنوات ومراكز إسلامية عالمية



مواقع وقنوات ومراكز إسلامية عالمية

لقد تعددت وسائل الإعلام والدعوة وتنوعت، وبحمد الله فقد وجدت حول العالم منابر نافعة، ومراكز تشع بالهدى والنور، وتبشر بحق خالد، ودين رائد، وسعادة دائمة لا تحول ولا تزول، ومنابر الإسلام العالمية تجلُّ عن الحصر، وتفوق على العدِّ، ولكنها أمثلة لمن أراد السعادة والهداية.

أولاً: مواقع التعريف بالإسلام:

١- موقع ذاكر نايك.

<http://www.irf.net/irf/main.htm>
<http://www.islamicity.com>

٢- موقع د. يوسف آستس.

<http://www.islamtomorrow.com>

٣- موقع مؤسسة تبليغ الإسلام.

<http://www.islamic-message.net>

٤- موقع منتديات كلمة سواء.

<http://www.kalemasawaa.com>

٥- موقع أحمد ديدات.

<http://www.ahmed-deedat.net/wps>

٧- موقع سبيل الإسلام للرد على الشبهات.

<http://sbeelalislam.org>

٨- موقع الإسلام سؤال وجواب بعدة لغات.

<http://sbeelalislam.org>

٩- موقع دار الإسلام.

<http://www.islamhouse.com>

١٠- موقع دعوة غير المسلمين بعدة لغات.

<http://www.thekeytoislam.com>

ثانيًا: المواقع الإلكترونية للفتيا:

١- الإسلام سؤال وجواب.

<http://sbeelalislam.org>

٢- موقع وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد (المملكة العربية السعودية).

<http://www.al-islam.com>

٣- مركز الفتوى (إسلام ويب) - وزارة الأوقاف القطرية - .

<http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php>

٤- فتاوي دار الافتاء المصرية.

<http://www.dar-alifta.org>

ثالثًا: مواقع إسلامية عامة:

١- الإسلام اليوم.

<http://www.islamtoday.net>

٢- الألوكة.

<http://majles.alukah.net>

- ٣- المسلم. <http://www.almoslim.net>
- ٤- ملتقى أهل الحديث. <http://www.ahlalhdeth.com>
- ٥- صيد الفوائد. <http://www.saaaid.net>
- ٦- نداء الإسلام. <http://islam-call.com>
- ٧- مفكرة الإسلام. <http://www.islammemo.cc>
- ٨- المختصر. <http://www.almokhtsar.com>
- ٩- موقع الشيخ ابن باز. <http://www.binbaz.org.sa>
- ١٠- موقع المربي. <http://www.almurabbi.com>
- ١١- موقع طريق الإسلام. <http://www.islamway.com>
- ١٢- الشبكة الإسلامية. <http://www.islamweb.net/>

رابعاً: الفضائيات الإسلامية:

- ١- قناة المجد الفضائية. <https://almajdtv.tv>
- ٢- قناة الهدى الفضائية. <http://www.huda.tv>

٣- قناة إقرأ الفضائية.

<http://iqraa.com/ar>

٤- قناة الرحمة الفضائية.

<http://www.alrahma.tv>

٥- قناة طيبة الفضائية.

<http://www.tayba.tv>

٦- قناة وصال الفضائية.

<http://www.wesal.tv>

٧- قناة المعالي الفضائية.

<http://www.m3ali.tv>

٨- قناة العفاسي الفضائية.

<http://www.alafasy.tv>

٩- قناة صفا الفضائية.

<http://safatv.net>

١٠- قناة دار الحكمة الفضائية.

<http://www.alhekmah.tv>

خامسًا: مواقع المراكز الإسلامية:

١- المؤسسة الثقافية الإسلامية في جنيف.

<http://www.mosque.ch/>

٢- المجلس الإسلامي السويسري.

<http://www.iman.ch/>

٣- المركز الثقافي الإسلامي في مدريد.

<http://www.ccislamico.com>

٤- المركز الإسلامي في واشنطن.

www.gwmsa.com

٥- المركز الإسلامي في ميونخ.

www.islamisches-zentrum-muenchen.de

٦- المركز الإسلامي في موسكو.

<http://www.irhal.com/a>

٧- المركز الإسلامي في اليابان.

<http://islamcenter.or.jp/>

٨- المركز الإسلامي أستراليا.

<http://www.saudiinaustralia.com>

٩- المركز الاسلامي بمدينة كيل - ألمانيا

<http://www.islaminkiel.de/newss.php?SID=٢٩>

١٠- اتحاد المؤسسات الإسلامية في البرازيل

<http://www.islamlatin.com/>

١١- المركز الاسلامي الكندي

<http://cical-jamieh.com/en/home/>



المراجع

- ١- **الأبطال**، لتوماس كارليل، تعريب: محمد السباعي، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، مصر.
- ٢- **الإتقان في علوم القرآن**، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.
- ٣- **أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية**، لأحمد الملا، دار القلم، بيروت، لبنان.
- ٤- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: د. أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- ٥- **أحكام أهل الذمة**، لابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، وشاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر، الدمام، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- ٦- **الإحكام في قواعد الحكم على الأنام**، لمحمد يسري، دار اليسر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- ٧- **السنة**، لابن أبي عاصم، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- ٨- **الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين**، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- ٩- **الاستقامة**، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

- ١٠ - أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، لجون هاك، ترجمة: د. نبيل صبحي، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- ١١ - الإسلام خواطر وسوانح، لهنري دي كاسترو، ترجمه من الفرنسية: أحمد فتحي زغلول، مطبعة الشعب، القاهرة، مصر، ١٩١١ م.
- ١٢ - الإسلام دين وعقيدة ودعوة حضارة، لمحمد الشقيري، مقال، صحيفة شباب، الإمارات العربية المتحدة، ٢٦ رمضان ١٤٣٢ هـ.
- ١٣ - الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، لمحمد وقيع الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
- ١٤ - الإسلام في عيون غربية، لمحمد عمارة، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، مصر.
- ١٥ - الإسلام في نظر أعلام الغرب، لحسين عبد الله باسلامة، الدار الشامية، بيروت، لبنان.
- ١٦ - الإسلام منهج حياة، لفيليب حتى، نشر دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٧١ م.
- ١٧ - الإسلام والرأسمالية، لمكسيم رودنسون، ترجمة: نزيه الحكيم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ١٩٦٨ م.
- ١٨ - الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، لمونتجيري وات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
- ١٩ - الإسلام وضرورات الحياة، لعبد الله قادري الأهمل، المكتبة الخضراء، جدة، المملكة العربية السعودية.
- ٢٠ - الإسلام يصطفي من الغرب العظماء، لمفيد الغندور، المكتبة التجارية، القاهرة، مصر.

٢١- الإسلام.. حقيقته، عقائده، شرائعه، نظمه، لمحمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، بيروت، لبنان.

٢٢- الأشباه والنظائر، للسيوطي، تحقيق: محمد تامر، دار السلام، القاهرة، مصر.

٢٣- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، للطاهر بن عاشور، دار السلام، القاهرة، مصر.

٢٤- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجليل، بيروت، لبنان، ١٩٧٣م.

٢٥- الاقتصاد في الاعتقاد، لعبد الغني المقدسي، تحقيق: أحمد بن عطية الغامدي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

٢٦- الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، لسيد عبد المجيد بكر، رابطة العالم الإسلامي، مكة، المملكة العربية السعودية.

٢٧- الأقليات المسلمة في العالم، لمحمد علي ضناوي، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، القاهرة، مصر.

٢٨- إنسانية الإسلام، لمارسيل بوازار، ترجمة: الدكتور عفيف دمشقية، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

٢٩- أنوار البروق في أنواء الفروق، لأحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي، تحقيق: د. على جمعة محمد، د. محمد أحمد سراج، دار السلام، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٣٠- أوروبا والإسلام.. صدام الثقافة والحداثة، لهشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠١م.

٣١- أوضاع الأقليات والجاليات الإسلامية، لمجدي الداغري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

- ٣٢- **إيثار الحق على الخلق**، لمحمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- ٣٣- **الإيمان بالقضاء والقدر**، لعمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ٣٤- **الإيمان باليوم الآخر**، لمحمد الحمد، مكتبة الألوكة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٣م.
- ٣٥- **الإيمان**، لعبد الله بن عبد الحميد الأثري، دار اليسر، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
- ٣٦- **بينات الحل الإسلامي**، للقرضاوي، دار البشائر، القاهرة، مصر.
- ٣٧- **التبشير والاستعمار**، لمصطفى الخالدي، دار القلم، بيروت، لبنان.
- ٣٨- **تذكرة السامع والمتكلم**، لابن جماعة، تحقيق: محمد مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.
- ٣٩- **التشريع الجنائي الإسلامي**، لعبد القادر عودة، دار الحديث، القاهرة، مصر.
- ٤٠- **تعرف على الإسلام**، لمنقذ السقار، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.
- ٤١- **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٤٢- **تفسير التحرير والتنوير**، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- ٤٣- **تفسير الطبري**، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٤ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق: مجموعة من المحققين، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مصر، (مصورة عن الطبعة المغربية، ١٣٨٧هـ).

٤٥ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٦ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للزرقاني، والخطابي، والجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٦م.

٤٧ - جامع العلوم والحكم، لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٤٨ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٤٩ - الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، لمحمد كامل عبد الصمد، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر.

٥٠ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٥١ - الحضارة الإسلامية وأثرها في الغرب، لإسماعيل ياغي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٥٢ - حقوق الإنسان في الإسلام، لمحمد يسري، مقرر جامعة المدينة العالمية.

- ٥٣ - **حكم النبي محمد**، لتولستوي، المكتبة العالمية، القاهرة، مصر.
- ٥٤ - **الحل الإسلامي فريضة وضرورة**، للقرضاوي، مكتبة الشروق.
- ٥٥ - **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- ٥٦ - **حياة محمد**، لواشنجتون إيرفنج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
- ٥٧ - **حياة محمد**، لوليم موير، تعريب: محمد السباعي، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، مصر.
- ٥٨ - **الخراج**، لأبي يوسف، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر.
- ٥٩ - **خلق الإنسان**، لمحمد علي البار، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- ٦٠ - **درة البيان**، لمحمد يسري، دار اليسر، القاهرة، الطبعة السابعة، ٢٠١٢م.
- ٦١ - **الدعوة إلى الإسلام**، لتوماس أرنولد، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر.
- ٦٢ - **رجال ونساء أسلموا**، لعرفات كامل، المكتب المصري الحديث، القاهرة، مصر.
- ٦٣ - **رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار**، لمحمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن عابدين الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- ٦٤ - **الرد على الجهمية والزنادقة**، لأحمد بن حنبل، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع.
- ٦٥ - **رسائل في العقيدة**، لابن عثيمين، مؤسسة ابن عثيمين، القصيم، المملكة العربية السعودية.
- ٦٦ - **الرسالة الخالدة**، لعبد الرحمن عزام، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.
- ٦٧ - **الرسائل والرسالات**، لعمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

- ٦٨- **الرسول في عيون غربية منصفة**، للحسيني معدي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٦٩- **روضة الطالبين وعمدة المفتين**، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، طبع بإشراف زهير الشاويش المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- ٧٠- **زاد المسير في علم التفسير**، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- ٧١- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٧٢- **سر إسلام رواد الفكر الحر في أوروبا وعلماء الدين المسيحي الأجلاء**، لمحمد عبد العظيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر.
- ٧٣- **السفر إلى الشرق**، للامارتين، مكتبة الجامعة الأمريكية، القاهرة، مصر.
- ٧٤- **السلسلة الصحيحة**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٥هـ.
- ٧٥- **السنة**، لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال، تحقيق: عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، ١٤١٠هـ.
- ٧٦- **سنن ابن ماجه**، لمحمد بن يزيد أبي عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٧٧- **سنن أبي داود**، لسليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٧٨- **سنن البيهقي الكبرى**، لأحمد بن الحسين أبي بكر البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ.
- ٧٩- **سنن الترمذي (الجامع الصحيح)**، لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- ٨٠- **سنن الدارقطني**، لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني، تحقيق: مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- ٨١- **سنن الدرامي (مسند الدارمي)**، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ٨٢- **سنن النسائي الكبرى**، لأحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٨٣- **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- ٨٤- **سيكولوجيا الجماهير**، لجوستاف لوبون، ترجمة: هاشم صالح، دار المسامرة، بيروت، لبنان.
- ٨٥- **شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان**، للقرضاوي، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- ٨٦- **الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل**، لمحمود البابلي، دار السلام، القاهرة، مصر.
- ٨٧- **شريعة القرآن من دلائل إعجازه**، لمحمد أبي زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
- ٨٨- **شعب الإيمان**، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٨٩- **الشفاء بتعريف حقوق المصطفى**، لعياض بن موسى اليحصبي السبتي، دار الفيحاء، دمشق، سورية.

- ٩٠ - **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، لابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٩١ - **شمس العرب تسطع على الغرب**، لزيغريد هونكه، دار صادر، بيروت، لبنان.
- ٩٢ - **صحيح البخاري**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
- ٩٣ - **صحيح الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير)**، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٩٤ - **صحيح سنن ابن ماجه**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٩٥ - **صحيح سنن أبي داود**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٩٦ - **صحيح سنن الترمذي**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٩٧ - **صحيح سنن النسائي**، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٩٨ - **صحيح مسلم**، لمسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ٩٩ - **صفة الصفوة**، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٠٠ - **الصفدية**، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

- ١٠١ - **طريق الهداية**، لمحمد يسري، دار اليسر، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.
- ١٠٢ - **عالم الملائكة الأبرار**، لعمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ١٠٣ - **عطاء الإسلام الحضاري**، لأنور الجندي، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.
- ١٠٤ - **عظماء أسلموا**، لراغب السرجاني، دار التقوى، القاهرة، مصر.
- ١٠٥ - **العظمة**، لابن حيان الأصبهاني، تحقيق: رحمة الله المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- ١٠٦ - **العقيدة والشريعة في الإسلام**، لجولدزيهر، ترجمة: محمد عوني عبد الرؤوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
- ١٠٧ - **العهد القديم والعهد الجديد**، دار الكتاب المقدس، القاهرة، مصر.
- ١٠٨ - **العين والأثر في عقائد أهل الأثر**، لعبد الباقي الحنبلي، تحقيق: عصام رواس قلعه جي، دار المأمون للتراث.
- ١٠٩ - **الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس**، لمحمد الغتيت، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
- ١١٠ - **الفاتيكان والإسلام**، لمحمد عمارة، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، مصر.
- ١١١ - **فارس الخوري وأيام لا تنسى**، لمحمد الفرحاني، مطابع دار الغد، بيروت، لبنان.
- ١١٢ - **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، (مصورة عن طبعة المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة، مصر)، ١٣٧٩هـ.

- ١١٣- فتوح مصر وأخبارها، لابن أبي الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
- ١١٤- الفروق، للقرافي، دار السلام، القاهرة، مصر.
- ١١٥- فقه الزكاة، ليوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، القاهرة الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- ١١٦- فقه النوازل للأقليات المسلمة، لمحمد يسري، دار اليسر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- ١١٧- الفكر السياسي عند المسلمين، للامبتون، عالم المعرفة، بيروت، لبنان.
- ١١٨- قالوا عن الإسلام، لعماد الدين خليل، دار التقوى، القاهرة، مصر.
- ١١٩- القانون والمجتمع، لدافيد دي سانتيلانا، دراسة منشورة في كتاب: تراث الإسلام، بإشراف توماس أرنولد. إصدار مؤسسة عالم المعرفة، الكويت.
- ١٢٠- القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، لموريس بوكاي، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر.
- ١٢١- قصة الحضارة، لول ديورانت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
- ١٢٢- قصص الأنبياء، لعبد الوهاب النجار، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر.
- ١٢٣- الكافي، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ١٢٤- كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ١٢٥- لا سكوت بعد اليوم، لبول فنللي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، القاهرة، مصر.

- ١٢٦- **لسان العرب**، لمحمد بن مكرم بن منظور، تحقيق: أمين عبد الوهاب، ومحمد العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
- ١٢٧- **لقاءات الباب المفتوح مع فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين**، مؤسسة ابن عثيمين، القصيم، المملكة العربية السعودية.
- ١٢٨- **الله ليس كذلك**، لزيجريد هونكه، دار الشروق بالاشتراك مع مجلة النور الكويتية.
- ١٢٩- **مؤامرة فصل الدين عن الدولة**، لمحمد كاظم حبيب، دار الفضيلة للنشر، بيروت، لبنان.
- ١٣٠- **مجلة الفيصل**، عدد إبريل ١٩٩٢م.
- ١٣١- **مجلة الوعي الإسلامي الكويتية**، عدد (٢٥٦)، لسنة ١٤٠٦هـ.
- ١٣٢- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي، وابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٩٨هـ- ١٩٨٨م.
- ١٣٣- **المجموع شرح المذهب**، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ١٣٤- **مجموع فتاوي ابن باز**، إعداد سعد الشويعر، دار المؤيد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- ١٣٥- **مجموع فتاوي شيخ الإسلام**، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- ١٣٦- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لمحمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

- ١٣٧- **محنة الأقليات المسلمة في العالم**، لمحمد عبد الله السمان، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، القاهرة، مصر.
- ١٣٨- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- ١٣٩- **المذكرات**، لمحمد كرد علي، دار ابن كثير، بيروت، لبنان.
- ١٤٠- **المرأة في الحضارة الإسلامية**، لعلي جمعة، دار السلام، القاهرة، مصر.
- ١٤١- **المستدرک علی الصحیحین**، لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (مصورة عن الطبعة الهندية).
- ١٤٢- **المستصفی فی علم الأصول**، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ١٤٣- **المسلمون تحت السيطرة الشيوعية**، لمحمود شاكر، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن.
- ١٤٤- **المسلمون والعلم الحديث**، عبد الرزاق نوفل، دار السلام، القاهرة، مصر.
- ١٤٥- **المسند**، لأحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، (مصورة عن الطبعة الميمنية).
- ١٤٦- **مصنف عبد الرزاق**، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ١٤٧- **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، لحافظ بن أحمد بن علي الحكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبي عمر، دار ابن القيم، الدمام، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- ١٤٨- **معالم التنزيل**، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد النمر، وعثمان ضميرية، وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- ١٤٩- **معالم في أصول الدعوة**، لمحمد يسري، دار اليسر، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.
- ١٥٠- **معجم أبي يعلى**، لأحمد بن علي بن المثنى الموصل، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ١٥١- **المعجم الكبير**، لسليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، العراق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.
- ١٥٢- **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- ١٥٣- **المغني**، لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبد الله التركي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- ١٥٤- **المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية**، لربحي مصطفى عليان، دار العلم، بيروت، لبنان.
- ١٥٥- **منهاج السنة النبوية**، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- ١٥٦- **النبوات**، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٥٧ - نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي، لعز الدين فراج، مكتبة آفاق المعرفة، القاهرة، مصر.
١٥٨ - النظريات العامة للمعاملات في الشريعة الإسلامية، لأحمد فهمي أبي سنة، دار
الاعتصام، القاهرة، مصر.

١٥٩ - محاضرات في الفتح الإسلامي لمصر، لمحمد سليم العوا، دار الشروق، القاهرة، مصر.
١٦٠ - هل ينقذ الاقتصاد الإسلامي العالم من السقوط للهاوية؟ لإسماعيل شلبي، مقال نشر

بموقع: محيط شبكة الإعلام العربية. <http://moheet.com>

١٦١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، دار القلم، بيروت، لبنان.
١٦٢ - هداية الخيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد
أحمد الحاج، دار القلمدار الشامية، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
١٦٣ - هذه أخلاقنا، لمحمود الخازندار، دار طيبة، السعودية.
١٦٤ - الوسطية بين واجب المواطنة في أوروبا وحفظ الهوية الإسلامية، د. صهيب
حسن، بحث في المؤتمر الدولي للوسطية، ١٤٢٧هـ.

١٦٥ - **N. Daniel**, Islam and the West: The making of an image.

Edinburgh university press, Edinburgh, ١٩٦٦, P.٢٣٥.□



الفهرس

مقدمة	٥
الفصل الأول: حقيقة الإسلام	١٣
تعريف الإسلام	١٧
الإسلام العام	١٧
الإسلام الخاص	١٩
الاستسلام لله	١٩
الاتباع الكامل لرسول الله ﷺ	٢٠
البراءة من الشرك وأهله	٢١
الفصل الثاني: أركان الإسلام والإيمان والإحسان	٢٥
أولاً: أركان الإسلام	٣٠
الركن الأول: الشهادتان	٣١
الركن الثاني: الصلاة	٣٢
الركن الثالث: الزكاة	٣٤
الركن الرابع: الصيام	٣٦
الركن الخامس: الحج	٣٨

- ٤٠ ثانيًا: أركان الإيمان
- ٤١ الركن الأول: الإيمان بالله تعالى
- ٤٥ الركن الثاني: الإيمان بالملائكة
- ٤٦ الركن الثالث: الإيمان بالكتب
- ٤٩ الركن الرابع: الإيمان بالرسول
- ٥٢ الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر
- ٥٦ الركن السادس: الإيمان بالقضاء والقدر
- ٥٩ ثالثًا: ركن الإحسان
- ٦١ الفصل الثالث: كتاب الإسلام
- ٦٥ أولاً: أسماء كتاب الإسلام وأوصافه
- ٦٦ ثانيًا: وجوه إعجاز كتاب الإسلام
- ٧٠ ثالثًا: تأثير كتاب الإسلام على سامعيه
- ٧٣ الفصل الرابع: نبي الإسلام ﷺ
- ٧٥ أولاً: نبي الإسلام محمد ﷺ هو بشارة موسى عليه السلام
- ٧٧ ثانيًا: نبي الإسلام محمد ﷺ هو ترنيمة داود عليه السلام في مزاميره
- ٧٨ ثالثًا: نبي الإسلام محمد ﷺ هو بشارة عيسى عليه السلام
- ٧٩ رابعًا: نبي الإسلام محمد ﷺ في كتب أخرى
- ٨١ خامسًا: شهادات منصفة

سادسًا: عظماء أسلموا	٨٣
الرهبان والقسس والحاخامات	٨٣
ومن الأدباء والشعراء	٨٤
ومن العلماء والمفكرين	٨٤
فنانون ورياضيون	٨٥
الفصل الخامس: خصائص الإسلام	٨٧
أولًا: الربانية	٨٩
ثانيًا: الفطرية	٩١
ثالثًا: العالمية	٩٢
رابعًا: الشمولية	٩٤
خامسًا: الوسطية	٩٥
الفصل السادس: خصائص الأمة الإسلامية	٩٧
أولًا: الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس	٩٩
ثانيًا: أمة لا تجتمع على ضلالة	١٠١
ثالثًا: أمة منصوره مرحومة	١٠٢
رابعًا: أمة العفو والسعة	١٠٢
خامسًا: أمة الشهادة على الخلق يوم القيامة	١٠٣
سادسًا: أول الأمم جوازًا على الصراط ودخولًا الجنة، وهي أكثر	
أهل الجنة	١٠٣

- ١٠٤ خصائص أهل السنة والجماعة
- ١٠٥ أولاً: أهل العقيدة الصحيحة
- ١٠٥ ثانياً: أهل العناية بالقرآن والرعاية لسنة النبي العدنان
- ١٠٦ ثالثاً: أهل الوسطية بين المختلفين من أهل الإسلام
- ١٠٦ رابعاً: أهل الاجتماع على الاتباع ونبذ الفرقة والابتداع
- ١٠٧ خامساً: أهل الأخلاق الإيمانية والتربية الربانية
- ١٠٧ سادساً: أهل الدعوة والبلاغ، والأمر والنهي
- ١٠٨ سابعاً: أهل الجهاد بالحجة والبيان، والسيف والسنان
- ١٠٩ **الفصل السابع: محاسن الإسلام**
- ١١٢ أولاً: محاسن الإسلام الدينية الذاتية
- ١١٢ ١- الإسلام هو الدين الحق المعصوم
- ١١٣ ٢- الإسلام دين الهدى والرحمة
- ١١٣ ٣- الإسلام دين وهوية وجنسية عالمية
- ١١٤ ٤- الإسلام دين شامل ومفصل
- ١١٥ ٥- الإسلام دين السماحة واليسر
- ١١٦ ٦- الإسلام دين السعة والمرونة
- ١١٧ ٧- الإسلام دين المثالية والواقعية
- ١١٨ شهادات غربية على محاسن الإسلام الذاتية

ثانيًا: محاسن العقيدة الإسلامية ١١٩

١ - دعائم العقيدة الإسلامية ١١٩

٢ - توحيد الله تعالى ١١٩

٣ - اعتقاد أركان الإيمان ١٢٠

ثالثًا: خصائص العقيدة الإسلامية ١٢١

١ - أثرية العقيدة ١٢١

٢ - شمولية العقيدة ١٢٢

٣ - عقلانية العقيدة وغيبيتها ١٢٣

٤ - فطرية العقيدة ووضوحها ١٢٥

٥ - الوسطية ١٢٦

٦ - الإيجابية والعملية ١٢٧

رابعًا: محاسن الشريعة الإسلامية وخصائصها ١٢٨

١ - الصلاحية والإصلاحية ١٢٩

٢ - التحرر والحرية ١٣١

٣ - الاجتماعية ١٣٦

٤ - الأخلاقية ١٣٨

٥ - السعة والمرونة ١٤١

خامسًا: محاسن العبادة الإسلامية وخصائصها ١٤٣

١ - الشمولية ١٤٤

- ٢- الاستمرارية ١٤٥
- ٣- التوقيفية ١٤٧
- ٤- الوسطية ١٤٨
- ٥- اليسر ورفع الحرج ١٥٠
- سادسًا: محاسن الدعوة الإسلامية ١٥١
- ١- دعوة الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص ١٥٢
- ٢- دعوة الاجتماع على الاتباع ١٥٣
- ٣- دعوة التربية والتركية ١٥٥
- ٤- دعوة البلاغ العام الشامل المتكامل ١٥٧
- ٥- دعوة واقعية على بصيرة ١٥٩
- الفصل الثامن: قيم وحقوق رعاها الإسلام ١٦٣**
- أولًا: القيم الإنسانية في الإسلام ١٦٥
- ١- العلم ١٦٥
- ٢- العدل ١٦٧
- ٣- العمل ١٧٢
- ٤- التأخي ١٧٥
- ثانيًا: حقوق الإنسان في الإسلام ١٧٧
- ١- واجب الإنسان تجاه ربه وخالقه ١٧٩
- ٢- واجب الإنسان تجاه والديه وأقاربه ١٧٩

- ٣- واجب الإنسان تجاه أسرته ١٨٠
- ٤- واجب الإنسان تجاه ولاية الأمر ١٨١
- ٥- واجب الإنسان تجاه المجتمع ١٨٢
- ٦- واجب المسلم تجاه المجتمعات الدولية ١٨٤
- ثالثاً: حقوق الأطفال والأبناء في الإسلام ١٨٦
- ١- حق الطفل والولد في حسن اختيار أبويه ١٨٦
- ٢- حق الطفل جنيئاً في الحياة والحفاوة به ١٨٧
- ٣- حق الطفل في حسن التسمية والانتساب لأبويه ١٨٨
- ٤- حق الطفل في الرضاعة والحضانة ١٨٩
- ٥- حق الأطفال في النفقة والعدل والمساواة ١٩٠
- ٦- حق الطفل في التأديب والتربية والضمان الاجتماعي ١٩١
- ٧- حق الطفل في تعلم دينه وأحكامه ١٩٢
- ٨- حق الطفل في اللهو المباح، والاستمتاع بزمان الطفولة ١٩٢
- رابعاً: حقوق الوالدين في الإسلام ١٩٣
- خامساً: حقوق المرأة في الإسلام ١٩٥
- ١- حق المرأة في التعليم والتعلم والدعوة ١٩٦
- ٢- حق المرأة في العمل ١٩٧
- ٣- حق المرأة في المشاركة السياسية ١٩٨

- ٤ - الحقوق المالية للمرأة في الإسلام ١٩٨
- ٥ - الحقوق الاجتماعية للمرأة في الإسلام ١٩٩
- سادسًا: حقوق غير المسلمين في الإسلام ٢٠١
- ١ - حق أهل الذمة في حفظ الكرامة الإنسانية ٢٠٢
- ٢ - حق أهل الذمة في العدل ٢٠٢
- ٣ - حق أهل الذمة في حماية دماءهم وأموالهم ٢٠٣
- ٤ - حق أهل الذمة في حرية المعتقد وممارسة الشعائر ٢٠٤
- ٥ - حق أهل الذمة في التعلم والعمل ٢٠٥
- ٦ - حق أهل الذمة في حرية التنقل والإقامة داخل دار الإسلام ٢٠٥
- ٧ - حق أهل الذمة في كفايتهم وتأمينهم اجتماعيًا ٢٠٦
- كلمة أخيرة ٢٠٧
- الفصل التاسع: مقاصد شريعة الإسلام** ٢٠٩
- المقصد الأول: حفظ الدين ٢١٤
- أولاً: وجوب التفقه في الدين، وطلب علمه ٢١٤
- ثانيًا: وجوب العمل بعلم الدين، والدعوة إليه ٢١٥
- ثالثًا: وجوب الحكم بالإسلام ٢١٦
- رابعًا: تشريع كل أسباب الدفاع عنه وحمايته ٢١٧
- المقصد الثاني: حفظ النفس الإنسانية ٢١٨

- أولاً: تكريم النفس الإنسانية ٢١٨
- ثانياً: حفظ الحق في الحياة ٢١٩
- ثالثاً: تحريم الانتحار وقتل النفس ٢٢٠
- رابعاً: إباحة المحرم لإنقاذ النفس ٢٢٠
- خامساً: تشريع القصاص والحدود ٢٢١
- المقصد الثالث: حفظ النسل ٢٢١
- أولاً: الترغيب في التناسل والنهي عن ترك النكاح ٢٢٢
- ثانياً: تحريم الاعتداء على الجنين ٢٢٣
- ثالثاً: حفظ الأعراض وصيانة الأنساب ٢٢٤
- المقصد الرابع: حفظ العقل ٢٢٦
- أولاً: تكريم العقل ورعايته ٢٢٦
- ثانياً: تحرير العقل من معوقاته وتوظيفه في مجالاته ٢٢٧
- ثالثاً: اعتبار العقل مناط التكليف ٢٢٨
- رابعاً: حماية العقل من المسكرات والمخدرات ٢٢٨
- المقصد الخامس: حفظ المال ٢٢٩
- أولاً: إباحة اكتساب المال من حله ٢٣٠
- ثانياً: بينت الشريعة المكاسب المحرمة إجمالاً وتفصيلاً ٢٣٢
- ثالثاً: إنفاق المال في حقه ٢٣٤

٢٣٩ الفصل العاشر: أخلاق الإسلام وآدابه

٢٤١ أولاً: الأخلاق الإسلامية

٢٤٢ ١- خلق الصدق

٢٤٤ ٢- خلق التواضع

٢٤٧ ٣- خلق الأمانة

٢٤٩ ٤- خلق الشجاعة

٢٥١ ٥- خلق الكرم

٢٥٤ ثانيًا: الآداب الإسلامية

٢٥٤ ١- الأدب مع القرآن الكريم

٢٥٥ ٢- آداب المساجد

٢٥٧ ٣- آداب المجالس

٢٥٨ ٤- آداب الأكل والشرب

٢٦٠ ٥- آداب اللباس والزينة

٢٦١ ٦- آداب الضيافة والوليمة

٢٦٣ ٧- آداب السفر

٢٦٤ ٨- آداب النوم

٢٦٥ ٩- آداب الفطرة

٢٦٦ ١٠- آداب الزيارة

- ١١ - آداب السلام ٢٦٧
- ١٢ - آداب التداوي ٢٦٨
- ١٣ - آداب البيوت ٢٦٩
- ١٤ - آداب الذكر ٢٧٠
- ١٥ - آداب عيادة المريض ٢٧١
- ١٦ - آداب الجنائز ٢٧٢
- ١٧ - آداب الجوار ٢٧٤
- الفصل الحادي عشر: المقدسات الإسلامية** ٢٧٥
- أولاً: الكعبة والمسجد الحرام ٢٧٧
- فضائل المسجد الحرام ٢٧٩
- ثانياً: المسجد النبوي ٢٨١
- فضائل المسجد النبوي ٢٨٢
- ثالثاً: المسجد الأقصى ٢٨٢
- فضائل المسجد الأقصى ٢٨٣
- الفصل الثاني عشر: دولة الإسلام** ٢٨٥
- أولاً: الدول الإسلامية الكبرى المتعاقبة ٢٨٩
- ١ - الخلافة الراشدة: (١١-٤١ هـ) ٢٨٩
- ٢ - الخلافة الأموية: (٤١-١٣٢ هـ) ٢٨٩

- ٢٩٠ ٣- الخلافة العباسية: (١٣٢-٦٥٦هـ)
- ٢٩١ ٤- الخلافة العثمانية: (٧٠٠-١٣٤٢هـ)
- ٢٩٢ ثانيًا: خصائص دولة الإسلام
- ٢٩٢ ١- السيادة للشريعة المطهرة
- ٢٩٢ ٢- السلطان للأمة
- ٢٩٢ ٣- إقامة العدل
- ٢٩٢ ٤- الشورى ضرورة
- ٢٩٣ ٥- ضمان الحقوق والحريات
- ٢٩٣ ٦- صيانة وحدة الأمة والدولة
- ٢٩٣ ٧- إقامة الجهاد نصرًا للحق وتحريرًا للخلق
- ٢٩٣ ٨- طاعة الحكام ومسئوليتهم
- ٢٩٤ ٩- تولية الأكفاء الأمناء
- ٢٩٤ ١٠- المرونة والسعة
- ٢٩٤ ١١- إقامة الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٢٩٥ ثالثًا: نقد الدولة الإسلامية تاريخيًا وواقعيًا
- ٢٩٧ الفصل الثالث عشر: حضارة الإسلام
- ٣٠٠ أولاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية
- ٣٠٢ ثانيًا: قنوات التواصل الحضارية بين الإسلام والغرب

- ١- الحروب الصليبية ٣٠٣
- ٢- الفتح الإسلامي لصقلية ٣٠٣
- ٣- الأندلس ٣٠٣
- ثالثاً: إسهامات المسلمين الحضارية في العلوم والفنون ٣٠٤
- ١- الجامعات والمراكز العلمية ٣٠٤
- ٢- المكتبات ٣٠٥
- ٣- مكتشفات وابتكارات علماء المسلمين ٣٠٥
- أ- مكتشفات علم الكيمياء ٣٠٥
- ب- مكتشفات علم الفيزياء ٣٠٦
- ج- مكتشفات علم الرياضيات ٣٠٦
- د- مكتشفات علم الفلك ٣٠٦
- هـ- مكتشفات علم الطب ٣٠٧
- الفصل الرابع عشر: عطاء الإسلام للبشرية المعذبة ٣٠٩**
- إحصائيات عن الشقاء الغربي ٣١٤
- الفصل الخامس عشر: لماذا الحرب على الإسلام؟! ٣١٩**
- أولاً: صورة الإسلام ونبيه في العقلية الغربية ٣٢٢
- ثانياً: أسباب الكراهية والتخوف من الإسلام ٣٢٦

٣٣١ الفصل السادس عشر: الإسلام في عيون المنصفين

٣٣٣ أولاً: نبينا محمد ﷺ في عيون المنصفين

٣٣٦ ثانياً: لم ينتشر الإسلام بحد السيف

٣٣٦ ثالثاً: للقرآن على القلوب سلطان

٣٣٦ رابعاً: تفوق الشريعة الإسلامية على الشرائع السابقة

٣٣٧ خامساً: تسامح الفاتحين المسلمين لا نظير له في العالمين

٣٣٨ سادساً: الإسلام نصير المرأة

٣٣٩ سابعاً: حلول إسلامية لمعضلات اقتصادية

٣٤١ ثامناً: حضارة الإسلام هي حضارة الإنسان

٣٤٣ تاسعاً: دعوة المنصفين للإسلام

٣٤٥ الفصل السابع عشر: شبهات حول الإسلام

أولاً: الإسلام دين لا تسامح فيه، يميل إلى العنف والقتل والإرهاب

٣٤٧ باسم الجهاد؛ فهل هذه الرؤية عن الإسلام صحيحة؟!

ثانياً: ألا يعتبر تشريع تعدد الزوجات وفرض الحجاب وعدم

المساواة بين الرجل والمرأة في الميراث والشهادة نوعاً من

٣٥٤ التمييز والظلم للمرأة؟!

ثالثاً: يعاب النظام الإسلامي للعقوبات بوحشية وعنف وتعطيل لمنافع

٣٥٩ الإنسان بقطع أعضائه، أو إزهاق روحه في الحدود؟!

رابعاً: لماذا تبدو من المسلمين مجافاة للعلم وللعقل وللابتكار؟ وهل

يرجع هذا إلى دينهم؟ ٣٦٣

الفصل الثامن عشر: الأقليات الإسلامية ٣٦٧

أولاً: تقسيم الأقليات الإسلامية ٣٧٠

ثانياً: مشكلات الأقليات الإسلامية ٣٧١

ثالثاً: مقاصد شرعية في حياة الأقليات الإسلامية ٣٧٥

الفصل التاسع عشر: انتصار الإسلام ٣٧٩

أولاً: تجديد الإيمان وإخلاص الدين ٣٨٢

ثانياً: اليقين بأن المستقبل لهذا الدين ٣٨٣

ثالثاً: التلقي عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ ٣٨٤

رابعاً: العلم بالإسلام والتمسك بثوابته ٣٨٤

خامساً: إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد ٣٨٥

سادساً: إشاعة الوعي والفهم الصحيح والبصيرة ٣٨٥

سابعاً: السعي لتملك أسباب القوة ٣٨٦

ثامناً: مقاومة المنحرفين من المنتسبين للإسلام ٣٨٦

تاسعاً: التآخي واستشعار وحدة الأمة الإسلامية ٣٨٧

عاشراً: التفاؤل وإشاعة المبشرات ٣٨٨

٣٨٩	 الفصل العشرون: مواقع وقنوات ومراكز إسلامية عالمية
٣٩١	 أولاً: مواقع التعريف بالإسلام
٣٩٢	 ثانياً: المواقع الإلكترونية للفتيا
٣٩٢	 ثالثاً: مواقع إسلامية عامة
٣٩٣	 رابعاً: الفضائيات الإسلامية
٣٩٤	 خامساً: مواقع المراكز الإسلامية
٣٩٦	 المراجع
٤١١	 الفهرس

